تشيماماندا نِجوزي أديتشي

قصص

ذاك الشّيء حول عنقك

FIFA WORLD CUP
Qat_ar2022
15.12.2022

@ketab_n



ترجمة: د. عابد إسماعيل

تشيماماندا نِجوزي أديتشي

ذاك الشّيء حول عنقك

ترجمة: د. عابد إسماعيل



ذاك الشّيء
حول عنقك



اسم المؤلف: تشيماماندا نِجوزي أديتشي

عنوان الكتاب: ذاك الشّيء حول عنقك

ترجمة: د. عابد إسماعيل

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2020

Author: **Chimamanda Ngozi Adichie**

Title: **The Thing Around Your Neck**

Translated by: **Dr. Abed Ismail**

Cover Designed by: **Majed Al–Majedy**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2020**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

dar@almada-group.com

+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

الزنزانة رقم واحد

المرة الأولى التي تعرّض فيها بيتنا للسرقة كانتْ على يد جارنا، أوسيتا، الذي تسلّق نافذة غرفة الجلوس، وسرق جهاز التلفزيون، وفيديو التسجيل، وألبومات أغاني «المطر الأرجواني» و«إثارة»، التي كان قد أحضرها والدي معه من أمريكا. المرّة الثانية التي سُرق فيها منزلنا أتت على يد شقيقي، نامابيا، الذي دبّر عملية اقتحامٍ زائفة، وسرق مجوهرات والدتي. حدَثَ ذلك نهارَ يومِ الأحد. كان أبي وأمّي قد سافرا معاً إلى بلدة مبايس، مسقط رأس العائلة، من أجل زيارة جدّي وجدّتي، وذهبنا، أنا ونامابيا، وحدنا، إلى الكنيسة. شقيقي قادَ سيّارة أمّي، من نوعِ بيجو 504، خضراء اللون، وانطلقنا إلى هناك. جلسنا في الكنيسة معاً، كعادتنا، لكننا لم نتبادل الغمزَ واللمْزَ، أو لم نسخر، ضاحكين، من قبّعة أحدهم البشعة، أو من قفطانِهِ البالي، لأنّ نامابيا غادر بعد عشر دقائق، من دون أن ينبس ببنت شفة. ثم عادَ أدراجه قبل أن يختتم القسُّ عظتَهُ بالقول «انتهى القدّاس. غادروا بسلام.» شعرتُ بشيءٍ من الغيظ. ظننتُ أنه خرج ليدخّن سيجارةً، ويرى فتاةً ما، بما أنّ بحوزته، الآنَ، سيارة وحده، ولو لمرّة واحدة. ولكن، على الأقلّ، كان بمقدوره أن يخبرني إلى أين هو ذاهب. عدنا معاً إلى المنزل صامتَين، وحين بدأ يركنُ السيارة في الممرّ الطّويل للمنزل، انصرفتُ، أنا، لأقطف بعض الأزهار. نامابيا فتح قفل الباب الأمامي. حين دلفتُ إلى الداخل، رأيتُه يقفُ ساكناً وسط الرّدهة.

«تعرّضنا لعميلة سرقة»، قال بالإنكليزية.

مرّتْ دقيقة قبل أن أفهم، وأستوعب منظر الغرفة المبعثرة. شعرتُ، وقتئذٍ، بأنّ ثمة افتعالاً مسرحياً يحيطُ بالطريقة التي تُركتْ فيها الأدراجُ مفتوحةً، كأنما تقصّد الفاعلُ أن يترك انطباعاً قوياً لدى من سيكتشف فعلتَه لاحقاً. وربّما كان منشأ إحساسي ذاك من حقيقة أنّني كنتُ، ببساطة، أعرف شقيقي جيداً. لاحقاً، حين عاد والداي إلى المنزل، وبدأ الجيرانُ يتدفقون زرافات، زرافات، ويقولون «حقّا؟»، ويطقطقون بأصابعهم، ويهزّون أكتافهم، صعوداً، وهبوطاً، جلستُ، أنا، وحيدةً، في غرفتي، في الطابق العلوي، وأدركتُ سرّ الامتعاض الرّاسب في أحشائي: نامابيا هو الذي فعلها، كنتُ أعرفُ ذلك. ووالدي كان يعرفُ ذلك أيضاً. وقد أشارَ إلى أنّ أباجورات النّافذة خُلِعت من الدّاخل، وليس من الخارج (نامابيا، حقّاً، أكثر دهاءً من ذلك، لكنّه كان على عجلة من أمره، وأراد أن يعودَ إلى الكنيسة، قبل أن ينتهي القدّاس)، وأنّ السارق كان يعرف بالضّبط مكان مجوهرات والدتي- في الزّاوية اليسرى من صندوقها المعدنيّ. راح نامابيا يحدق، بعينين دراميتين، جريحتين، وينظر إلى والدي، مشدوهاً، ويقول، «أعرفُ أنني تسبّبتُ لكما بألمِ مرعبٍ في الماضي، لكنني لا يمكن أن أنتهكَ ثقتكما بهذه الطريقة». كان يتكلّمُ الإنكليزية، ويستخدمُ مفردات غير ضرورية من مثل «ألم مرعب»، و«أنتهكُ»، مثلما كان يفعلُ دائماً حين يدافعُ عن نفسه. ثم خرجَ من الباب الخلفي للمنزل، ولم يعدْ إلى البيت في تلك اللّيلة. ولا في اللّيلة التالية. ولا في اللّيلة التي تلتها. وبعد مضي أسبوعين، عادَ إلى البيت منهكاً، باكياً، تفوح منه رائحة البيرة، وقال إنه يشعر بالأسف، وإنه رهَنَ المجوهرات لدى باعة هاوسا، في إنوغو، وأنّ النقود التي حصل عليها ذهبت أدراج الرياح.

«كم أعطوك ثمناً لذهبي؟» سألتهُ أمّي. وحين أخبرها، وضعتْ كلتا يديها على رأسها، وصاحت، «آه! آه! لقد قتلني ربّي!» وكأنّها كانت تشعرُ بأنّ أقلّ شيءٍ كان يمكن أن يفعله هو أن يتحصّل على ثمنٍ جيّد.

تمنّيتُ لو أنني أصفعها. طلب أبي من نامابيا أن يكتب تقريراً حول ما حدث، وكيف باع المصاغ، وعلى ماذا أنفق النقود، ومع من أنفقها. لم أعتقد، ولو لحظة، بأن نامابيا سيقول الحقيقة، ولا أظنّ أنّ والدي أيضاً كان يصدّق بأنه سيفعل، لكن أبي، البروفسور الجامعي، يحبّ التقارير، ويحبّ الأشياء المدوّنة على الورق، والموثّقة جيّداً. أضف إلى ذلك بأنّ نامابيا في السابعة عشرة من العمر، بلحيةٍ مرسومة بعناية، مازال يسكن، حائراً، في الفضاء الانتقالي بين المدرسة الثانوية والجامعة، وقد شبّ، الآن، على الضّرب. وماذا كان بوسع والدي أن يفعل؟ بعد أن كتب نامابيا التقرير، وضعه والدي داخل مصنّف سحّاب، ورماه في قعرِ الدِرج المعدني، في مكتبته، مع أوراقنا المدرسية الأخرى.

«أن يقوم بإيذاء والدته بتلك الطريقة!»، هي الجملة الأخيرة التي غمغم بها والدي لنفسه.

لكنّ نامابيا لم يكن يقصدُ حقاً إلحاق الأذى بها. فعل ذلك لأنّ مصاغ والدتي كان الشيء الوحيد الذي له قيمة في المنزل: إنه حصادُ العمر من القطع الذّهبية الصلدة. كما أنه قام بفعلته تلك لأنّ أبناء أساتذة جامعيين آخرين كانوا يفعلون الشيء نفسه. كان ذلك موسمُ السرقات في الحرم المسالم لجامعتنا، نسوكّا. الأولاد الذين شبّوا وهم يتفرجون على مسلسل (شارع سمسم)، ويقرأون إينيد بلايتون، ويأكلون رقائق الذّرة على الفطور، ويحضرون دروس المدرسة الإعدادية، مرتدين أحذية براقة، أنيقة، باتوا الآن يقصّون شَبك نوافذ جيرانهم، ويزيحون أباجورات الزجاج بقبضاتهم، ويتسلّقون ليسرقوا أجهزة التلفاز والفيديو من داخل البيوت. كنّا نعرف اللصوص. حرمُ جامعة نسوكا مكانٌ ضيّق جدّا- فالبيوتُ تصطفّ جنباً إلى جنبٍ، على طول الشوارع، المزدانة بالأشجار، ولم يكن يفصل بينها سوى سياجات معدنية واطئة- ولم يكن بوسعنا سوى أن نعرف من كان يدبر السرقات. مع ذلك، حين كان الآباء من أساتذة الجامعة يلتقون، ويرى أحدهم الآخر، في نادي الجامعة،

أو في الكنيسة، أو خلال اجتماعاتِ الكلّية، فقد كانوا يدأبون على النّدب قائلين إن الرعاع جاؤوا من المدينة إلى حرم جامعتهم المقدسّة ليسرقوها.

الأولاد السارقون هم من ذاع صيتهم. إنهم يقودون سيارات آبائهم في المساء، متكئين على مقاعد مسحوبة إلى الخلف، وأذرعهم ممدودة إلى الأمام، كي تطال مقود القيادة. أوسيتا، الجار الذي سرق تلفاز بيتنا، قبل أسبوعين فقط من حادثة نامابيا، بدا شخصاً لطيفاً، ووسيماً، ومن النمط المتأمّل، قليلاً، ويمشي وديعاً، سلساً كالقطّ. قمصانُه دائماً مكويةٌ جيداً، ولطالما كنت أرمقهُ، عبر شجيرات السياج، وألاحقه بنظراتي، ثم أغمض عينيّ، وأتخيّلُ أنه يمشي باتجاهي، وقد جاء ليطلب يدي. لكنّه لم يكن يلحظ وجودي أبداً. وحين سرق منزلنا، لم يذهب والداي إلى منزل البروفسور، إيبوبي، كي يطلبا منه أن يطلب من ابنه ضرورة أن يسترجع حاجياتنا. قالا على الملأ إنّ السارق من رعاع المدينة. لكنهما كانا يعرفان أن الفاعل هو أوسيتا. وأوسيتا يكبر نامابيا بعامين، بل إنّ معظم السارقين الأولاد كانوا أكبر سناً من نامابيا بقليل، وربّما كان ذاك هو السبب الذي لم يجعل نامابيا يسرقُ من بيتِ شخصٍ آخر. ربّما لم يكن يشعرُ أنّ عوده قد اشتدّ، وأنه يملك الكفاءة اللازمة للقيام بفعلٍ أكبر من سرقة مجوهرات والدتي.

نامابيا يشبه أمي كثيراً، بملامحه العسلية الفاتحة، وعينيه الواسعتين، وفمه الحاني، المرسوم حدّ الكمال. حين كانت أمي تأخذنا إلى السوق، كان الباعة يصيحون: «أنتِ، يا مدام، لماذا أهدرتِ لونَكِ الفاتحَ كلّه على هذا الصبيّ، وتركتِ البنتَ سوداء جدّاً؟ ما الذي سيفعله الصبيُّ بكلّ هذا الجمال!» وكانت أمي تضحكُ، سعيدةً، بأن تتحمّل تلك المسؤولية الخبيثة، لكن الممتعة، إزاء وسامة نامابيا. حين قام نامابيا، بعمر الحادية عشرة، بكسر زجاج نافذة صفّه، بواسطة حجرٍ في يده، أمي هي التي أعطته النقود كي يستبدله، ولم تخبرْ والدي بشيء. وحين أضاع بعض

كتب المكتبة، في الصف الثاني، أخبرت أمي معلّمته المشرفة بأنّ خادم المنزل هو الذي سرقها. وفي الصف الثالث، حين كان يغادر الصفّ باكراً، كلّ يوم، بحجّة حضور درس الصّلاة، ويتبين لاحقاً أنه لم يحضر درساً واحداً، وبالتالي لم يستطع الحصول على شهادة «القداس الربّاني»، كانت أمي تخبر الأهالي الآخرين بأنّ ابنها أصيب بحمى الملاريا، عشية يوم الامتحان. وحين أخذ مفتاح سيارة أبي، وغرزه في قطعة الصابون، وعثر عليه والدي قبل أن يأخذه نامابيا إلى صانع الأقفال، غمغمت أمي بكلام فحواه أنه كان يلعبُ بالمفتاح، وأنه ليس لديه أي نية خبيثة أخرى. وحين سرق أسئلة الامتحان، من مكتبة منزلنا، وباعها لطلاّب أبي، صاحت أمّي في وجه نامابيا، لكنّها أيضاً التفتتْ إلى أبي وقالت إنّه بلغ السادسة عشرة من العمر، على أيّ حال، وينبغي أن نعطيه المزيد من مصروف الجيب.

لا أعلم ما إذا كان نامابيا قد شعر بالندم حقاً لسرقته مجوهراتها. ولم يكن بمقدوري، دائماً، التكهن بالمشاعر التي يضمرها شقيقي، من خلال قراءة ملامح وجهه السمحة، المبتسمة. فضلاً عن أنّنا لم نتحدّث بالموضوع، بتاتاً. وبالرغم من أنّ شقيقات أمّي أرسلن لها أقراطهنّ الذهبية، وابتاعتْ، هي، قلادةً متدليةً، من السيدة موزي، تلك المرأة المبهرجة التي كانت تشتري ذهبها من إيطاليا، ومنذئذ، بدأت أمّي تقودُ سيارتها، وتزور منزلها، مرّةً واحدةً في الشهر، لتسدّد لها ثمن الحليّ، على دفعات، لكنّنا لم نتحدّث البتة، بعد ذاك اليوم، عن سرقة نامابيا لمصاغها. وكأنّ التظاهر بأنّ نامابيا لم يرتكب الأفعال التي ارتكبها ستمنحه الفرصة ليبدأ بداية مختلفة، جديدة كلّ الجدّة. وكان يمكن لتلك السرقة ألا تُذكر أبداً لو لم يُلق القبضُ على نامابيا، بعد مضي ثلاثة أعوام، خلال سنته الثالثة في الجامعة، ويُزجّ به في السّجن، لدى قسم الشرطة.

كان ذاك موسم العصابات، في حرم جامعتنا الوادعة. إنه الوقت الذي انتشرت فيه اليافطات، في كلّ أرجاء الجامعة، التي تقول بأحرفٍ

عريضة «لا للعصابات». وأشهر تلك العصابات هي «الفأس السوداء» و«المغامرون» و«القراصنة». وقد تكون تلك، أثناء تشكّلها، قد بدأت كجماعات غير شريرة، لكنّها، تحوّلتْ وتبدّلتْ، فيما بعد، وباتت تُعرف، الآنَ، «بالعصابات». أفرادها مراهقون، في سنّ الثامنة عشرة، أتقنوا مشية الخيلاء، التي توفّرها فيديوهات الرّاب الأمريكي، وخضعوا لممارسات وشعائر سرية، غالباً ما أسفرت عن موت واحدٍ أو اثنين منهم في منطقة أوديم هيل. الأسلحة، والفؤوس، وأدوات التعذيب الأخرى، باتت من المشاهد المألوفة. وحروب العصابات باتت مألوفة أيضاً: يكفي أن ينظر صبيٌ إلى فتاةٍ نظرةً شهوانيةً، ويتبين لاحقاً أنها عشيقة رئيس عصابة «الفأس السوداء»، ليُطعن هذا الصبي في خاصرته، في طريقه إلى شراء السجائر من كشكٍ قريب، ويتضح، لاحقاً، أنه أحد أفراد عصابة «المغامرون»، فينبري زملاؤه من العصابة نفسها، ويفتحون النار، في ردهة أحد البارات، على أوّل صبي يصادفونه من جماعة «الفأس السوداء»، لتجد في اليوم التالي أن أحد أفراد جماعة «المغامرون» قد سقط قتيلا في مطعم الكلّية، متدحرجاً فوق أواني الحساء، وفي المساء عينه، يتمّ العثور على صبي آخر، من جماعة «الفأس السوداء»، مسحولاً حتى الموت، في غرفته، في مقرّ سكن الطلاّب، وقد غرقتْ أقراصه المدمجة بالدماء. كلّ هذا ضربٌ من العبث، ومغرقٌ في الشذوذ، حتى أنه سرعان ما بات طبيعياً. الفتيات يمكثن داخل غرفهنّ في الفندق، بعد المحاضرات، والمحاضرون يرتجفون رعباً، وإذ تطير ذبابةٌ في الجو، ويعلو أزيزها، يشعر الجميع بالخوف. وحين يتمّ الاتصال بأفراد الشرطة، تراهم يهرعون إلى حرمِ الجامعة، راكبين سيارة بيجو، 505، زرقاء اللون، متَهالكة، فيما بنادقهم مشرعة خارج نوافذ السيارة، وعيونهم جاحظة باتجاه الطلاب. نامابيا كان يأتي من محاضراته ضاحكاً. إنه يعتقد أنّ الشرطة ينبغي أن تقوم بدورٍ أفضل، فالجميع يعلم أن صبيان العصابة يملكون أسلحةً أكثر تطوراً.

كان أبي وأمي ينظران إلى وجه نامابيا الضاحك بقلق صامت، وكنت أعلم علم اليقين أنّهما كانا يتساءلان في سرهما ما إذا كان ابنهما عضواً في عصابة أم لا. في بعض الأحيان كنت أجزمُ أنه ينتمي إلى إحداها. فأفراد العصابات يتمتعون بسمعة ذائعة الصيت، وسمعةُ نامابيا واسعةُ الانتشار. الصبيان الآخـرون كانوا ينادونه بلقب - «الجبان»- ثم يصافحونه يداً بيد، كلّما مرّ بهم، أما الفتيات، وبخاصة شلّة «الجميلات الكبيرات» المعروفة، فكنّ يعانقنه لأطول مدّة ممكنة، في كلّ مرّة يقلْن له مرحباً. كان يرتادُ جميع الحفلات، تلك الهادئة، في السكن الجامعي، وتلك الأكثر صخباً، في المدينة، وكان، بحقّ، الذكر المحبّب بين الفتيات، والذكّر المحبب بين الذكور، والشابّ الذي يستطيعُ أن يدخّن علبة روثمان كاملة في اليوم، بل واشتُهر بأنه يستطيع أن يحتسي صندوقاً كاملاً من البيرة، في جلسةٍ واحدة. وفي أحيان أخرى، كنتُ أظنّ أنه لا ينتمي إلى أي جماعة بعينها، لأنّ سمعته اخترقت الآفاق، وكان أسلوبه يتطلّب أن يصادق الصبيان من مختلف الانتماءات، وأن لا يكون عدواً لأحدٍ منهم. كما أنني لم أكنْ متأكّدةً أنّ شقيقي يمتلك حقاً المؤهّلات المطلوبة- الشجاعة وفقدان الأمان- للانضمام إلى عصابة ما. المرة الوحيدة التي سألته فيها ما إذا كان فرداً في عصابة، نظر إليّ بدهشةٍ، عبر رموشه الطويلة، الكثيفة، كأنما ليقول لي، ينبغي أن تعرفي أكثر من أن توجّهي سؤلاً كهذا، فقط ليجيب جازماً، «بالطبع، لا». عندئذٍ صدّقته. وأبي صدّقه أيضاً. لكن حقيقة أننا صدّقناه لم تغير في الأمر شيئاً، فقد أُلقي القبض عليه، ووجّهت له تهمة الانتماء إلى عصابة. وقد قال لي هذا- «بالطبع، لا»- أثناء أوّل زيارة لنا إلى قسم الشرطة، حيث زُجّ به في السجن.

وإليكم ما حدث. في أحد أيام الإثنين الرّطبة، انتظر أربعةٌ من أفراد العصابة، أمام بوابة الجامعة، وكمنوا لأستاذة جامعية، تركب سيارة

مرسيدس، حمراء اللون. وضعوا مسدّساً في رأسها، وجرّوها خارج السيارة، ثم ركبوا متوجّهين إلى كلّية الهندسة، وهناك قاموا بإطلاق النّار على ثلاثة صبية كانوا يخرجون من قاعات المحاضرة. كان الوقتُ ظهراً. كنت، أنا، داخل الصفّ المجاور. حين سمعنا أصوات الطلقات الحادّة، كان أستاذنا المحاضرُ أوّل من هرع خارجاً من القاعة. سمعنا صراخاً عالياً، وفجأةً اكتظّت مدارجُ الكلية بالطلاب الهلعين، الذين لم يكونوا يعرفون إلى أي زاوية يتوجّهون. في الخارج، كانت توجد جثث ثلاثة، مكومة فوق العشب. سيارة المرسيدس توارت عن الأنظار. العديد من الطلاب حزموا حقائبهم السريعة، ورفع سائقو الدرّاجات النّارية تسعيرة أجورهم إلى الضعف، لقاء نقل الطلاب إلى الكراج العام للسيارات. وأعلن نائب عميد الجامعة إلغاء جميع المحاضرات المسائية، وشدّد على أن يمكث الجميع داخل بيوتهم، بعد الساعة التاسعة مساء. لم أقتنع بتاتاً بتلك الإجراءات، بما أنّ إطلاق النّارِ حدث في وضح النهار، ونامابيا نفسه لم يقتنع أيضاً، إذ في اليوم الأول لحظر التجوّل، لم يرجع إلى المنزل في التاسعة، بل لم يعد، بتاتاً، في تلك اللّيلة. وحسبتُ أنه مكثَ لدى أحد أصدقائه، وأصلاً، لم تكن عادته العودة كلّ يوم، في أي حال. في الصباح التالي، حضر أحد أفراد الأمن، وأخبر والديّ بأنه تم القبض على نامابيا، مع بعض أفراد العصابة، داخل بارٍ، وتم نقله، داخل سيارة الشرطة، إلى السجن. وصاحت أمي بأعلى صوتها: «ما هذا الكلام! لا تقلْ ذلك!» أبي شكر رجل الأمن، بكلّ هدوء. ثم اصطحبنا معه في سيارتنا إلى قسم الشرطة، في البلدة. هناك، قال لنا حارسُ المفرزة، واضعاً غطاء قلم وسخ بين أسنانه: «تقصدون صبيان العصابة الذين ألقي القبض عليهم البارحة؟ لقد تم نقلهم جميعاً إلى إنوغو. إنها حادثة خطيرة جداً! ينبغي أن نضع حدّاً لأفعال هذه العصابة، مرّة واحدةً وإلى الأبد!»

عدنا أدراجنا إلى السيارة، وانتابنا جميعاً خوفٌ جديد. نسوكّا- جامعتنا البطيئة، المنعزلة، والبلدة البطيئة، الأكثر انعزالاً- يمكن تدبيرُ

أمرها. فوالدي يعرفُ مدير الناحية. لكنّ إنوغو مجهولة تماماً، وهي عاصمة الولاية، وتضمّ الفرقة المدرّعة للجيش النيجيري، والمقرّ الرئيسي لجهاز الشرطة، وضباط المرور في التقاطعات المزدحمة. إنها المكان الذي تستطيع فيه الشرطة أن تفعل ما اشتُهرت على فعله حين تكون تحت الضغط للإتيان بنتائج ملموسة: قتل الناس.

يقع مقرّ شرطة إنوغو داخل مجمّع منبسطٍ، محاطٍ بالجدران، يعجّ بالأبنية، وقرب البوابة التي تقول اليافطةُ فوقها «مكتب مفوّض الشرطة»، اصطفّت سيارات مهشّمة، يعلوها الغبار. قاد والدي سيارته باتجاه الجناح الصّغير، المستطيل، الواقع في نهاية المجمّع. قدمت أمّي الرشوة لعنصرين من الشرطة، يجلسان خلف الطاولة، وأعطتهما مالاً، وأرزّاً، ولحماً، كانت قد رزمتها جميعاً في حقيبة سوداء، مضادّة للماء، وسمحوا لشقيقي، نامابيا، بالخروج من زنزانته، والجلوس معنا، على مقعدٍ، تحت ظلّ شجرةٍ كالمظلّة. لم يسأله أحدٌ لماذا قرر المكوث خارج البيت، في تلك الليلة، حين كان يعلم أنّ حظراً للتجوّل كان ساريَ المفعول. لم يقل أحد إن رجال الشرطة بلغ بهم الطيش حدّاً بأن يدخلوا إلى البار، ويعتقلوا جميع الأولاد الذين كانوا يحتسون النبيذ هناك، بما في ذلك نادل البار. عوضاً عن هذا، جلسنا نصغي لحديث نامابيا. كان يجلسُ، خلف المقعد، مباعداً بين ساقيه، وأمامه دورقٌ من اللّحم والأرزّ، وفي عينيه بريقٌ من الترقّب: فنّانٌ على وشك أداء دوره.

«لو أننا ندير نيجيريا كما ندير هذه الزنزانة،» قال، «لن تكون لدينا أي مشكلات في هذه البلاد. الأمور في غاية التنظيم. في زنزانتنا شاويشٌ اسمه الجنرال أباتشا، ولديه نائب يعمل مساعداً له. ما إن تدخل إلى هناك، عليك أن تعطيهما بعض المال. إذا لم تفعل، فأنت تجلبُ المشاكل إلى نفسك».

«وهل كان بحوزتك أي نقود؟» سألت أمّي.

ابتسم نامابيا، وبدا وجهه أكثر وسامةً، مع تلك البثرة التي تسبّبت بها لسعةُ حشرة على جبينه، وقال بلغة إغبو إنه حشر نقوده داخل شرجِهِ، بعد وقت قصيرٍ من إلقاء القبض عليه، داخل البار. كان يعلم بأن الشرطة ستجرّده منها إذا لم يقم بإخفائها، وكان يعلم بأنه سوف يحتاجها لشراء الطمأنينة في زنزانته. أخذ عضّةً من الفخذ المقلي للدجاجة، وبدّل لغته إلى الإنكليزية: «أحبَّ الجنرال أباتشا كثيراً طريقتي في إخفاء النقود. وقد حرصتُ على أن أجعله يحبّني، إذ إنني أمتدحُه، طوال الوقت. وحين طلب منّا الرجال، نحن القادمين الجدد، أن نمسك آذاننا، ونقفز كالضفادع، على إيقاع غنائهم، تركني أغادرُ، بعد عشر دقائق. وظلّ الآخرون يقومون بذلك، لأكثر من ثلاثين دقيقة».

ضمّتْ أمّي نفسَها كأنّها شعرت بالبرد. أبي لم يقلْ شيئاً، بل ظلّ يراقبُ نامابيا بكلّ عناية. أما أنا فرحتُ أتخيل شقيقي المحبوب يلفّ ورقة نقدية، من فئة مئة نيرا (ليرة)، لتبدو في شكل سيجارة رقيقة جدّاً، ثم يحشرُ يده في مؤخّرة بنطلونِهِ، ويُدخلها، متألماً، في جسده.

لاحقاً، حين عدنا أدراجنا إلى نسوكّا، قال والدي، «هذا ما كان ينبغي أن أفعله حين قام باقتحام المنزل. أن أسعى لحبْسه في زنزانة».

أمي راحت تحدّق، صامتةً، عبر النّافذة.

«لماذا؟» سألتُ.

«لأنّ هذا قد سبّب له صدمة ما، ولو لمرّة واحدة. ألم تري؟» سأل أبي بابتسامة خفيفة. لكنني لم أستطع أن أرى ذلك. على الأقل، ليس في ذلك اليوم. لقد بدا لي نامابيا على أحسن ما يرام، وهو يحشر النقودَ في شرجِهِ، وسوى ذلك.

كانت صدمة نامابيا الأولى هي رؤيته لأحد أفراد عصابة «المغامرون» يجهش بالبكاء. كان الولدُ طويل القامة، قوي العود، وانتشرت الشائعات

أنه هو من قام بتنفيذ إحدى جرائم القتل تلك، وكان ينتظر دوره لأن يصبح رئيس عصابة، في الفصل القادم، لكنّه يتكوّرُ، الآن، داخل زنزانة، ويجهش بالبكاء، بعد أن تلقى رفسةً في مؤخّرة الرأس من الشّاويش. نامابيا أخبرني بذلك، خلال زيارتنا في اليوم التالي، بصوتٍ يشوبهُ القرفُ والخيبةُ معاً، وبدا الأمرُ أنه أُجبر، فجأةً، على أن يكتشف بأنّ العملاق الخارق لم يكن سوى رسمٍ أخضر على ورقة. صدمتهُ الثانية، بعد بضعة أيام، كانت الزنزانة رقم واحد، تلك التي تقع مباشرةً خلف زنزانته. اثنان من رجال الشرطة حملا رجلاً ميتاً منتفخاً، من الزنزانة رقم واحد، وتوقّفا في زنزانة نامابيا، ليتأكّدا أن الجميع رأى الجثة.

حتى زعيم زنزانته بدا خائفاً من الزنزانة رقم واحد. حين سُمح لنامابيا ورفقاء زنزانته، ممن يستطيعون شراء ماء للاستحمام، موضوعة في دلاء بلاستيكية، كانت في الأصل علباً للدهان، حين سُمح لهم بالخروج للاستحمام، في الباحة المكشوفة، كان أفراد الشرطة يراقبونهم، ولطالما صاحوا بأعلى أصواتهم، «كفى! توقّفوا، وإلا أرسلناكم إلى الزنزانة رقم واحد، الآن!». نامابيا رأى كوابيس كثيرة عن الزنزانة رقم واحد. لم يكن يتخيّل مكاناً أسوأ من زنزانته، المكتظة جدّاً بالنزلاء، حتى أنه كان يضطرّ للوقوف، معصوراً، قبالة الحائط المتشقّق. كانت تعيش في الشقوق حشرات صغيرة، لدغاتُها مؤلمةٌ جدّاً، وحين كان يجفلُ من لدغة ما، كان زملاءُ زنزانته ينعتونه بألقاب عدّة من مثل «حليب»، و«صبي الموز»، و«صبي الجامعة»، و«الولد النّاعم المتأفف».

إنها حشرات دقيقة، وصغيرة، كالبقّ، مع ذلك، لسعاتها مؤلمة جداً. ولسعاتُها تصبح أكثر سوءاً خلال اللّيل، حين يضطرّ الجميع للنوم على جنبٍ واحد، الرأس قبالة القدم، ما عدا الشاويش، الذي كان يريحُ كاملَ ظهرِه على الأرض، باسترخاءٍ كامل. كان الشاويش هو الذي يستلمُ صحون الطعام، وحساء الماء، التي يتمّ إدخالها، من تحت الباب، إلى الزنزانة، كلّ يوم. وكانت حصّةُ الشخص الواحد لقمتين لا غير. أخبرنا

نامابيا بذلك، خلال الأسبوع الأول. وبينما كان يتكلّم، رحتُ أتعجّب ما إذا كان البقّ، في الحائط، قد لسعَ وجهَه، أو أنّ البثور المنتشرة فوق جبهته كلّها تسبّبت بها عدوى ما. بعض تلك البثور بدتْ متورّمة، ولها لون المرهم. ثم قام بحكّها حين قال، «تغوّطتُ، واقفاً، هذا اليوم، في حقيبة مضادّة للماء. كان المرحاض مسدوداً إلى آخره. ينظفّونه مرّة واحدة كلّ يوم سبت».

لصوته نبرةٌ مسرحيةٌ واضحة، حتى أنني تمنّيت لو أنني أطلب منه بأن يخرس، لأنه بدا وكأنه يستمتعُ بدوره الجديد كمعَذّبٍ يتلقّى الإهانات، ولأنه لم يكن يفهم كم هو محظوظ بأن تسمح له الشرطةُ بالخروج، وتناول طعامنا، وكم كان أحمق حين قرّر أن يمكث في البار، ليحتسي النبيذَ، في تلك الليلة، وكم هي غامضة، وغير مؤكدة، فرص إطلاق سراحه.

خلال الأسبوع الأول، كنّا نزوره كل يوم. كنا نستقلُ سيارة أبي، الفولفو، لأنّ سيارة والدتي، بيجو 505، اعتُبرت غير آمنة، للقيام برحلات، خارج نسوكّا. حين كنا نمرّ بحواجز شرطة التفتيش، على الطريق، لاحظتُ أن أبويّ كانا يتصرفان على نحوٍ مختلف- بشكلٍ يكادُ لا يُلحظُ، لكنهما مختلفان. لم يعدْ أبي ينغمسُ في منولوج طويل، ما إن يُسمح لنا بالمرور، بعد إيماءة يدٍ، حول كيف أنّ جهاز الشرطة فاسد. ولم يكن يذكر اليوم الذي أخّرونا فيه لمدّة ساعة كاملة، لأنه رفض أن يقدم لهم الرشوة، أو الطريقة التي أوقفوا بها باصاً كان على متنه ابنة عمتي الجميلة، أوجيتشي، التي اختاروها من بين جميع الركاب، ونعتوها بالعاهرة، لأنها كانت تحمل جهازين خلويين، وطلبوا منها مبلغاً كبيراً من المال، حتى أنها ركعت أمامهم، على الأرض، تحت المطر المنهمر، تتوسّل بأن يدعوها وشأنها، وخاصّة أنهم سمحوا للباص، الذي كانت تستقلّه بالمغادرة. أما أمي فلم تكن تنبسْ ببنت شفة، وتلك كانت بمنزلة أعراض تخفي خلفها محنة أكبر. على النقيض من ذلك. ظلّ أبواي صامتين. وبدا الأمر بأن

عدم انتقادهما للشرطة، كالمعتاد، سيجعل حرية نامابيا وشيكة المنال. «حسّاسة»، هي الكلمة التي كان قد استخدمها مدير الناحية في نسوكّا. مسألة إطلاق سراح نامابيا، في وقت قريب، يمكن وصفها بالحسّاسة، وبخاصة أنّ مفوّض الشّرطة في إنوغو كان يعطي لوسائل الإعلام مقابلات بهيجة، متأنّقة، حول أفراد العصابة، الذين تمّ إلقاء القبض عليهم مؤخّراً. مشكلة العصابة خطيرة جداً. رجالٌ مهمون في العاصمة، أبوجا، يتابعون الأحداث. الجميع أراد أن يُظهرَ أنه يقوم بدورٍ ما.

في الأسبوع الثاني، قلتُ لأمي وأبي إننا لن نقوم بزيارة نامابيا. لم نكن ندري كم من الوقت سيستمرّ حالنا على هذا المنوال، وبخاصة أن البنزين مرتفع الثمن، من أجل قطع مسافة طويلة، تستغرق ثلاث ساعات يومياً، ولن يضيرَ نامابيا شيء إذا تدبّر أمره بمفرده، ولو ليوم واحد.

نظر أبي إليّ مندهشاً، وقال، «ماذا تقصدين؟» وقاستني أمي بنظراتها، من رأسي حتى قدميّ، واتجهت إلى الباب قائلة لا أحد يتوسّل إليكِ بالمجيء، وبمقدوري الجلوس هناك، وعدم فعلِ أي شيء، بينما شقيقي البريء يتعذّب. حين مشت أمي باتجاه السيارة، ركضتُ خلفها، وحين صرتُ في الخارج، لم أعرف ما ينبغي أن أفعله، سوى أن أتناول حجراً بالقرب من شجرة العلّيق، وأرميه باتجاه واجهة سيارة الفولفو، ما أدّى إلى تصدّع الزجاج على الفور. سمعتُ صوت التهشّم، ورأيتُ الخطوط الناعمة تتوزع كالأشعّة، على الزجاج، قبل أن أعودَ أدراجي، صاعدةً الدرجَ، وأقفل غرفتي خلفي، كي أحمي نفسي من غضب أمّي. سمعتُها تصيحُ وتصرخُ. وسمعتُ صوت أبي. ثم، أخيراً سادَ صمتٌ طويلٌ، ولم أسمع السيارة تتحرك من مكانها. لم يذهب أحدٌ لرؤية نامابيا في ذلك اليوم. وأدهشني هذا الانتصار الصغير الذي حققته.

قمنا بزيارته في اليوم التالي. لم نقل شيئاً بخصوص الواجهة الزجاجية، رغم أن التصدّعات كانت منتشرة، كمثل تموّجات في جدول

متجمّد. الشرطي خلف المقعد، ذاك السلس، ببشرته الدّاكنة، سأل لماذا لم نحضر في اليوم الفائت، فقد اشتاق إلى الأرزّ المطبوخ على يدي والدتي. توقعتُ من نامابيا أن يوجه السؤال ذاته، أيضاً، بل ويعبّر حتّى عن انزعاجه، لكنّه بدا رزيناً، بغرابة شديدة، وهو الانطباع الذي لم أعهده من قبل. ظلّ يشيحُ بنظره بعيداً عنّا، باتجاه أكداس السيارات، نصف المحترقة، في نهاية المجمّع، التي تمثل شواهدَ لحوادثَ جمّة.

«ما الأمر؟» سألتْ أمي، وعلى الفور، تقريباً، بدأ نامابيا بالحديث، كأنما كان ينتظر من يسأله ليتكلّم. لهجته المحلية هادئة النبرة، وصوته معتدلٌ، لا صعودَ فيه ولا هبوط. كانت زنزانته قد استقبلت، قبل يومٍ فقط، رجلاً عجوزاً، ربمّا بلغ السبعين من عمره، أبيض الشعر، بشرته مخدّدة بالتجاعيد، وكلّ ما فيه يوحي بصفاءٍ، قديم الطراز، لمتقاعد مدني، نزيهٍ. ولدُهُ مطلوبٌ بتهمة السطو المسلّح، وعندما لم يستطعْ رجال الشرطة العثور على ابنه، قرروا أن يحتجزوه، بالنيابة.

«لم يفعل الرّجلُ شيئاً،» قال نامابيا.

«وأنتَ لم تفعل شيئاً، أيضاً،» قالت أمي.

هزّ نامابيا رأسه، كأنّ أمّي لم تفهم ما قاله. في الأيام التي تلت ذلك، صار شقيقي أكثر خفوتاً. لم يعد يتكلّم كثيراً، أما عن الرجل العجوز، فقال إنه لا يملك النقود، ولم يستطع شراء ماء للاستحمام، وأن الرجال الآخرين يسخرون منه، أو يتهمونه بإخفاء ابنه، وأنّ الشاويش يتجاهله، وأنه بدا مذعوراً، صغيرَ الحجم، على نحو مرعب.

«هل يعلم أين ابنه؟» سألتْ أمي.

«لم ير ابنه منذ أربعة أشهر،» قال نامابيا.

أبي قال شيئاً من قبيلِ أنّه ليس ضرورياً ما إذا كان الرجل يعلم أم لا يعلم أين اختفى ولده.

«بالطبع،» قالت أمي. «هذا خطأ، ولكن هذا ما تفعله الشرطة، طوال

الوقت. إذا لم يجدوا الشخص الذي يبحثون عنه، فإنهم يحبسون والده أو والدته أو أحد أقربائه».

لوّح أبي بيده، طارداً شيئاً ما عن ركبته- إشارة إلى نفاد الصبر. لم يكن يفهم لماذا تسترسل أمي بالحديث عمّا هو بديهي.

«الرجل مريض»، قال نامابيا. «يداه ترتجفان، وترتعشان، حتى وهو نائم».

أبي وأمي غرقا في صمت طويل. أغلق نامابيا دورق الطعام، الذي يحتوي الأرزّ، وأعادَه إلى أمّي. «أريدُ أن أعطيه بعضاً من هذا، ولكن إذا أدخلْته إلى الزنزانة، سوف يستولي عليه الجنرال أباتشا».

ذهب أبي إلى الشرطي خلف المقعد، وسأله ما إذا كان يُسمح لنا برؤية الرجل العجوز الموجود في زنزانة نامابيا، ولو لبضع دقائق. كان ذاك هو الشرطيّ، العبوسُ، صاحب البشرة الفاتحة، الذي لم يقلْ أبداً شكراً، حين كانت أمي تناوله رشوة الأرزّ والنقود. زمجر في وجه أبي وقال إنه يعرّض وظيفته للخطر حين يسمح لشقيقي نامابيا بالخروج، وها نحن نطلبُ منه أن يسمح لشخصٍ آخر، أيضاً، بالخروج؟ هل نظنّ أن هذا هو يوم زيارة عاديّ لمدرسة داخلية؟ هل نسينا أنّ هذا مكان اعتقال، شديد الحراسة، للعناصر المجرمة في المجتمع؟ عاد أبي أدراجه، وجلس، متنهداً، ونامابيا راح يحكّ بثور وجهه بصمتٍ.

في اليوم التالي، بالكاد لمسَ نامابيا وجبةَ الأرزّ التي أحضرناها له. قال إنّ الشرطة رشّت سائلاً معقماً على الأرض والحيطان، في الزنزانة، تحت ذريعة النظافة، كما اعتادوا أن يفعلوا، وأن ذاك الرجل العجوز، الذي لم يستطع أن يشتري الماء، ولم يستحمّ منذ أسبوع، أسرع للدخول إلى الزنزانة، وخلع قميصه، وراح يحكّ ظهره الواهن بأرضية المكان الرطبة، المعقمة. وانفجر رجال الشرطة بالضحك حين رأوه يفعل ذلك، وطلبوا منه أن يخلع جميع ملابسه، ويتجول في الردهة، خارج الزنزانة، وحين راح يفعل ذلك، علتْ ضحكاتهم أكثر فأكثر، وسألوه ما

إذا كان ابنه، اللصّ، يعرف بأن قضيبَ والده منكمشٌ جدّاً. ظل نامابيا يحدّق بالأرز الأرجواني والأصفر، أمامه، وهو يسرد القصة، وحين نظر إلى الأعلى، رأيتُ عيني شقيقي تفيضان بالدموع- شقيقي الأرضيّ- وشعرتُ بحنانٍ تجاهه لن أستطيع تفسيره لو طلب مني أحد ذلك.

بعد مضيّ يومين آخرين، حدث هجومٌ آخر على حرم الجامعة: صبيٌّ عاجَلَ آخر بضربةِ فأسٍ أمام مبنى قسم الموسيقى.

«هذا جيّد،» قالت أمي بينما كانت تجهّزُ نفسها للذهاب مع أبي إلى مدير الأمن من جديد. «لن يستطيعوا القول، الآن، إنهم ألقوا القبض على جميع صبيان العصابة.» لم نذهب إلى إنوغو في ذلك اليوم، لأنّ أبويّ أمضيا وقتاً طويلاً لدى مدير الأمن، لكنهما عادا بأخبار سارة. سوف يُطلق سراح نامابيا ونادل البار على الفور. أحد أفراد العصابة كان قد جنّدَ نفسه، مخبراً، وأصرّ بأن نامابيا ليس عضواً. غادرنا، أبكر من المعتاد، في الصباح التالي، ولم نجلب معنا أرزاً مطبوخاً، وكانت الشّمسُ حارّةً جداً، حتى أنّ جميع نوافذ السيارة تُركتْ مفتوحةً. كانت أمي تقودُ السيارة بشيء من التهوّر. لطالما كانت تقول لأبي، «انتبه! احذرْ!» وكأنه لا يرى السيارات التي تنعطف بخطورة، في المضمار الآخر، لكنها، هذه المرة، قامت بأكثر من استدارة خطرة، حتى أننا قبل أن نصل إلى «الميل التاسع»، حيث تحلّقَ بائعو النسور، حول السيارة، يحملون أواني مملوءةً بالجوز والبيضِ المسلوق، وفستق الكاجو، أوقف أبي السيارة، وقال ممتعضاً، «أريدُ أن أعرف من يقودُ هذه السيارة، أيتُها الطّريقُ الصحيحة؟».

داخل مجمع المحطّة المكتظّ بالناس، رأينا شرطيين ينهالان بالضرب على شخص ملقىً على الأرض، تحت شجرة المظلّة. في البَداية، ظننتُ، وقلبي تتسارعُ دقاته، أنه قد يكون نامابيا، لكنه لم يكن هو. كنتُ أعرفُ الولدَ الملقى على الأرض، يتلوى ويصرخُ، مع كلّ ضربةٍ من هراوة الشرطي. كان اسمه آبوي، وله وجهٌ، بشعُ، عبوسٌ، كالذّئب، وقد اعتاد أن يقود سيارة ليكسوس، ويتجول في أرجاء الكلية،

وقيل إنه أحد أفراد عصابة «المغامرون». حاولتُ أن لا أنظر إليه ونحن ندخلُ إلى المحطة. الشرطي المناوب، صاحبُ أكثر من وشمٍ قبائلي على وجهِهِ، الذي كان دائماً يقول «بارك الله بكم،» حين يستلمُ رشوته، أشاح بوجهه حين رآنا. شعرتُ أن نحلاً يلسعُ بدأ يتوزّع فوق جسدي، في تلك اللحظة. أدركتُ، حينئذٍ، أن أمراً فادحاً، قد حدث. أبي وامي ناولاه الرسالة المبعوثة من مدير الشرطة. لم ينظر إليها الشرطيّ، بتاتاً. كان قد علم بأمر إطلاق سراحهما، قال لأبي، حتى أن نادل البار قد أُطلق سراحه بالفعل، لكن ثمة بعض التعقيدات بخصوص الولد. بدأتْ أمي تصرخ: «الولد؟ ماذا تعني؟ أين ابني؟»

نهض الشرطي وقال: «سوف أنادي على مرؤوسي، لكي يشرح لك».

اندفعت أمي باتجاهه وشدّته من قميصه: «أين هو ابني؟ أين ابني؟» دفعها أبي جانباً، وراح الشرطيّ ينفض قميصه، كأنّها تركتْ بعض ترابٍ هناك، قبل أن يلتفت، ويمشي مبتعداً.

«أين هو ابننا،» سأل أبي بصوتٍ، فولاذيٍ، هادئٍ، أجبر الشرطيّ على التوقّف.

«لقد اقتادوه، بعيداً، يا سيّد،» قال.

«اقتادوه بعيداً!» انهارت أمّي. ثم راحت تصيح: «ما الذي تقوله! هل قتلتم ابني؟ هل قتلتم ابني؟».

«مرؤوسي قال يجب أن أتّصل به حين تأتون،» قال الشرطيّ، وهذه المرة، التفتَ، ثم غادر مسرعاً، عبر الباب.

اجتاح الخوف مفاصلي، فوراً، بعد أن غادر، ووددتُ لو أركض خلفه، وأسحبه من قميصه، مثلما فعلت أمي، حتى يتفوّه بكلمة عن مصير نامابيا. الشرطي الأعلى رتبةً عاد، ورحت أبحثُ في وجهه الخالي عن أيّ لمحةٍ لتعبيرٍ ما.

«طاب نهارك، يا سيّد،» قال مخاطباً أبي.

«أين هو ابني؟» سأل أبي. كانت أمي تتنفّسُ بصعوبة. لاحقاً، سوف أدركُ أنه في تلك اللحظة، كان كلّ منّا قد انتابه الشكّ، في قرارة نفسه، بأن نامابيا قد قُتل، ربمّا بإطلاق النار عليه من قبل طغمة سعيدة من رجال الشرطة، وأنّ وظيفة هذا الرجل هي أن يبحث عن أفضل كذبةٍ يقولها لنا عن طريقة موته.

«لا مشكلة، يا سيّد. قمنا بنقله إلى مكان آخر فحسب. سوف آخذكَ إلى هناك على الفور.» بدا الشرطيّ مضطرباً، شيئاً ما. وظلّ وجهه شاغراً، ولم تلتقِ عيناهُ بعيني أبي.

«نقلتموه؟»

«وصلنا أمرُ إطلاق سراحه هذا الصباح، لكنه كان قد نُقِل للتوّ. ليس لدينا بنزين، وبالتالي انتظرتُ قدومك، لنذهب معاً إلى المكان حيث هو».

«أين هو؟».

«في موقعٍ آخر. سوف آخذك إلى هناك».

«ولماذا تمّ نقله؟».

«لم أكن هنا، يا سيّد. قيل إنه أساء التصرّف، البارحة، فأخذوه إلى الزنزانة رقم واحد، ثم جاء أمر بنقل جميع من في الزنزانة رقم واحد إلى موقع آخر».

«أساء التصرف؟ ماذا تعني؟».

«لم أكن هناك، يا سيّد».

بعدئذٍ، تكلّمت أمي بصوتٍ متهدّجٍ، «خذني إلى ابني. خذني إلى ابني، الآن!».

جلستُ في المقعد الخلفي، مع الشرطي. كانت تفوح منه رائحة الكافور العتيقة، تلك التي بدت عالقةً، إلى الأبد، في خزانة ملابس أمّي. لم نتبادل الحديث قطّ، باستثناء إعطاء أبي التوجيهات إلى أين يجب أن يتوجّه، حتى وصلنا، بعد حوالي خمس عشرة دقيقة. كان أبي

يقود السيارة مسرعاً، على غير عادته، كسرعةِ دقّات قلبي. بدا المجمّع الصغيرُ مهملاً، مع بقعٍ متفرّقة من العشب غير المقصوص، مع زجاجات البلاستيك والورق، القَديمة، المرمية في كلّ مكان. بالكاد انتظر الشرطيّ كي يوقف أبي السيارة، إذ راح يفتح الباب، ويخرج مسرعاً، وهنا، أيضاً، ارتعدت مفاصلي خوفاً. إننا هنا، في هذا الجزء من البلدة، في طرقات غير معبدة، بل لم تكن هناك يافطة تقول «قسم الشرطة»، وساد في الجوّ هدوءٌ مريبٌ، وشعورٌ غريبٌ بالهجْر. لكنّ الشرطيّ عادَ برفقة نامابيا. ها هو ذا، شقيقي الوسيم، ماشياً باتجاهنا، لم يطرأ عليه شيءٌ، كما بدا، حتى اقترب من أمي وعانقته، ورأيته يجفلُ، ويتراجع مبتعداً. كانت ذراعه اليسرى مغطاة بضمادة ناعمة، وثمة نقاط دمٍ يابسة حول أنفه.

«آه، يا ولدي، لماذا ضربوكَ كلّ هذا الضَرب؟» سألته أمي. والتفتت إلى الشرطيّ. «لماذا، أيها الناس، فعلتم هذا بابني؟»،

هزّ الرجل كتفيه، بعد إهانة جديدة لسلوكه؛ وبدا لنا أنه لم يكن متأكّداً ما إذا كان نامابيا بخير أم لا، لكنه الآن، يستطيع أن يترك لنفسه العنان، ويقول «لا تستطيعون أن تربوا أولادكم تربية جيدة، أنتم يا معشر الناس الذين تظنون أنفسكم مهمّين، لأنكم تعملون في الجامعة. حين يسيء أولادكم التصرف، تظنون أنه يجب ألا ينالوا عقابهم. أنتِ محظوظة يا مدام، محظوظة جداً لأنهم أطلقوا سراحه».

قال أبي، «هيا بنا».

فتح باب السيارة، وركب نامابيا، وعدنا أدراجنا إلى البيت. لم يتوقف أبي على أي من نقاط التفتيش التي أقامتها الشرطة، على طول الطريق، ولمرة واحدة فقط أشار أحد أفراد الشرطة له ببندقيته، مهدّداً، حين مررنا به مسرعين جداً. الشيء الوحيد الذي تفوّهت به أمي، طوال تلك الرحلة الصامتة هو ما إذا كان نامابيا يريدنا أن نتوقف عند «الميل التاسع»، لنشتري له بعض طعام الأوكبا. نامابيا قال لا. ولم ينطق ببنت شفة، حتى وصلنا إلى مشارف نسوكّا، وبدأ أخيراً يتكلّم.

«البارحة سأل أفراد الشرطة الرّجلَ العجوز ما إذا كان يريد دلواً من الماء بالمجان. قال نعم. طلبوا منه أن يخلع ملابسه، ويتجول عارياً في الممرّ. سجناء زنزانتي انفجروا بالضحك. لكنّ بعضهم قال من غير اللائق أن يعاملوا رجلاً مسنّاً بتلك الطريقة». توقف نامابيا، مصوباً عينيه إلى البعيد. «صرختُ في وجه الشرطي. قلتُ له الرجلُ العجوزُ مريضٌ وبريء، وإذا أصروا على احتجازه هنا، لن يجدوا ابنه أبداً. قال عليّ أن أخرسَ فوراً، أو أنهم سيأخذونني إلى الزنزانة رقم واحد. لم آبهْ للتهديد. ولم أقفلْ فمي. سحبوني خارجاً، وانهالوا عليّ بالضرب، وأخذوني إلى الزنزانة رقم واحد».

توقف نامابيا عند هذه النقطة، ولم نطلب منه المزيد. عوضاً عن ذلك، تخيلته يرفع صوته عالياً، ناعتاً الشرطيّ بالأحمق، والغبي، والجبان المهترئ، والسّاديّ، وابن الزانية، وتخيّلتُ صدمة أفراد الشرطة، وصدمة الشاويش، مشدوهاً، فاتحاً فمه، فيما باقي السجناء، ينظرون، مصعوقين، إزاء جرأة هذا الصبي الوسيم، من الجامعة. وتخيلتُ الرجلَ العجوز نفسه، ينظرُ، بكبرياء، رافضاً أن يخلع ملابسه. لم يقلْ نامابيا ماذا حدث معه في الزنزانة رقم واحد، أو ماذا حدث معه في الموقع الجديد، الذي بدا لي وكأنه المكان الذي اعتادوا أن يحتجزوا فيه النّاس، الذين يختفون، لاحقاً، إلى الأبد. وكان من السهل جدّاً على شقيقي الفاتن أن يؤلّف مسرحيةً شيّقةً عن قصّته، لكنه ارتأى ألا يفعل.

تقليد

كانت «نكيم» تحدّقُ ملياً، بالعينين المائلتين، المنتفختين، لقناع «بينين»، الموضوع فوق الطاولة، في غرفة الجلوس، حين تناهتْ إلى أسماعِها الأخبار عن عشيقةِ زوجِها.

«إنّها شابّة حقاً. في الحادية والعشرين أو ما شابه،» صديقتها «إيجيماماكا» تقول على الهاتف. «شعرها قصيرٌ وجعدٌ- تعرفين، تلك الخواتم الصغيرة، المجدولة، من ذؤابات الشعر. ليس بسبب وضع الكْرِيم، بل بفضل تكثيف ولصق الخُصل، كما أظنّ. أسمعُ أنّ الشابات يحببن أكثر لصقَ الشعر المستعار، هذه الأيام. لن أقول لكِ كلمة لا بأس، فأنا أعرف الرجال وأساليبهم، لكنني سمعتُ أنها انتقلت لتسكن في بيتكِ. هذا ما يحدث حين تتزوجين من رجلٍ ثري». إيجيماماكا تصمتُ لبرهة، ونكيم كانت تسمع بوضوح كيف تَبلعُ أنفاسَها- إنها تنهّدات مقصودة، مضخّمة. «أقصد، زوجك، أوبيورا، شخصٌ طيب، بالطّبع،» تتابعُ إيجيماماكا. «ولكن أن يأتي بعشيقتِهِ إلى بيتكِ؟ هذه وقاحة، وعدم احترام. إنها تركبُ سياراته في كلّ أنحاء لاغوس. رأيتها بأم عيني كيف تقود سيارة مازدا على طريق أولوو».

«شكراً لأنكِ أخبرْتني،» تقول نكيم. يمكنها أن تتخيّل الطريقة التي يميل فيها فمُ إيجيماماكا إلى جانبٍ واحدٍ، ويصبحُ كالبرتقالة المعصورة، لباً وقشرةً. فمٌ منهكٌ أعياهُ الكلام.

«كان عليّ أن أخبركِ. وإلاّ ما فائدةُ الأصدقاء؟ وهل كان بإمكاني أن

أفعل شيئاً آخر!» تقول إيجيماماكا، وتتساءل نكيم في سرها، هل هي مؤشر فرح تلك النبرة العالية في صوت إيجيماماكا، وبخاصة التشديد على كلمة «أفعلُ».

وخلال الدقائق الخمس عشرة التالية، انصرفت إيجيماماكا لتتحدّثَ عن زيارتها إلى نيجيريا، وكيف أن الأسعار ارتفعت، مقارنةً بآخر زيارة لها- حتى دقيق «المنيهوت» صار باهظ الثمن الآن. وكيف أنّ المزيد والمزيد من الأطفال يتجمهرون، للتسوّل، عند شارات المرور، وكيف أنّ التصحّر نهش أجزاءً كبيرة من الطريق الرئيسي، المؤدي إلى مسقط رأسها في ولاية الدلتا. نكيم تتنهّدُ وتزفرُ في الوقت المناسب. إنّها لا تذكّرُ إيجيماماكا بأنها هي، أيضاً، عادتْ إلى نيجيريا، قبل بضعة أشهرٍ، فقط، خلال عيد الميلاد. ولا تقول لإيجيماماكا إن أصابعها أصيبت بالخدَر من سماعة الهاتف، وإنها كانت تتمنى أن لا تتصل بها إيجيماماكا. أخيراً، وقبل أن تقفل الخطّ، تعدُ بأن تصطحبَ الأولادَ، وتزورَ إيجيماماكا، في نيوجرسي، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، في يوم من الأيام- وعدٌ تعرفُ أنّها لن تستطيع الوفاء به.

تمشي إلى المطبخ، وتسكبُ لنفسها كأساً من الماء، ثم تتركها على الطاولة، من دون أن تمسَّها. حين عادتْ إلى غرفة الجلوس، جلست تحدّق، من جديد، بقناع «بينين»، وتتفرّس بألوانه النحاسية، وملامحه التجريدية الضخمة. جيرانها يسمّونه «النبيل»، وبسببه بدأت بعض البيوت المجاورة، تجمعُ المنحوتات الأفريقية، وهؤلاء، أيضاً، كانوا راضين بنسخٍ، زائفة، مُقلّدة، مع أنهم كانوا يستمتعون بالحديث عن استحالة الحصول على النسخ الأصلية.

تتخيّلُ نكيم أهالي «بينين» وهم ينحتون الأقنعة الأصلية، قبل أربع مئة عام. أخبرها أوبيورا أنهم يستخدمون الأقنعة في المناسبات الملكية، ويضعونها على هذا الجانب أو ذاك لملكهم من أجل حمايته، وطرد الشرّ بعيداً عنه. وثمة أناس خاصون يتولّون خدمة القناع، وهم نفس البشر

الذين تُوكَلُ إليهم مهمّة إحضار الرؤوس البشرية، الغضّة، المستخدمة في دفنِ مَلِكهم. تتخيل نكيم الشبّان اليافعين، بكامل عنفوانهم، وعضلاتهم المفتولة، وسحناتهم البنية، السّاطعة، المطلية بزيت لبّ البلح، والمآزر النّاعمة التي تلفُّ خصورَهم العاريةَ. تتخيّلُ- وهذا تتخيّلُه بنفسها، لأن أوبيورا لم يلمّح البتة إلى أنه حدث على هذا النحو- الشبان اليافعين، بكامل عنفوانهم، وهم يتمنّون لو أنّهم لا يقطعون رؤوس الغرباء، من أجل أن يدفنوا ملكَهم، ويتمنّون لو يستطيعون أن يستخدموا الأقنعة من أجل أن يحموا أنفسهم، أيضاً، ويتمنّون لو كان لرأيهم، في الأمر، قيمة تُذكر.

كانت نكيم حاملاً حين أتت إلى أمريكا، لأوّل مرة، مع أوبيورا. البيت الذي استأجره أوبيورا، ولاحقاً اشتراه، فاحت منه رائحة منعشة كالشّاي الأخضر. ردهتهُ القصيرةُ الموصلة إلى البوابة معبّدةٌ بالحصى. إننا نعيش في حيّ جميل، قرب فيلادلفيا، قالت على الهاتف لأصدقائها في لاغوس. وقد أرسلت لهم صورها، برفقة أوبيورا، بالقرب من «جرس المكتبة»، وكتبتْ، بافتخارٍ، خلف الصور «مَعْلمٌ هامٌ جدّاً في التاريخ الأمريكي»، وأرفقت الصور بكراريس برّاقة، تحمل صور بنجامين فرانكلين، الأصلع الشعر.

جيرانها في زقاق تشيريود، كلّهم من البيض. شعرهم أشقر، وأجسادهم نحيلة. أتوا إليها، وعرّفوا عن أنفسهم، وسألوها إن كانت تحتاجُ إلى أي مساعدة، عن أيّ شيء- الحصول على إجازة سَوق، أو هاتف، أو سمكريّ. لم تأبه كثيراً لأن تكون لكْنتها، وشكلها الأجنبي، قد جعلاها تبدو عاجزة في نظرهم. لقد أحبّتهم، وأحبّت حياتهم. الحياة التي غالباً ما نعتها أوبيورا بأنها «بلاستيكية». لكنها كانت تعرف أيضاً أنه كان يريدُ لأولاده أن يكونوا مثل أولاد جيرانهم، أولئك الذين يشمّونَ طعاماً، رُمي على الترابِ، قائلين إنه طعام «فاسد». في حياتها، وفي طفولتها، لم تجدْ، غضاضة، قطّ، بأن تلتقطَ الطعامَ، مهما يكن حاله، وتأكله بلا تردّد.

ظلّ أوبيورا ماكثاً في المنزل، خلال الشهرين الأولين، وتوقف الجيران عن توجيه أسئلة عنه، حتى وقت لاحق. أين هو زوجك؟ هل حدث له مكروه؟ ونكيم تجيب بأن كلّ شيء على ما يرام. إنه يعيش في نيجيريا وأمريكا، في آن معاً، فهما يملكان منزلين. لكنها ترى الشكّ في عيونهم، وتعرف أنهم كانوا يفكرون بأزواج آخرين، ممن يملكون بيوتاً أخرى في أمكنة أخرى من مثل فلوريدا ومونتريال، أزواجٌ يعيشون، معاً، في كلّ من هذه البيوت على حدة، وفي الآنِ عينِه.

ضحك أوبيورا حين أخبرته نكيم عن فضول الجيران حياله. قالَ البيضُ هم هكذا. إذا فعل المرءُ شيئاً بطريقة مختلفة، يعتقدون أنه ليس سوياً، وكأنّ طريقتهم هي الأسلوب الوحيد الممكن. وعلى الرغم من أنّ نكيم كانت تعرف العديد من الأزواج النيجيريين ممن كانوا يعيشون معاً، طوال السنة، لكنّها لم تقلْ شيئاً.

تمرّرُ نكيم راحتَها فوق المعدنِ المدوّر لأنفِ قناع «بينين». إنه من أفضل الأقنعة الزائفة، كما وصفه أوبيورا، حين أتى به قبل بضع سنوات. أخبرها كيف أن البريطانيين سرقوا الأقنعة الأصلية في أواخر 1800 خلال ما أطلقوا عليه «حملة القصَاص»، وكيف أن لهؤلاء الإنكليز طريقتهم في استخدام مفردات من مثل «حملة» و«تهدئة» للتمويه على أعمال القتل والسرقة. الأقنعةُ -وعددها يربو على الآلاف، بحسب أوبيورا- اعتُبرت «غنائم حرب»، وهي الآن معروضة في المتاحف في شتى أرجاء المعمورة.

ترفعُ نكيم القناعَ، وتضغطُ به على خدّها. إنه باردٌ وثقيلٌ، وخالٍ من الحياة. مع ذلك، حين يتحدّثُ عنه أوبيورا- وعن بقية الأقنعة- يجعلُها تبدو وكأنّها تتنفّسُ، بل ويصبحُ ملمسُها دافئاً. في العام الماضي، حين أتى بطينِ «نوك» النضيجِ، «تيراكوتا»، الموضوع على الطاولة، في مدخل البهو، قال لها زوجها إنّ شعب «نوك» العريق استخدم النسخ الأصلية، لعبادة الأجداد، حيث كان الناس يضعونها داخل الأضرحة، ويقدّمون لها الطعام. والبريطانيون نهبوا هذه أيضاً، وحملوها بعيداً، وقالوا للناس

المحليين (ممن اعتنقوا المسيحية حديثاً، وأصابهم العمى، كما قال أوبيورا) بأنّ هذه المنحوتات وثنية. لا نعرف كيف نقدّرُ ما نملك، يختتم أوبيورا، دائماً، بالقول، ثم يكرر حكاية أحد رؤساء الدول الأغبياء، ممن زار المتحف الوطني، في لاغوس، وأجبر مدير المتحف على أن يعطيه جذعَ تمثالٍ، عمره أربع مئة عام، كي يقدّمه، فيما بعد، هديةً إلى ملكة بريطانيا. أحياناً تشكّك نكيم بالحقائق التي يوردها أوبيورا، لكنها تصغي إليه، مشدوهةً بالطريقة الوجدانية التي يتحدث بها، وكيف تلمعُ عيناه، كأنما على وشك أن يبكي.

تتساءلُ ما عساهُ يجلب معه في الأسبوعَ القادمَ. باتت تتشوق لرؤية تلك القطع الفنية، وتحبّ ملمَسها، متخيلةً أنها أصلية، ومتخيلةً تلك الحيوات، التي تقف خلفها. الأسبوع القادم، حين يقول أطفالها، من جديد، كلمة «بابا» إلى شخص حقيقي، وليس مجرد صوتٍ على هاتف؛ حين تصحو هي، ليلاً، لتسمعَ شخيراً، بقربها؛ وحين ترى منشفةً أخرى، مستعملةً داخل الحمّام.

تنظرُ نكيم إلى ساعة جهاز التلفاز. أمامها ساعة واحدة كي تحضر الأطفال من المدرسة. عبر الستائر، التي أزاحتها، بعناية فائقة، خادمة المنزل، أمايتشي، ترسلُ الشمسُ مستطيلاً من الضّوء الأصفر فوق طاولة الزجاج في المنتصف. تجلسُ نكيم على حافة الأريكة، المصنوعة من الجلد، وتنظر حولها، في غرفة الجلوس، وتتذكّر موظف التوصيل من شركة «إيثان إنتيريورز»، الذي استبدلَ تاجَ المصباح، في اليوم الفائت. «بيتكِ جميلٌ جداً، يا مدام،» قال، ترتسمُ على وجهه تلك الابتسامةُ الأمريكيةُ الطّريفة، التي تعني أنه هو أيضاً يمكن أن يملك شيئاً مشابهاً، ذاتَ يوم. هذه من الأشياء التي أحبّتها كثيراً في أمريكا، وتحديداً وفرة الأمل اللاعقلاني.

في البداية، حين جاءت إلى أمريكا، لكي تلدَ طفلها، كان ينتابُها شعورٌ بالفخر والإثارة، لأنها انضمّت إلى العصبة المحسودة من الرّجال

الأغنياء في نيجيريا، ممن يرسلون زوجاتهم إلى أمريكا كي يلدْن عصبةً جديدةً من الأطفال، هناك. فيما بعد، المنزل الذي استأجرته، مع زوجها، عُرض للبيع. سعرٌ جيّد، قال أوبيورا، قبل أن يخبرها بأنه ينوي شراءه. وراق لها أكثر حين قال «نحن»، وكأنّما كان لها، حقاً، الرأيُ في الموضوع. وراقَ لها أيضاً أنها أصبحت جزءاً من عصبةٍ أخرى، وتحديداً الرجال الأغنياء في نيجيريا، ممن يملكون بيوتاً في العصبة الأمريكية.

لم يقرّرا أبداً أنّ عليها، هي الأمّ، أن تمكث مع الأطفال، بالضرورة- وُلد «أوكّي» بعد ثلاث سنوات من ولادة «أدانا». أمرٌ حدَثَ فحسب. مكثت في البداية، بعد ولادة أدانا، لتأخذ عدداً من دروس الكومبيوتر، لأنّ أوبيورا قال إنها فكرة جيدة. ثم سجّل أوبيورا ابنته، أدانا، في الحضانة، حين كانت نكيم حاملاً بابنها، أوكّي. ثم وجد مدرسة تحضيرية خاصة، لها سمعة جيدة، وقال لها إنهما محظوظان لأنّ المدرسة قريبة من المنزل. خمس عشرة دقيقة فقط، بالسيارة، لإيصال أدانا إلى هناك. لم تكن تتخيل أبداً أن أولادها سيذهبون إلى المدرسة، ويجلسون جنباً إلى جنب مع الأولاد البيض، ممن يملك آباؤهم العمارات الفخمة، فوق تلال معزولة، ولم تتخيل هذه الحياة التي تعيشها الآن. ولذا لم تقلْ شيئاً.

كان أوبيورا يزورهم كلّ شهرٍ تقريباً، في أوّل عامين، وكانت، تعود، برفقة أطفالها، إلى المنزل، في أعياد الميلاد. ولكن حين حصل على ذاك العقد الضخم مع الحكومة، قرر أنه لا يستطيع الزيارة إلاّ في فصل الصيف. ولمدة شهرين فقط. لم يعد بإمكانه السفر كثيراً، ولا يريد أن يعرّضَ عقوده الضخمة مع الحكومة إلى خطر. والعقود تلك لم تتوقف عن التدفّق. ودخل اسمه في قائمة الخمسين من رجال الأعمال، في نيَجيريا، الذين هم الأكثر تأثيراً، وأرسل لها نسخاً مصورة من صحيفة «نيوزووتش»، واحتفظت بقصاصات منها داخل مصنف خاص.

تتنهّدُ نكيم، وبأصابعها تمسّد شعرها. تشعرُ به كثّاً جداً، وعتيقاً جداً. كانت قد قررت شراء منعّمٍ للشَعر، عن طريق اللّمس، يوم غد، وتجعل

شعرها ينسدلُ حول عنقها، طرياً، تماماً كما يحبّه أوبيورا. كما أنها، قررت، يوم الجمعة، أن تمسّد خواتم شعرها، لتجعلها خصلاً سابلةً، تماماً كما يحبّ أوبيورا. تنهضُ، متجهةً إلى الردهة، وتصعدُ الدّرجَ العريضَ، ثم تعودُ أدراجَها، إلى المطبخ. وبنفس الطريقة اعتادت أن تتجول في أرجاء المنزل، في لاغوس، كلّ يوم من أيام الأسابيع الثلاثة، التي كانت تُمضيها مع أطفالها، خلال عطلة الميلاد. كانت تشمّ خزانة أوبيورا، وتلمسُ زجاجات عطره، واحدةً، واحدةً، وتطردُ الشكوك من رأسها. في أحد أماسي عيد الميلاد، رنّ جرس الهاتف، وأغلق المتّصلُ السمّاعة حين ردّتْ نكيم. ضحك أوبيورا، وقال «أحدُ المشاكسين». قالت نكيم، في سرّها، قد يكون فعلاً أحدُ المشاكسين، أو، وهذا أفضل بكثير، قد يكون الرقم الخاطئ بالفعل.

تعودُ نكيم، وتصعد الدرج، المؤدّي إلى الحمام، وتشمّ رائحة الكلور اللاذعة التي استخدمتها أمايتشي، منذ قليل، لتنظيف الرخام. تنظرُ محدقةً إلى وجهها في المرآة. عينها اليمنى تبدو أصغر من اليسرى. «عيون حورية،» يسمّيها أوبيورا. يظنّ أنّ الحوريات، وليست الملائكة، هي أكثر المخلوقات جمالاً. لطالما أغرى وجهُها الناسَ للحديث عنه- يا له من وجهٍ مدوّر، وبشرةٍ سوداء ناعمة، لا تشوبها شائبة. لكن حين تسمع أوبيورا يصفها بعيون الحور، فإنها تشعرُ بالجمال من جديد، وكأنّ ذاك الإطراء، يقدّمُ لها، على طبقٍ من وردٍ، عينين جديدتين.

تتناول نكيم مقصّاً- المقصّ الذي تقصّ به، عادةً، شرائط أدانا، وتحيلها قصاصاتٍ صغيرة- وترفعُه نحو رأسها. تمسكُ خصلاً من الشعر، وتقصّها أقرب إلى جلدة الرأس، وتترك الشعر بطول ظفرِ إبهامها، أي ما يكفي لتمسيدهِ، ووضع الكْرِيم المنعّمِ فوقه. تنظر إلى الشعر، يسقط نحو الأسفل مثل ندف قطنٍ رمادية فوق المغسلة البيضاء. تقصُّ المزيد، وتتساقطُ حزمُ الشعر، مثل أجنحة البرغش المحترقة. بعضُها يدخلُ إلى عينيها، ويخرّشُ مقلتيها. تعطسُ. تشمُّ رائحةَ مُطرّي الزّيتِ البنفسجيّ،

الذي وضعته هذا الصباح، وتفكّر بامرأة نيجيرية قابلَتْها ذات مرّة- اسمها أفينوا أو أفيوما، لا تستطيع أن تتذكّر الآن- خلال حفلة زفاف، في دالاوير، والتي يعيش زوجها في نيجيريا، أيضاً. شعرها قصيرٌ، لكنّهُ طبيعي، من دون تنعيم أو تمسيدٍ.

كانت قد شَكَتْ لها المرأةُ قائلةً، «رجالُنا»، بنبرةٍ دافئةٍ، كأنّ زوجَ نكيم وزوجها على صلة قرابة، ما. رجالنا يحبّون أن يتركونا، هنا، قالت لنكيم. يزوروننا أثناء مهمات العمل، وقضاء العطل، ويتركون لنا، ولأطفالنا، بيوتاً كبيرة، وسيارات فاخرة، ويأتون لنا بفتيات للخدمة من نيجيريا، لا نضطرّ أن ندفع لهنّ أجوراً أمريكية باهظة، ويقولون إنّ أعمالهم أفضل في نيجيريا، وسوى ذلك. لكن تعرفين لماذا لا ينتقلون إلى هنا، حتى لو كانت أعمالهم ستكون أكثر نجاحاً؟ لأنّ أمريكا لا تعترف بـ «الرجال الكبار». لا أحد يقول لهم في أمريكا، «يا سيّد، يا سيّد». ولا أحدَ يندفعُ نحوهم لينفضَ الغبار عن مقاعدهم قبل أن يجلسوا.

كانت نكيم قد سألتها إن كانت تخطّطُ للعودة، فالتفتت إليها، بعينين مستديرتين، وكأنّ نكيم قد ارتكبت خيانةً ما بحقّها. ولكن كيف يمكنني أن أعيش في نيجيريا، ثانيةً؟ قالت. إذا كنتِ قد أمضيتِ وقتاً طويلاً هنا، فأنتِ لن تكوني الشخص نفسه، وأنت لن تشبهي النّاس هناك. وكيف يمكن لأطفالي أن يتأقلموا؟ نكيم، ورغم أنها كرهت حاجبي المرأة الحليقين، على نحوٍ مبالغٍ فيه، لكنّها تفهَّمت ما تقول.

تنادي نكيم على خادمتها، أمايتشي، لتقوم بتنظيف الشعر.

«مدام!» تصرخُ أمايتشي. «ما هذا! لماذا قصصتِ شعركِ؟ ما الذي حدث؟».

«هل ينبغي أن يحدث شيءٌ ما قبل أن أقصّ شعري؟ نظّفي الشعر».

تدخل نكيم إلى غرفتها. تحدّق بالشرشف، العريض، المطويّ بأناقة، فوق فراشها المزدوج. حتى أنامل أمايتشي الماهرة لا تستطيع أن تُخفي الجانب الأملس من السّرير، وأنه، أيّ السرير، يُستخدم لمدّة شهرين فقط

في السنة. بريدُ أوبيورا مرتبٌ بأناقة في شكلِ كومةٍ، موضوعة على طاولة صغيرة، إضافة إلى موافقات مسبقة على بطاقات اتمان، ونشرات إعلانية من شركة لينزكرافترز. الناس الذين يهمّهم أمره يعرفون جيداً أنه يعيش، فعلاً، في نيجيريا.

تخرج من الغرفة، وتقف بالقرب من الحمّام، فيما الفتاة، أمايتشي، بدأت تنظف الشعر، وترمي، بأناة شديدة، خصلات الشعر البنّية المقصوصة في سلّة المهملات. تمنّت نكيم لو أنها لم تتسرع بإبداء السخرية، فالحدّ الفاصل بين سيدة المنزل وفتاة الخدمة اضمحلّ، مع الأيام، على الأقل منذ مجيء أمايتشي. هذا ما تفعله أمريكا بالمرء، تقول في نفسها. إنّها تجبرك على المساواة. لا يوجد أحدٌ آخر تتحدّث إليه، سوى أطفالك، فتنصرفُ إلى فتاة المنزل. وقبل أن تدرك ما يجري، تصبح الفتاة صديقةً لك. تصبحُ مساويةً لك.

«مرّ عليّ يومٌ صعب،» تقول نكيم، بعد بعض الوقت. «أنا آسفة».

«أعرف ذلك، مدام، وأراهُ في وجهكِ،» تقول أمايتشي، وتبتسم.

يرنّ الهاتف، وتعرف نكيم أنه زوجها، أوبيورا. إذ لا أحد آخر يتصل في هذا الوقت المتأخر.

«حبيبتي، كيف حالكِ؟» يقولُ. «أنا آسف، لم أستطع الاتصال في وقت أبكر. عدتُ لتوي من أبوجا، من اجتماعٍ مع الوزير. وتأخر موعد طائرتي حتى منتصف الليل. إنها، الآن، الثانية صباحاً تقريباً. هل تصدّقي هذا؟».

تعبّر نكيم بصوتها عن بعض التعاطف.

«هل أدانا وأوكّي على ما يرام؟» يسأل.

«هما بخير، ونائمان».

«هل أنتِ مريضة؟ هل أنت بخير؟» يسألُ. «تبدو نبرتُكِ غريبة».

«أنا بخير» تعرفُ أنه ينبغي أن تخبره كيف أمضى الأولاد سحابة

نهارهم، وهذا ما تفعله، في الحقيقة، حين يقوم بالاتصال، في وقت متأخر لكي يتحدث إليهم. لكنّها تشعرُ أنّ لسانها منتفخٌ، وثقيلٌ جدّاً، ولا تستطيع أن تدع الكلمات تتدفّق بانسيابية.

«كيف حالُ الطّقس، اليوم؟» يسأل.

«الحرارة إلى ارتفاع».

«من الأفضل أن تتوقف عن الارتفاع قبل أن أجيء» يقول، ويضحكُ. «حجزتُ مقعدي على الطائرة، اليومَ. أشتاق إليكم جميعاً، ولا أستطيع الانتظار أكثر».

«حقّاً تشتاق-؟» لكنّه قاطعها قبل أن تكمل جملتها.

«حبيبتي، ينبغي أن أذهب. لديّ مكالمة أخرى على الهاتف. إنه المساعد الشّخصي للوزير، يتصل في هذا التوقيت! أحبكِ».

«أحبكَ» تقولُ، رغم أنّ الهاتفَ مقفلٌ منذ حين. تحاول أن تتخيّلَ صورة أوبيورا، لكنها لا تستطيع، لأنها غير متأكدة ما إذا كان في المنزل، أو في سيارته، أو في أيّ مكان آخر. ثم تتساءلُ في سرها، أتراهُ وحده، أم مع تلك الفتاة، ذات الشعر الأجعد القصير. ويسرحُ عقلُها إلى غرفة النّوم في نيجيريا، غرفتها مع أوبيورا، التي ما تزال تشعرُ بها وكأنها غرفة في فندق، في كلّ عطلة ميلاد.

هل تحضن هذه الفتاة وسادتها أثناء النوم؟ هل تتطايرُ أنّاتُ هذه الفتاة فوق مرآة التجميل؟ هل تمشي هذه الفتاة إلى الحمام، على رؤوس أصابعها، مثلما كانت هي تفعل، عندما كانت فتاة عزباء، وأتى بها صديقها المتزوج إلى منزله، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، بدلاً من زوجته البعيدة؟

لقد ارتبطت بمواعيد غرامية مع رجال متزوجين قبل أن تلتقي أوبيورا- ما الذي يمكن لفتاة عزباء في لاغوس أن لا تحصل عليه؟ إكينا، وهو رجل أعمال، قام بدفع فواتير المشفى، نيابة عن والدها، بعد إجرائه عملية فتق. تونجي، وهو ضابط جيش متقاعد، رمّم سقف منزل والديها، واشترى لهما

أولى الأرائك الحقيقية، التي سيملكانها أبداً في حياتهما. كانت تفكّر جدّياً بأن تصبح زوجته الرابعة- هو مسلم، ويمكن أن يطلب يدها- كي يساعد أشقاءها، الأصغر سنّاً، بأن يكملوا دراستهم. إنها البنت البكر، لأهلها، وكانت دائماً تشعر بالعار، أكثر من الخيبة، لأنها لا تستطيع أن تفعل المزيد بوصفها البنت الأولى، وبخاصة أن أبويها مازالا يعانيان في المزرعة الجافة، وأشقاءها ما يزالون يصطادون أرغفة الخبز من كراج السيارات. لكنّ تونجي لم يتقدّم إلى طلب الزواج. وأتى بعده رجال آخرون. رجالٌ لطالما امتدحوا بشرتها الناعمة، رجالٌ وزعوا عليها صدقاتهم السريعة، رجالٌ لم يتقدموا إلى خطبتها، لأنها ببساطة التحقت بمدرسة السكريتاريا، وليس الجامعة. ولأنها، رغم جمال وجهها التامّ، كانت تخلط أزمنة الأفعال بالإنكليزية، ولأنها، جوهرياً، ما تزال فتاة من القرية.

ثم التقت أوبيورا، ذات يومٍ ماطرٍ، حين دخل إلى بهو الاستقبال في وكالة للإعلانات، وابتسمت في وجهه وقالت، «صباح الخير، يا سيّد، هل لي أن أساعدك؟» وقال، «نعم، من فضلكِ دعي المطر يتوقّف». وأطلق عليها لقب «عيون الحور»، في ذاك اليوم الأوّل، الماطر. لم يطلب منها أن تلتقي به في بيت خاص للضيوف، مثلما كان يفعل معظم الرجال، لكنه أصرّ على أن يصحبها إلى العشاء، في مطعم عامّ، فاخرٍ، يضجّ بالحيوية، حيث يمكن لأي كان أن يراهما معاً. سألها عن عائلتها. وطلب نبيذاً له مذاق حامض على لسانها، ثم قال لها، «سيأتي يومٌ وتحبينه»، وجعلتْ نفسها لذيذة كالنّبيذ، منذ تلك اللحظة.

لم تكن تشبه زوجات أصدقائه في شيء، وليست من ذاك النوع من النساء اللواتي يسافرن إلى الخارج، ويلتقين مصادفة ببعضهن، أثناء التسوق، في مولات هارودز، إذ لطالما حبست أنفاسها، تنتظر أوبيورا لأن يدرك تلك الحقيقة، ويتركها وشأنها. لكن الشهور مرت، وساعد إخوتها في التسجيل في المدرسة، وعرّفها على أصدقائه، في نادي القوارب، ونقلها من سكنها الضيّق في أوجوتا، إلى شقّة حقيقية لها شرفة

في إكيجا. حين سألها هل توافق على الزواج منه، فكرت كم كان ذاك السؤال بلا معنى، وغير ضروري، بما أنها كانت ستكون سعيدةً بمجرّد أن أحداً ما طلب منها ذلك.

بضراوةٍ شديدة، تشعرُ نكيم بحسّ التملك، الآن، متخيلةً الفتاة إياها محبوسةً بين ذراعي أوبيورا، على سرير زواجهما. تضعُ الهاتف جانباً، وتخبر أمايتشي أنها ستعودُ على الفور، وتقودُ سيارتها إلى محال «والغرينز» لشراء علبة من علب مراهم الشعر. أثناء عودتها، أشعلت أضواء السيارة في الداخل وراحت تحدق بالعلبة الكرتونية، وبصورة النسوة اللواتي على الغلاف، وخواتم شعرِهنّ المجعّد بأناقة فائقة.

تراقب نكيم فتاتها، أمايتشي، وهي تقشّر حبّات البطاطا، وتراقب القشور الرقيقة تسقطُ في شكل لفائف بنّيةٍ شفافةٍ.

«احذري. إنّكِ تقْسين على القشرة أكثر من اللازم» تقولُ.

«كانت أمّي تحكّ جلدي بقشرة بطاطا «اليام» الكبيرة إذا اقتطعتُ لبّاً أكثر مع القشرة. وكانت بشرتي تلتهبُ لأيام» تقول أمايتشي مع ضحكة قصيرة. إنها تقطع البطاطا إلى أرباع طولانية. لو كانت في نيجيريا، كانت ستستخدمُ بطاطا «اليام» لتحضير حساء اللحم، ولكن، هنا، يصعب على المرء أن يجد هذا النوع من البطاطا في المتاجر الأفريقية، وليس بطاطا الألياف التي تبيعها محال السوبرماركت الأمريكية. إنها بطاطا «يام» مزيفة، تفكّرُ نكيم، وتبتسم. لم تخبرْ أمايتشي، أبداً، بأنّ طفولتهما متشابهة جدّاً. قد لا تكون أمها قد حكّتْ جلدَها بقشرة بطاطا اليام، ولكن بالكاد كان هذا النوع من البطاطا متوفّراً. عوضاً عن ذلك، كانت توَجد أطعمة مبتكرة. إنّها تتذكّرُ كيف أنّ أمّها قَطَفتْ أوراق النبات، التي لا يمكن لأحدٍ آخر أن يأكلها، وصنعت منها حساءً، مصرّةً على أنها قابلة للأكل. بالنسبة لنكيم، كان لهذا الحساء، دائماً، مذاقُ البول، لأنها كانت تشاهدُ صبيان الحارة يتبولون على سيقان هذه النباتات.

«هل تريدين أن أستخدم السبانخ أم أوراق الملوخية المجفّفة، مدام؟» تسألُ أمايتشي. إنّها، دائماً، تسألُ حين تجلسُ نكيم قربها، أثناء تحضير الطعام. هل تريدين أن أستخدم البصل الأحمر أم الأبيض؟ مرقُ الدجاج أم البقر؟

«استخدمي ما تشائين» تقول نكيم. وها هي لا تغفلُ النظرةَ التي ترميها أمايتشي نحوها كالسّهم. نكيم، في الغالب، تقول استخدمي هذا، أو استخدمي ذاك. الآن، هي تستغرب لماذا تمارسان هذه التمثيلية الكاذبة، وعلى من تحاولان أن تضحكا؟ كلاهما تعرفان أن أمايتشي أفضل منها بكثير في أمور المطبخ.

تراقب نكيم الفتاة أمايتشي وهي تغسلُ السبانخ في المغسلة، وتتمعن بقوة كتفيها، وأردافها العريضة الثابتة. تتذكر الفتاة، الخجولة، المتشوقة، ابنة السادسة عشرة، التي أحضرها أوبيورا إلى أمريكا، والتي ظلت، لشهور عدّة، تقف مذهولةً أمام غاسل الصحون الآلي. وجد أوبيورا عملاً لوالد أمايتشي كسائق لديه، واشترى له دراجته النارية، وقال لقد أحرجه كثيراً أن يرى والدي أمايتشي، راكعين على التراب، كي يشكراه، ويقبلا قدميه.

كانت أمايتشي تهزّ المصفاة المملوءة بالسبانخ، حين قالت لها نكيم، «معلّمكِ، أوبيورا، جلب عشيقته، لتعيشَ في المنزل، في لاغوس».

تتركُ أمايتشي المصفاةَ تسقط من يدها في المغسلة وتقول، «مدام؟».

«لقد سمعتِ ما قلت» تقول نكيم. لقد اعتادت أن تتحدث مع أمايتشي عن أشهر شخصيات «روغراتس»، التي يحبّ الأطفال تقليدها، وكيف أنّ أرزّ «العم بن» أفضل من الأرز الهندي الطّويل في تحضير طبق المقلوبة، وكيف أن الأطفال الأمريكيين يتحدثون إلى من هم أكبر سناً، وكأنّهم نظراء لهم. لكنهما لم تتحدثا قطّ عن أوبيورا إلا عمّا يريد أن يأكل، أو كيف تُغسل وتكوى قمصانه حين يأتي زائراً.

«كيف عرفتِ ذلك، يا مدام؟» تسألُ أمايتشي في نهاية المطاف، بعد أن استدارت لتنظر إلى نكيم.

«صديقتي، إيجيماماكا، اتصلت بي وأخبرتني. لقد عادت لتوها من نيجيريا».

تحدّقُ أمايتشي في وجه نكيم بجرأة غير معهودة، كأنّما تطلب منها أن تتراجع عن كلماتها تلك. «ولكن، يا مدام- هل هي متأكدة؟».

«أنا متأكدة أنها لن تكذب في موضوع من هذا القبيل» تقول نكيم، مستندةً إلى الخلف إلى كرسيها. إنها تشعرُ بالحماقة وهي تفكّر بأنّها تثبتُ أنّ عشيقة زوجها قد انتقلت إلى منزلها. ربما كان ينبغي أن تشكك في الأمر. كان ينبغي أن تتذكر الحسد اللامبالي الذي تضمره إيجيماماكا تجاهها، وكيف أنها دائماً تحب أن تقول لها كلاماً يمزقها من الداخل. لكن لا شيء من هذا يهمّ، الآن، فهي تعرف أنّ الأمرَ صحيح: ثمة غريب في بيتها. وليس من العدل الإشارة إلى المنزل في لاغوس، في زقاق فيكتوريا غاردن سيتي، حيث العمارات الفخمة تشمخ خلف البوابات العالية، بأنه مجرّد بيت. البيتُ، هنا، هو بيتٌ حقاً. هذا البيت البنّي في ضواحي فيلادلفيا، مع نوافير تصنع أقواساً مائية فاتنة، في فصل الصيف.

«حين يعودُ المعلّم، أوبيورا، في الأسبوع القادم، مدام، سوف تناقشين الموضوع معه» تقولُ أمايتشي، بنبرةِ استسلام، وهي تسكبُ الزيت النباتي في آنية الطبخ. «ينبغي أن يطلب منها المغادرة. لا يصحّ أن يجعلها تنتقلُ إلى بيتكِ».

«وبعد أن يجعلها تغادر، ماذا بعد؟».

«تسامحينه، يا مدام. الرّجال هم هكذا».

تراقب نكيم خادمتها، أمايتشي، وكيف أنَّ قدميها، داخل الشبشب الأزرق، ثابتتان، ملتصقتان جيّداً بالأرض. «ماذا لو قلتُ لكِ إنّ لديه عشيقة؟ عشيقة لم تنتقلْ إلى المنزل. فقط هو لديه عشيقة!».

«لا أعرف، مدام.» أمايتشي تتجنّبُ النظرَ إلى عيني نكيم. ترمي

شرائح البصل في الزّيت المقلي، وترجعُ إلى الخلف، ويتعالى صوتُ الهسيس.

«تعتقدين أنّ معلّمك، أوبيورا، كان دائماً له عشيقات، أليس كذلك؟».

تحرّكُ أمايتشي شرائح البصل، وهي تلحظُ نكيم بطرف عينها، بينما سرى ارتعاش خفيف في يديها.

«إنه ليس مكاني لإبداء الرأي، يا مدام».

«كان يمكن ألا أخبركِ لو لم أكن أرغب بأن أتحدث إليكِ عن الموضوع، يا أمايتشي».

«ولكن، يا مدام، أنت تعرفين أيضاً».

«أعرف؟ أعرف ماذا؟».

«تعرفين أنّ المعلم أوبيورا لديه عشيقات. أنتِ لا تسألين أسئلةً. لكن في قرارة نفسكِ، أنت تعرفين».

تشعرُ نكيم بطنين مزعج في أذنها اليسرى. ماذا يعني أن تعرفَ، حقاً؟ أهي معرفة- رفضُها أن تفكّرَ، حسّياً، بالنسوة الأخريات؟ رفضها، بالمطلق، أن يكون ذاك الاحتمال قائماً أصلاً؟

«المعلّم، أوبيورا، شخصٌ طيبٌ، يا مدام، وهو يحبّكِ، ولا يستعملكِ لكي يلعب كرة القدم». تزيح أمايتشي الإناء عن الفرن، وتنظرُ بثبات إلى نكيم. صوتها أكثر نعومة، الآن، ويكاد يصل حدّ التملّق تقريباً. «نسوة كثيرات سيشعرن بالغيرة، وربّما صديقتك إيجيماماكا تشعر بالغيرة. ربّما هي ليست صديقة حقيقية. ثمة أشياء ينبغي ألا تخبركِ بها. ثمة أشياء يكون من الأفضل أن لا تعرفيها».

براحة يدها، تمسح نكيم شعرها القصير، الجعد، وتشعرُ أنه أضحى صمغياً بسبب كريم التسريح، ومفعّلِ حلقاتِ الشعر، التي كانت قد استخدمتها في وقت سابق. ثم تنهض لتغسل يدها. تريد أن توافق أمايتشي رأيها أنّ ثمة أشياء يكون من الأفضل أن تبقى طيّ الكتمان،

لكنها لم تعد متأكّدة من هذا. ربما ليس بالأمرِ السّيئ- راحت تفكّر- أنّ إيجيماماكا أخبرتني بالأمر. لم يعدْ مهماً لماذا اتصلت إيجيماماكا.

«تفقّدي البطاطا،» تقول.

لاحقاً، في ذاك المساء، وبعد أن اصطحبت الأولاد إلى غرفة النوم، تناولت هاتف المطبخ، وأدارت القرص على أربعة عشر رقماً. نادراً ما كانت تطلب نيجيريا. عادةً، أوبيورا هو الذي يقوم بالاتصال، لأنّ هاتفه الخليوي على الشبكة الدولية يتمتّع بتخفيضات عالمية.

«مرحبا؟ مساء الخير.» إنه صوتُ رجل. غير مثقّف. يتكلّم لغةَ إغبو الريفية.

«أنا المدام من أمريكا».

«آه، مدام!» يتبدّل الصوتُ، ويصير أكثر دفئاً. «مساء الخير، يا مدام».

«من الذي يتكّلم؟»

«أوتشينا، مدام. أنا صبي المنزل الجديد».

«متى أتيت؟».

«منذ أسبوعين، مدام».

«هل المعلم أوبيورا في المنزل؟».

«كلا، مدام.لم يرجعْ بعد من أبوجا».

«هل هناك أحد آخر؟».

«ماذا تعنين، مدام؟».

«هل هناك أحد غيركَ، هنا؟».

«سيلفستر وماريا، مدام».

تتنهد نكيم. تعرف أن المساعد والطباخ سيكونان هناك، بالطبع، فالوقتُ منتصف الليل، في نيجيريا. ولكن، هل كان صبي المنزل هذا

يتكلّم بشيء من التردّد، هذا الصبي الذي نسي أوبيورا أن يذكره لها؟ هل الفتاة ذات الشعر الأجعد هناك؟ أم أنها ذهبت مع أوبيورا، في رحلة عمل، إلى أبوجا؟

«هل ثمة من أحدٍ آخر،» تسأل نكيم ثانيةً.

فترة صمت. «مدام؟».

«هل ثمة من أحدٍ آخر في البيت، ماعدا سيلفستر وماريا؟».

«كلاّ، يا مدام، كلاّ».

«هل أنت متأكد؟».

فترة صمت أطول. «نعم، مدام».

«حسناً، أخبرْ معلّمكَ أوبيورا أنني اتصلت».

تغلق نكيم السماعة على عجل. هذا ما آلَ إليه حالي، تفكّرُ. أتجسّس على زوجي، مع صبي المنزل الجديد الذي لا أعرف عنه شيئاً.

«هل ترغبين بكأس صغيرة من الشراب؟» تسأل أمايتشي، وهي تراقبها، ونكيم تتساءلُ أهي الشفقة، ذاك الوميض السيّالُ في عيني أمايتشي، المائلتين قليلاً. لطالما كانت كأس صغيرة من الشراب تمثّل العُرفَ بالنسبة لنكيم وأمايتشي، بعد عدد من السنوات، الآن، منذ اليوم الذي حصلتْ فيه نكيم على بطاقة الإقامة الدائمة أو «الغِرينْ كارد». كانت قد فتحت زجاجة من الشامبانيا، في ذلك اليوم، وسكبت كأسين، لها ولأمايتشي، بعد أن ذهب الأولاد إلى النوم. «بصحّة أمريكا!» قالت، وسط ضحك أمايتشي الصاخب جدّاً. لم تعد بحاجة كي تتقدّم بطلبٍ للحصول على فيزا، من أجل العودة إلى أمريكا، ولم تعد مضطرة لأنْ تتحمل الأسئلة الملغزة في السفارة الأمريكية، بسبب البطاقة البلاستكية الناعمة التي تُظهر صورتها العابسةَ، بسبب أنها تنتمي، حقاً، إلى هذه البلاد، الآن. هذه البلادُ التي تعجّ بالطرائف والغرائب؛ هذه البلاد التي تستطيع أن تقودَ فيها سيارتك، ليلاً، ولا تخشى السطوَ المسلّح، حيث المطاعم تقدّم وجبةً لشخص واحد، لكنها، في الواقع، تكفي لثلاثة معاً.

إنها تشتاق للوطن، مع ذلك، وإلى أصدقائها، وإيقاع اللّهجة المحلية، إلى لغتي إغبو ويوروبا، وإلى لكْنة الإنكليزية المبسطة، التي تسمعُها من حولها، هناك. وحين يغطّي الثلجُ خرطوم سيارة الإطفاء، الصفراء، في الشارع، تشتاقُ شمسَ لاغوس التي تتوهّجُ، حتى أثناء هطول المطر. ولطالما فكّرت بالعودة، ولكن ليس جدّياً، وليس حسّياً. تذهبُ إلى صفّ اللياقة البدنية، مرتين في الأسبوع، في فيلادلفيا، مع جارتها. تحضّر الكعك المحلّي لدروس أطفالها، ودائماً يكون كعكُها هو الأفضل. تنتظر البنوكَ كي تقدم خدمةً أثناء قيادة السيارة. أمريكا عرّشت على جسدها، وضربتْ جذورها عميقاً تحت مسامات الجلد. «أجل، كأس صغيرة» تقول لأمايتشي. «أحضري النبيذَ الذي في الثلاّجة، مع كأسين».

نكيم لم تنتف شعرَ عانتها؛ ولا يوجدُ خطٌّ رقيقٌ بين ساقيها، إذ تقودُ سيارتَها باتجاه المطار لتُحضِر زوجها، أوبيورا. تنظر، عبر المرآة العاكسة، إلى أوكي وأدانا وهما يجلسان، مثبّتين بأحزمة الأمان، في المقعد الخلفي. إنهما هادئان اليوم، كأنّهما يشعران بتجهّمها، وغياب الضحكة عن وجهها. لطالما كانت تضحك، فرحاً، وهي تقودُ سيارتها إلى المطار لإحضار أوبيورا. تعانقه، وتراقبه وهو يحضنُ الأطفال. في اليوم الأول يخرجان لتناول العشاء، في مطعم «تشيللي»، أو أيّ مطعم آخر، وأوبيورا يتفرّج على الطفلين، وهما يلونان دفتر الأسعار. وأثناء العودة، إلى المنزل، يوزّع أوبيورا عليهما الهدايا، ويسهرُ الطفلان حتى وقت متأخّر، وهما يلعبان بالدُمى الجديدة. وترشّ العطر الجديد الذي أحضره لها، مهما يكن نوعه، على ملابسها، قبل الذهاب إلى الفراش، وترَتدي ملابس النّوم الشفافة، التي لا ترتديها، سوى شهرين في السنة.

كان دائماً يفيض سعادةً إزاء ما يستطيعُ الأطفال فعله، وما يحبّانه، أو لا يحبّانه، رغم أنها هي الأشياء ذاتها التي كانت تخبرهُ بها على الهاتف. حين يهرع أوكي إليه، شاكياً كدمةً ما، يقبّلُ الكدمةَ، ويضحكُ على

الطريقة الأمريكية الطريفة في تقبيل الجراح. هل البصقة تجعل الجرحَ يشفى؟ كان يسألُ. حين كان أصدقاؤه يتّصلون به، أو يقومون بزيارة ما، كان يطلب من الأولاد أن يسلّموا على «عمّو»، لكنه كان دائماً يحذر أصدقاءه، متبجّحاً، «آمل أنكم ستفهمون الإنكليزية الكبيرة، الكبيرة، التي يتحدّثون بها. إنهم أمريكيون، الآن، هه!»

في المطار، عانق الأطفالُ أوبيورا، بالشّوقِ القديم عينه، وهم يصيحون «بابا!».

نكيم تراقبهم بصمت. قريباً، لن تنفعَ معهم الألعاب، ولن تغويهم العطلُ الصيفيةُ، وسوف يبدأون يطرحون الأسئلة عن أبٍ لا يرونه سوى مرات قليلة في العام.

بعد أن طبع أوبيورا قبلة على شفتيها، عاد خطوة إلى الخلف، وراح ينظر إليها. لم يتغيّر فيه شيء، على ما يبدو: رجلٌ عاديٌّ، قصير القامة، فاتح البشرة، يرتدي سترةً رياضيةً، باهظة الثمن، وقميصاً أرجوانياً. «عزيزتي، كيف حالكِ؟» يسألها. «هل قصصتِ شعركِ؟».

تهزّ نكيم كتفيها، وتبتسمُ بطريقةٍ تقول «انتبهْ إلى الأولاد أولاً». أدانا تشدُّ أوبيورا من يده، سائلةً إياه ماذا أحضر بابا لها، وهل تستطيع أن تفتح حقيبتَه في السيارة.

بعد العشاء، تجلسُ نكيم على حافّة السرير، وتتفحّص رأس «إيف» البرونزي، الذي قال لها أوبيورا إنه مصنوع، في الحقيقة، من النحاس. الرأس تكسوهُ البقعُ، بحجم الحياة، ويرتدي العمامة. إنه القطعة الأصلية الأولى التي يُحضرها أوبيورا معه.

«علينا أن نبدي حرصاً شديداً تجاه هذه القطعة» يقولُ.

«قطعة أصلية» تقول، مندهشة، ثم تمرّرُ يدها على بعض النقوش المتوازية على الوجه.

«بعضها يعود إلى القرن الحادي عشر» يجلسُ بالقرب منها، ويبدأ

بخلعِ حذائه. صوتُهُ عالي النبرة، ومملوءٌ بالإثارة. «ولكن تلك القطعة تعود إلى القرن الثامن عشر. إنّها مذهلة. وتستحقّ، بكلّ تأكيد، كلّ هذا العناء».

«من أجل ماذا كان يتم استخدامها؟».

«لتزيين قصر الملك. معظمها يُصنع لتكريم وتخليد ذكرى الملوك. أليست جميلة حدّ الكمال؟».

«نعم» تقول. «أنا متأكدة أنهم فعلوا أشياء مرعبة بهذه القطعة أيضاً».

«ماذا؟».

«مثلما فعلوا بأقنعة بينين. قلتَ لي إنهم قتلوا الناس لكي يحصلوا على رؤوس بشرية من أجل دفن الملك».

تحديقة أوبيورا صُوّبت بثبات نحوها.

تنقرُ رأسَ البرونز بظفرِ إصبعِها. «هل تعتقد أن الناس كانوا سعداء؟» تسألُ.

«أيّ أناس؟».

«الناس الذين توجّب عليهم أن يقتلوا من أجل ملكهم. أنا متأكدة أنهم كانوا يرغبون بتغيير الطريقة التي تحدثُ فيها الأشياء، ولا يمكن، بأي حال، أن يكونوا سعداء».

رأس أوبيورا يميل نحو جهةٍ واحدةٍ، ويستمرّ في التحديق بها. «حسناً، ربّما قبل تسع مئة سنة، لم يكونوا يعرّفون كلمة سعادة مثلما تفعلين الآن».

تضع رأس البرونز جانباً؛ وتريد أن تسأله كيف يعرّف «السعادة».

«لماذا قصصتِ شعركِ؟» يسألُ أوبيورا.

«لم تحبّه؟».

«أحبّ شعركِ الطويل».

«لا تحبّ الشعرَ القصير؟».

«لماذا قصصتِهِ؟ هل هي الموضة الدارجة الجديدة في أمريكا؟» يضحكُ، ويخلع قميصه، استعداداً للدخول إلى الحمّام.

بطنه يبدو مختلفاً. إنه أكثر استدارةً وانتفاخاً. تستغرب كيف لفتياتٍ في العشرينيات من أعمارهنّ، أن يتحمّلن تلك العلامة من العمر المتوسّط، المسرفِ باللذائذ. تحاول أن تتذكر الرجال المتزوجين الذين صاحبتهم. أكانت لهم بطون منتفخة مثل أوبيورا؟ لا تستطيع أن تتذكر. فجأة لا تستطيع أن تتذكر أيّ شيء، ولا تتذكّر أين وكيف ذهبتْ حياتها هباءً.

«ظننتُ أنكّ ستحبّ قصّةَ الشعر» تقول.

«كلّ شيء، وأيّ شيء، لا بدّ أن يبدو حسناً، على وجهكِ الجميل، يا عزيزتي، لكنني كنت أحبّ أكثر شعرك الطويل. عليكِ أن تجعليه يعود، مثلما كان. الشعرُ الطّويلُ أكثر فتنةً، على زوجةِ الرّجل الكبير» يقول ضاحكاً.

إنه عارٍ الآن. يتمطّط فترى بطنه يهتزُّ صعوداً، وهبوطاً. في الأيام الخوالي، كانت تستحمّ معه، وتركعُ على ركبتيها، وتأخذهُ بشفتيها، مبتهجةً به، وبالبخارِ، الذي يغلّف جسديهما. ولكنّ الأشياءَ تغيرت الآن. أضحت لينةً، كبطنهِ ذاك، مطواعةً، وأكثر استسلاماً. تراقبه يمشي إلى التواليت.

«هل يمكننا أن نختصر سنة كاملة من الزواج في شهرين اثنين خلال الصيف، وثلاثة أسابيع في كانون الأول؟».

أوبيورا يضغطُ ماءَ التواليت، فيما الباب ما يزال مفتوحاً. «ماذا؟».

«انس. لا شيء».

«ترغبين بأن تستحمّي معي؟».

تديرُ جهاز التلفاز، وتتظاهر أنها لم تسمعْه. ينتابُها الفضول لأن تعرف أكثر عن الفتاة ذات الشعر القصير، الأجعد، وهل، يا ترى، تستحمّ مع أوبيورا. تحاولُ، لكنّها لا تستطيع، أن تتصوّرَ شكل الحمّام في منزلها،

في لاغوس. الكثيرُ من الحوافّ المذهّبة - لكنها قد تكون أخطأته بأحد حمّامات الفنادق.

«حبيبتي، تعالي نستحمّ معاً» يقول أوبيورا، مسترقاً نظرةً إلى خارج الحمّام. لم يسأل هذا السؤال منذ عدة سنوات. وبدأت تخلعُ ملابسها.

داخل حوض الاستحمام، وإذ كانت تفركُ له ظهره بالصّابون، قالت، «ينبغي أن نجد مدرسةً للطفلين، أدانا وأوكّي، في لاغوس» لم تكن تخططُ، البتّة، لقولِ ما قالته، لكن كلامها بدا الكلامَ الصحيحَ، ولطالما أرادتْ أن تتفوّه به أمامه.

يستدير أوبيورا نحوها محدّقاً، «ماذا؟».

«سوف نعودُ مع نهاية العام الدراسي. سوف نعود لنعيش في لاغوس. إننا عائدون». تتحدّث ببطءٍ، لكي تقنعه، وتقنع نفسها أيضاً. يستمرّ أوبيورا في التحديق بها، وهي تعلم أنه لم يعهدها أبداً تتحدثُ جهراً بتلك الطريقة، ولم يسمعها أبداً تتخذ موقفاً. تتساءلُ ما إذا كان هذا هو ما جذبه إليها، في المقام الأول، وأنها كانت تعتمد عليه، ليتحدّث بالنيابة عنها وعنه.

«نحنُ، يمكننا أن نقضي العطل معاً، هنا،» تقولُ. وتشدّدُ على كلمة «نحن».

«ماذا ...؟ لماذا؟» يسأل أوبيورا.

«أريدُ أن أعرف متى استأجرنا صبياً ليعملَ في منزلي» تقولُ نكيم، «أضفْ إلى ذلك أنّ الأطفالَ يحتاجونكَ».

«إن كان هذا ما تريدينه» يقول أوبيورا أخيراً. «سوف نناقشُ الأمر».

بلطفٍ حرّكت جذعَه، واستمرّت تفركُه بالصّابون. لم يبق، حقّاً، ما يتحدّثان به، تعلمُ نكيم هذا، وتعلمُ أنّ الأمر انتهى.

تجربة خاصة

تتسلّق تشيكّا نافذة المخزن، أوّلاً، ثم تُمسكُ الأباجور، لتتسلّق خلفها المرأة الأخرى. يبدو المخزنُ مهجوراً، حتى قبل أن تبدأ القلاقلُ، وأعمالُ الشغب، وبدت الصفوفُ الخاوية من الرفوف الخشبية مكسوةً بالغبارِ الأصفر، ومثلها الحاويات المعدنية المكدسة في الزاوية. تتسلق المرأةُ، وتدخلُ، وتصدرُ الأباجورات صريراً حادّاً، ما إن ترفع تشيكّا يديها، وتتركها تنسدل نحو الأسفل. يدا تشيكا ترتعشان، وفرائصها ترتعدُ بعد ذاك الركض المتعرج في السوق، مرتديةً حذاءها ذي الكعب العالي. تريدُ أن تشكر المرأة، لأنها توقفت، حين مرّت مسرعةً بالقرب منها، وقالت، «لا تركضي في هذا الاتجاه!»، ولأنّها دلّتها، بدلاً من ذلك، إلى هذا المخزن الفارغ، حيث بإمكانهما الاختباء معاً. وقبل أن تتفوّه تشيكا بكلمة شكراً، تقولُ المرأةُ، بعد أن لمستْ عنقَها، «ضاعت قلادتي وأنا أركضُ».

«رميتُ كلّ شيء،» تقول تشيكا. «كنت قد اشتريت البرتقال، فرميتُ البرتقال وحقيبتي معاً.» لم تقلْ إنّ حقيبة يدها هي من ماركة بلوبيري، وقد اشترتْها لها أمّها، مؤخراً، أثناء زيارة إلى لندن.

تتنهد المرأةُ، وتخمّن تشيكا أنها تفكّرُ بقلادتها، التي لا تعدو كونها، ربّما، بضع حبات من سبحة بلاستيكية، معقودة بسلكٍ. حتى من دون سماع لكْنةِ «هاوسّا» القوية، في صوت المرأة، تستطيع تشيكا أن تعرف أنّها شمالية، من ضيق وجهها، ومن البروزِ غير الطبيعي لعظمتي خدّيها،

وبأنّها مسلمة، من الوشاح الذي ترتديه. إنه يتدلى من عنق المرأة، الآن، لكنه كان يحيط بوجهها، من قبل، ويغطّي أذنيها. وشاحٌ طويلٌ، رهيفٌ، أسود وبنفسجي، مع جمالٍ مبهرجٍ، يميز الأشياءَ الرخيصة. تتساءلُ تشيكا ما إذا كانت المرأة تنظرُ إليها أيضاً، وما إذا كانت تستطيع أن تخمن ملامحها الفاتحة، من سُبحة الإصبع الفضّية، التي تصرّ أمّها على أن تجعلها ترتديها، لأنها من إثنية إغبو المعروفة، وهي مسيحية. لاحقاً، سوف تعرف تشيكا أنه، وبينما كانت هي والمرأة تتبادلان الحديث، كان مسلمو «هاوسّا»، يهاجمون مسيحيي إغبو بالبلطات، ويرجمونهم بالحجارة. لكنها الآن تقول، «شكراً لأنك ناديتني. كلّ شيء حدث بسرعة رهيبة، والجميع كان يركض، وفجأة وجدتُ نفسي وحيدةً، ولم أكن أعلم ماذا أفعل. شكراً.»

«هذا المكان آمن،» تقول المرأة، بصوتٍ ناعمٍ جدّاً، يقاربُ الهمس. «هؤلاء لا يهاجمون المتاجر الصغيرة. غايتهم المتاجر الكبيرة، الكبيرة، والأسواق».

«نعم» تقول تشيكا. لكن ليس لديها سبب بأن توافق أو لا توافق، فهي لا تعرف شيئاً عن أعمال الشغب: كان أقرب شيء واجهته في حياتها تظاهرة مناصرة للديموقراطية، داخل الجامعة قبل بضعة أسابيع، حيث حملت غصناً ساطعاً أخضر، وراحت تهتفُ «يسقط العسكر! يسقط أباتشا! الديموقراطية الآن!» فضلاً عن ذلك، كان يمكن ألا تشارك في تلك التظاهرة لو لم تكن شقيقتها، نيدي، إحدى اللواتي نظمن الفعالية، متنقلة من نزل إلى نزل، توزع المناشير، وتتحدث إلى الطلاب عن أهمية أن نجعل «أصواتنا مسموعة».

يدا تشيكا ما تزالان ترتعشان. منذ نصف ساعة، كانت في السوق، برفقة نيدي. خرجت تشتري البرتقال، ونيدي ذهبت أبعد منها، لتشتري الفستق الأرضي، حين سمعتا صوتاً يصيح بالإنكليزية المبسّطة، ومن ثم بلهجة هاوسا، ولهجة إغبو. «أعمال شغب! الاضطرابات قادمة، آه!

لقد قتلوا شخصاً!» ثم بدأ الناس حولها يركضون، ويتدافعون، الواحد ضدّ الآخر، مطيحين عربات البطاطا، رأساً على عقب، تاركين خلفهم خضروات مهروسة كانوا قد اشتروها، منذ قليل بعد جدلٍ كبيرٍ. شمّت تشيكا رائحة الخوف والعرق، وركضت، هي أيضاً، هاربة عبر الشوارع العريضة، إلى هذا الشارع الضيق، الذي خشيت - وشعرتْ - أنه خطير، حتى رأت تلك المرأة.

هي والمرأة تقفان صامتتين داخل المتجر لبعض الوقت، وتنظران عبر النافذة التي تسلقتا إليها منذ حين، حيث لا يزال أباجورها الخشبي يهتزّ مع الهواء، محدثاً صريراً واضحاً. بدا الشارع هادئاً في البداية، لكنهما سرعان ما سمعتا وقع خطوات راكضة. كلتاهما تبتعدان عن النافذة، بشكل غريزي، رغم أن تشيكا ما تزال تستطيع رؤية رجل وامرأة يمران مسرعين. المرأة ترفعُ دثارها، إلى فوق الركبة، مع طفلٍ موثوق إلى ظهرها. الرّجل يتكلم، همساً، بلغة إغبو، وكان كلّ ما سمعته تشيكا هي الكلمات التي تقولُ «ربما هربت إلى بيت عمّها».

«أوصدي النافذة» تقول المرأة.

تغلق تشيكا النافذة، ولكن، فجأة بدا الغبار سميكاً في الغرفة، من دون هواء يدخلُ من الشارعِ، حتى أنها تستطيع أن تراه بالعين المجردة، يتطايرُ فوقها. الغرفة ضيقة، ورائحتها لا تشبه في شيء رائحةَ الشوارع في الخارج، التي تذكّر بالأدخنة، أيام أعياد الميلاد، وبألوانها السماوية، حين يرمي الناس الهياكل العظمية للماعز في النيران، كي يحرقوا الشَعر عن الجِلد. إنّها تلك الشوارع التي كانت تركضُ فوقها كالعمياء، غير متأكدة في أي جهة ذهبت أختُها نيدي، وغير متأكّدة إن كان الرجل الذي يركض بجانبها صديقاً أم عدواً، وغير متأكدة إن كان ينبغي عليها أن تتوقف، وتمسك بيد أحد الأطفال المذعورين، ممن أضاعوا أمّهاتهم في الزّحام، وغير متأكّدة، حتّى، من يكون هذا أو ذاك، ومن كان يقتل من في تلك المعمعة.

فيما بعد سترى الهياكل المحترقة للسيارات، والثقوب الشاغرةَ على أبوابها المحطّمة، وواجهاتها الأمامية المهشّمة، وتتخيَّلُ السيارات المحترقة، التي تتوزّع في كلّ أنحاء المدينة، كمثلِ نيران النزهات، وجميعها شواهد صامتة على ما هو أكثر من ذلك. وسوف تكتشف أن كلّ هذا قد بدأ عند كراج توقّف السيارات، حين قام رجلٌ، يقود سيارته، بدهس نسخة من القرآن الكريم، كانت ملقاةً على قارعة الطريق، رجلٌ اتضحَ أنه من إثنية إغبو، بمحض الصدفة، ومسيحيّ. الرجال في الجوار، الذين يمضون سحابة نهارهم يلعبون «الضاما»، هؤلاء الرجال، الذين اتضح، بمحض الصدفة، أنهم من المسلمين، سحبوه من سيارة البيك آب، وقطعوا رأسه، بضربة بلطة واحدة، وحملوه إلى السوق، طالبين من آخرين الانضمام إليهم، فالكافر دنّسَ الكتاب المقدّس. وسوف تتخيل تشيكا رأس الرجل المقطوع، وملامحه الصفراء اصفرارَ الموت، وسوف تتقيأُ، وتعيدُ التقيؤَ، حتى تلتهبَ وتتقرّحَ معدتُها. لكنّها الآن، في هذه اللحظة، تسألُ المرأةَ، التي بجانبها، «هل ما زلتِ تشمّين رائحة الدخان؟».

«نعم» تقول المرأةُ. ثم تفكّ دثار خصرها الأخضر، وتفرشه على الأرض المغبرّة. ربما كان واحداً من اثنين في حوزة هذه المرأة. تنظرُ إلى تنورتها القطنية الزرقاء، وإلى قميصها الأحمر، «تي شيرت»، حيث تتلألأ فوقه صورة لتمثال الحرية، وكلاهما اشترتهما أثناء زيارة لها، خلال الصيف، استمرت أسبوعين، إلى مدينة نيويورك، برفقة شقيقتها نيدي.

«كلاّ، دثاركِ سوف يتّسخُ بالغبار» تقولُ.

«اجلسي» تقول المرأةُ. «سوف ننتظر وقتاً طويلاً هنا».

«هل تعرفين كم سيطولُ انتظارنا ...؟».

«هذا اللّيل، أو صباح الغد».

تضع تشيكا يدها على جبهتها، كمن تتفحّصُ إصابتَها بحمّى الملاريا. لمسةُ راحتها الباردة، تهدّئُ من روعها، في العادة، لكن هذه المرة، راحة يدها رطبةٌ ومبلّلة بالعرق. «تركتُ أختي تشتري الفستق. لا أعلم أين هي».

«لا بدّ أنها وجدت مكاناً آمناً».

«نيدي».

«من؟».

«شقيقتي. اسمها نيدي».

«نيدي» تكرّرُ المرأة، ولهجةُ «هاوسا» في صوتِها تغلّفُ اسمَ «إغبو»، بلطفٍ ناعمٍ كالرّيش.

فيما بعد، ستقوم تشيكا بتمشيط جميع المشارحِ في المستشفيات، بحثاً عن نيدي، وستزور مكاتب الصحف، حاملةً صورة مشتركة لها ولأختها، كانت قد التقطتها خلال حفلة زفاف، قبل أسبوع فقط، تلك الصورة التي تبدو فيها مبتسمة نصف ابتسامة غبية، لأنّ نيدي قرَصَتها قبل برهة فقط من التقاطها، وكلاهما ترتديان شالين متشابهين على الكتف، من ماركة أنقرا. وسوف تلصقُ نسخاً من الصورة على الحيطان، في السوق، والمتاجر المجاورة. لكنها لم تعثرْ عل نيدي. ولن تعثر على نيدي أبداً. لكنها، الآن، تقول للمرأة، قربها، «أنا ونيدي أتينا معاً، في الأسبوع الماضي، لنزور عمّتي. لدينا كلتينا عطلة من المدرسة».

«إلى أي مدرسة تذهبان» تسألُ المرأة.

«إننا في جامعة لاغوس. أنا أدرسُ الطبّ. ونيدي تدرس العلوم السياسية.» تتساءل تشيكا في سرها ما إذا كانت هذه المرأة تعرف أصلاً ماذا يعني الذهاب إلى الجامعة. وتعتقدُ أيضاً أنها ذكرت المدرسة فقط لتأخذ جرعة تحتاجُها من الواقع الآن- بأنّ نيدي ليست ضائعة، وأنّ نيدي في مأمن، وربما تضحكُ بطريقتها السهلة، ملء فمِها، وهي تصوغ أحد جدالاتها السياسية. من قبيل كيف أنّ حكومة الجنرال أباتشا تستخدم سياستها الخارجية، لكي تصبغ شرعيةً على نفسها، في عيون البلدان الأفريقية الأخرى. أو كيف أنّ الشعبية الواسعة لوصلات الشعر الأشقر هي النتيجة المباشرة لحالة الاستعمار.

«أمضينا أسبوعاً واحداً فقط، هنا مع عمتنا، ولم يسبق لنا أن زرنا (كانو)،» تقول تشيكا، فهي تدرك أنّ ما تشعر به هو التالي: هي وأختها ينبغي أن لا تتأثرا بالشغب. أعمالُ شغب كهذه هي ما تقرأ عنه في الجرائد. أعمال شغبٍ كهذه هي ما يحدثُ لأناسٍ آخرين.

«عمّتكِ في السوق؟» تسألُ المرأةُ.

«لا، في عملها. إنها مديرة في هيئة استشارية». ترفعُ تشيكا يدها وتضعها على جبينها من جديد. تنحني وتجلس، على بعد مسافة قريبة من المرأة، أكثر مما تفعل في العادة، من أجل أن تريحَ جسدها كله فوق الدثار. تشمّ رائحة ما على المرأة، شيئاً قاسياً مثل الصابون الذي تستخدمه خادمتهم لغسلِ شراشف السرير.

« عمّتك ستكون في مكانٍ آمن».

«نعم،» تقول تشيكا. الحديث بينهما يبدو سريالياً. تشعرُ وكأنها تراقبُ نفسها. «ما زلتُ لا أصدّق أن هذا يحدث. هذه الاضطرابات». المرأةُ تنظرُ إلى الأمام، بخطّ مستقيم. كلّ شيء فيها طويلٌ ونحيلٌ: ساقاها الممدودتان أمامها، أصابعها، ذات الأظافر المطلية بالحنّاء، وقدماها. «إنه من صنع الشرّ» تقول أخيراً.

تتساءل تشيكا ما إذا كان هذا هو كلّ ما تفكرُ به المرأة حيال الاضطرابات، وإن كان ذلك كلّ ما تراه فيها - الشرّ. تتمنى لو أنّ نيدي هنا. تتخيلُ اللّون البنيّ، كالكاكو، لعيني نيدي، يتوقّدُ ذكاءً، وشفتيها تتحركان بسرعة، وهي تشرح أنّ الاضطرابات لا تحدث من فراغ، وأنّ الدين والإثنيات مسيّسة، لأنّ الحاكم في مأمن إذا لجأ الجياعُ، المحكومون، إلى قتل بعضهم بعضاً. ثم تشعر تشيكا بوخزة إثم لأنها تساءلت ما إذا كان عقل هذه المرأة واسعاً بما يكفي لاستيعاب أيّ من هذا.

«في المدرسة، هل ترون أناساً مرضى، الآن؟» تسألُ المرأة.

بسرعة تتجنب تشيكا نظرتها، كيلا ترى المرأةُ الدهشةَ على وجهها.

«عيادتي! نعم، بدأنا العام الماضي. نرى مرضى في المدرسة التعليمية». لكنها لا تضيف أنها غالباً ما تقع فريسة لنوبات الشكّ، وهي تتلكأ في آخر المجموعة، المؤلفة من ستة أو سبعة طلاب، متهربة من نظرات مدير التسجيل، وتأملُ بأن لا يطلب منها أحد أن تعاين مريضاً، وتقدم له تشخيصاً عابراً.

«أنا بائعة» تقول المرأة. «أبيعُ البصل».

تصيخُ تشيكا السّمع، بحثاً عن أثر لتهكم أو سخرية في نبرة صوتها، لكن، لا شيء من هذا القبيل. الصوتُ ثابتٌ وخفيضٌ، والمرأةُ تقولُ ما تفعله حقاً.

«آملُ أنهم لن يحطّموا دكاكين السوق»، تجيب تشيكا. لم تكن تعلم ماذا ستقول أكثر من ذلك.

«في كلّ مرة تنشبُ فيها أعمال الشغب، يحطّمون السوق، ويقلبونه رأساً على عقب»، تقول المرأة.

تودّ تشيكا أن تسأل المرأة عن عدد المرات التي شهدت فيها أعمال شغبٍ في الشوارع، لكنها تحجم عن ذلك. لقد قرأت عن القلاقل الأخرى في الماضي: المتعصبون المسلمون، من إثنية هاوسا، يشنون هجوماً على مسيحيي إغبو، وكذلك يفعل أحياناً مسيحيو إغبو في بعض مهمات الانتقام الإجرامية. لا تريد محادثة تُكال فيها التهمُ، وتُطلق التسمياتُ، من هنا وهناك.

«حلمتي تلتهبُ كالفلفل» تقول المرأة.

«ماذا؟».

«حلمتي تلتهبُ كالفلفل».

قبل أن تستطيع تشيكا أن تزدرد غمغمات الدهشة في حنجرتها، وتقول شيئاً ما، ترفع المرأة بلوزتها، وتفكّ الملقط الأمامي لسوتيانتها السوداء البالية. تُخرجُ النقود، وهما ورقتان واحدة من فئة العشرين،

والأخرى العشر نيرا (ليرة)، مطويتان داخل حمالة الصدر، قبل أن تطلق سراح ثدييها على الملأ.

«تلتهبان، تلتهبان كالفلفل» تقول، ممسكةً بثدييها، ومائلةً بجذعها نحو تشيكا، كأنما تدعوها للمسهما. تجفلُ تشيكا. تتذكّر مناوبتها، قبل أسبوعٍ فقط، حين شاركت في درس عملي متعلق بطبّ الأطفال: أمين السجلّ، الطبيب أولونلويو، أراد من جميع الطلاب أن يشعروا المرحلة الرابعة من خفقان قلب طفلٍ صغيرٍ، وكان يراقبهم بعينين مليئتين بالفضول. طلب منها الطبيب أنّ تذهب أولاً، وسرعان ما شعرت بالعرق يتصبب منها، وذهنها صفحة بيضاء، حتى أنها لم تعد تعرف أين موضع القلب. وفي نهاية المطاف، نجحتْ بوضع يدٍ مرتعشة، على الجانب الأيسر، من حلمةِ الصبي، فشعرت باهتزاز الدّم المتدفق، يجري في الاتجاه الخاطئ، نابضاً تحت أصابعها، ما جعلها تتلعثمُ، وتقولُ، «آسفة، آسفة،» للصبي، رغم أنه كان يبتسمُ في وجهها.

حلمتا المرأة لا تشبهان حلمة الصبي. حلمتان متشققتان، مشدودتان، مائلتان للبنيّ الفاحم، فيما رأس الحلمة فاتح اللون. تنظر تشيكا بحذر إليهما، تمدّ يدها، وتلمسهما. «هل لديك طفل رضيع؟» تسألُ.

«نعم. عمره سنة واحدة».

«حلمتاك جافتان، ولا يبدو أنهما مصابتان بعدوى. بعد أن تُرضعي الطفل، عليكِ أن تستخدمي مرهماً مُطرّياً. أثناء عملية الرّضاعة، عليكِ أن تتأكدي أن الحلمة، وبخاصة رأسها، موضوعة داخل فم الطفل، بشكلٍ مناسب».

ترمق المرأةُ تشيكا بنظرة طويلة. «هذه هي المرة الأولى. لدي خمسة أَطفال».

«حدث الشيء نفسه مع أمي. حلمتاها تصدّعتا، حين رُزقتْ بالمولود السادس، ولم تعرف ما السبب وراء ذلك، حتى جاء أحد الأصدقاء ونصحها بأن تضع كريماً لطراوة البشرة» تقول تشيكا. إنها لا تكذب

أبداً إلا نادراً، لكنها في المرات القليلة التي فعلتها، كان ثمة دائماً غاية من وراء الكذبة. تسألُ نفسها ما غاية هذه الكذبة، الآن، وهذه الحاجة للتوسل إلى ماضٍ متخيّل، يشبه ماضي المرأة. هي ونيدي هما الأختان الوحيدتان لأمهما. أضف إلى ذلك، الطبيبُ، إغبوكوي، بدراسته البريطانية، ودماثته، على بعد مكالمة هاتفية واحدة من منزلِ والدتها.

«ما الشيءُ الذي تضعه أمّكِ على حلمتيها؟» تسأل المرأةُ.

«زبدة الكاكو. التشقّقات تشفى سريعاً».

«هه!» تراقب المرأةُ محدّثتها، تشيكا، لبعض الوقت، وكأنّ هذا البوح خلق جسراً بينهما. «حسناً، عندي هذا، وأستعملُه.» تلعبُ بوشاحها قليلاً، ثم تقولُ، «إني أبحث عن ابنتي. ذهبنا معاً إلى السوق هذا الصباح. هي تبيعُ الفستق قرب محطّة الباص، لأنه يوجد زبائن كثر هناك. ثم نشبت الاضطرابات، وانا أبحث عنها، طولاً وعرضاً، في كلّ أرجاء السوق».

«وماذا عن الطفل؟» تسألُ تشيكا، عارفةً أنها تبدو غبيةً جدّاً، وهي تسأل هذا السؤال.

تهزّ المرأةُ رأسها. ثمة بريق من نفاد الصبر، وحتى الغضب، يفيضُ من عينيها. «هل لديكِ مشكلة في السمع؟ ألا تسمعين ما أقول؟».

«آسفة» تقول تشيكا.

«تركتُ الطفلَ في المنزل! أما هذه فهي ابنتي البكر، حليمة» وبدأت المرأةُ تبكي. إنها تبكي بهدوء. كتفاها يهتّزان، صعوداً وهبوطاً، لكن انتحابها ليس من النوع الصاخب، الذي اعتادت تشيكا أن تسمعه من النسوة اللواتي تعرفهنّ، ذاك النّوع الذي يصرخُ، ولسان حالهنّ يقولُ: احتضني وواسيني لأنّني لا أستطيع أن أتعامل مع هذا وحدي. أما بكاء هذه المرأة فخاصّ جدّاً، وكأنّها تمارسُ شعيرةً ضروريةً لا تعني أحداً سواها.

لاحقاً، حين ستتمنّى تشيكّا لو أنها لم تقرّرْ، مع أختها نيدي، أن تستأجرا التاكسي، وتذهبا إلى السوق، من أجل التجوّل قليلاً في المدينة

العريقة فقط، «كانو»، خارج الجوار، حيث بيت عمّتها، سوف تتمنّى، أيضاً، لو أنّ ابنة المرأة، حليمة، كانت مريضة أو متعبة، أو كسولة، في ذاك الصباح، وبالتالي تتجنّبُ بيعَ الفستق في ذلك اليوم.

بكمٍّ بلوزتها، تمسحُ المرأةُ عينيها من الدموع. «الله يحمي أختكِ، ويحفظ حليمة في مكان آمن» تقول. ولأنّ تشيكا لم تكن متأكدة أنها تعرف ماذا يقول المسلمون تعبيراً عن الموافقة- لا يمكن أن تكون كلمة «آمين»- اكتفت بهزّ رأسها.

اكتشفت المرأةُ حنفيةً صدئةً، في زاوية المستودع، بالقرب من الحاويات المعدنية. ربّما هو المكان الذي يغسل فيه البائع أو البائعة يديه أو يديها، تقولُ، وتخبرُ تشيكا بأنّ المتاجر في هذا الشارع هُجرت منذ أشهر، بعدما أعلنت الحكومة أنها منشآت غير قانونية، وينبغي هدمها. فتحت المرأة صنبور الماء، وراحت كلتاهما تنظران- مندهشتين- إلى الماء يسيلُ، رمادياً، بلون المعدن. تشيكا تشمّ للتوّ رائحتها الكريهة. مع هذا ظلّ الماءُ يسيلُ.

«أتوضأ وأصلّي» تقول المرأةُ، بصوتٍ أعلى نبرة، الآن، وتبتسم، للمرّة الأولى، فتظهر أسنانها المتناسقة، الأماميةُ، مبقّعةً باللّون البني. غمّازاتها تغوران في خديها، بعمقٍ يكفي لاختفاءِ نصف إصبع، وهذا غير طبيعي في وجه شديد الضمور. على عجلٍ، تغسلُ المرأةُ يديها ووجهها، ثم تزيل الوشاح عن عنقها، وتضعه على الأرض. تشيكا تعرف أنّ المرأة تركع على ركبتيها، ووجهها نحو مكّة، لكنّها لا تنظرُ. هذا يشبه دموعها، كونه تجربة خاصة، وتتمنّى أن تغادرَ المستودعَ، الآن. أو تتمنى لو تصلّي هَي أيضاً، وتؤمنُ بإلهٍ ما، وترى الحضور المطلق للألوهة، في الهواء الكاسدِ للمتجرِ. لا تتذكّر متى لم تكن فكرتها عن الله غائمة، مثل صورة تعكسها مرآةُ الحمّام التي يحجبُها الغبشُ، بل لا تتذكّرُ ما إذا كانت قد حاولتْ أبداً أن تجلوَ المرآة.

تلمسُ سبّحةَ الإصبعِ التي ما تزالُ ترتديها، أحياناً في إصبع الخنصر، أو السبابة، من أجل أن تسعد أمّها. لم تعد نيدي ترتدي سبّحتها، قائلةً، ذات مرّة، بضحكةٍ تملأ حنجرتها: «السّبحات نوعٌ من الترياق السحري، وأنا لا أريدها، شكراً».

لاحقاً، ستقيم العائلةُ القداديس، مرةً بعد أخرى، من أجل العثور على نيدي في مكان آمن، لكنها لم تقمْ قدّاساً واحداً على راحة روحِها. وسوف تفكّر تشيكا بهذه المرأة، وهي تصلّي، ورأسها فوق الغبار، على الأرض، وسوف تغيّرُ رأيها حول إخبار والدتها بأنّ إقامة القداديس هدرٌ للمال، وبأنها مجرّدُ جمعٍ للتبرّعات لمصلحة الكنيسة.

حين تنهضُ المرأةُ، تشعر تشيكا بطاقة غريبة تسري في عروقها. أكثر من ثلاث ساعات مضت، وها هي تتخيّل أنّ الاضطرابات قد هدأت، والمتظاهرون تفرقوا. عليها أن تغادر، وتعود إلى البيت، وتتأكد من أن نيدي وعمتها بخير.

«ينبغي أن أذهب» تقول تشيكا.

من جديد، علاماتُ نفاد الصبر تظهرُ على وجه المرأة. «الخارجُ خطيرٌ».

«أظنّ أنهم تفرقوا. لا أشمّ حتى رائحة الدخان».

المرأة لا تقول شيئاً، وتعودُ لتجلس فوق دثارها. تراقبها تشيكا لبعض الوقت، وتشعر بخيبة أمل، من دون أن تعرف لماذا. ربّما تريد مباركةً من المرأة، أو شيئاً ما. «كم يبعدُ منزلكِ؟» تسألُ تشيكا.

«إنه بعيد جدّاً. عليّ أن أستقلّ باصين».

«إذن، سأعودُ، مع سائق عمتي، وأوصلكِ إلى المنزل» تقول تشيكا.

تشيح المرأةُ ببصرها بعيداً. تمشي تشيكا ببطء نحو النافذة، وتفتحُها على مصراعيها. تتوقع أن تسمع المرأة تطلبُ منها أن تتوقف، وتعودُ أدراجَها، وألا تتعجّل. لكن المرأة لم تقل شيئاً، وتشيكا تشعرُ بالنظرات الهادئة، خلف ظهرها، بينما راحت تتسلّقُ خارجةً من النافذة.

الشوارع صامتةٌ، والشمسُ على وشكِ الغروب، وفي غبشِ المساء، تنظرُ تشيكّا حولها، غير متأكّدة في أي جهة سوف تذهب. تصلّي بأن تمرّ سيارة أجرة، بفعل سحرٍ ما، أو حظّ ما، أو بقوة ربّانية ما. ثم تصلّي بأن تكون نيدي داخل سيارة الأجرة، وتسألها أين اختفت كلّ هذا الوقت، بحق الجحيم، وتقول لها إنّ الجميع شعر بالقلق عليها. لم تكن تشيكا قد وصلت إلى نهاية الشارع الثاني، باتجاه السوق، حتى رأت الجثة. لم ترمقْها، تقريباً، بنظرة، وتمشي بالقرب منها، وتقترب كثيراً باتجاهها، لكنّها تشعرُ بحرارتها. لا بدّ أن الجثة احترقت منذ وقتٍ قليلٍ فقط. الرائحة مقزّزة، رائحة اللّحم المشوي، ولم تشمّ مثيلاً لها من قبل.

لاحقاً، حين ستذهب تشيكا مع عمّتها للبحث عن نيدي في كلّ أرجاء «كانو»، برفقة شرطي، يجلسُ في المقعد الأمامي لسيارة العمّة، المزوّدة بجهاز تبريد، سترى بأمّ عينها جثثاً أخرى، مستلقيةً طولانياً، على طول أرصفة الشارع، ومعظمها تعرّض للحرق، كأنّ أحداً ما قام بدفعها، بكل عناية، إلى هناك، ومدّدها بتلك الطريقة. سوف تطيل التحديق بواحدة فقط من الجثث، التي بدت عارية، متيبّسة، بوجهٍ انكبّ أرضاً، وسوف تكتشفُ أنها لا تستطيع أن تخمّن ما إذا كان الرّجل المحروقُ، جزئياً، من إثنية إغبو أم هاوسا، أكان مسيحياً أم مسلماً، وهي تنظرُ إلى الجسدِ المشوّه. سوف تستمع إلى الأخبار على إذاعة البي بي سي، وتسمع وصفاً لأعمال القتل والاضطرابات، - «دينية يشوبها توتّر عرقي»، يقولُ الصّوتُ. وسوف ترمي جهاز الراديو باتجاه الحائط، وتعتريها نوبةُ غضبٍ حمراء سرتْ في أنحاء جسدها، متسائلةً كيف رُتبت التقارير وعُقّمت، لتناسب بضع كلمات فقط، حول كلّ هذه الجثث. ولكن، الآن، الحرارة المنبعثة من الجسد المحروق باتت قريبة جدّاً منها، حاضرة ودافئة، ما جعلها تعكس مسار سيرها، وتهرع، عائدةً، باتجاه المتجر. تصل إلى المتجر، وتدقّ بقبضتها على النافذة، وتثابرُ على الدقّ، حتى نهضت المرأةُ، وفتحت النافذة.

تجلسُ تشيكا على الأرض، وتنظرُ عن كثب، في الضوء الخافت، إلى خيط الدم، الذي يسيلُ من ساقها. عيناها تطفوان، بضراوة، في رأسها. يبدو دماً غريباً، هذا الذي يسيلُ، كأنّ أحدهم عفّر ساقها بمعجون البندورة.

«ساقك. ثمة دم يسيل» تقولُ المرأةُ، والقلقُ بادٍ على وجهها. تبلّل طرفَ شالها بماء الحنفية، وتنظّف الجرح فوق ساق تشيكا، ثم تربط الشال المبلّل حوله، وتعقدهُ حول الكاحل.

«شكراً» تقولُ تشيكا.

«تريدين الذهاب إلى التواليت؟».

«التواليت! كلاّ».

«الحاويات هنا، يمكن استخدامها كمراحيض» تقول المرأةُ. تأخذ واحدة من الحاويات إلى الزاوية الخلفية للمستودع، وسرعان ما تزكمُ الرائحةُ أنفَ تشيكا، ممزوجةً بروائح الغبار والماء الصدئ، ما يجعلها تشعرُ بالدوار، والتقيؤ. وتغمضُ عينيها.

«آسفة، آهٍ! وجعٌ في معدتي، جراء كلّ ما حدث اليوم» تقول المرأةُ من خلف ظهرها. فيما بعد، تفتحُ المرأةُ النافذة، وتضع الحاوية في الخارج، ثم تغسل يديها على الحنفية. تعودُ أدراجها، وتجلسُ، هي وتشيكا، جنباً إلى جنب، بصمتٍ مطبق. بعد وهلةٍ تسمعان هتافاتٍ غاضبةً، آتية من بعيد، كلمات لم تستطع تشيكا اكتناه مغزاها. كان المتجرُ يغرق في الظلام تقريباً، حين تمدّدت المرأةُ أرضاً، واضعةً الجزء الأعلى من جسدها فوق الدثار، والبقية الباقية فوق الغبار.

لاحقاً، سوف تقرأ تشيكا في جريدة الغارديان البريطانية أنّ «المسلمين الرجعيين، ممن يتحدّثون لغة هاوسا في الشمال، لديهم تاريخٌ من العنف تجاه الطوائف الأخرى من غير المسلمين»، وفي حمأة حزنها، ستتوقف عن تذكّر تلك الحادثة حين لمست الحلمتين، وجرّبت لطفَ المرأة، المسلمة، التي تنحدر من إثنية هاوسا.

لم يزر النومُ تشيكا، طوال الليل، إلاّ لماماً. النافذةُ أُغلقتْ بإحكام، والهواء ثقيلٌ، والغبارُ كثيفٌ وحادٌّ، يزحفُ نحو أنفها. لم تفارق مخيلتها، قطّ، صورة الجثة المحترقة، وهي تطفو في سديم الهواء، خلف النافذة، تشيرُ بإصبع الاتهام نحوها. أخيراً، سمعت المرأةُ تنهضُ، وتفتحُ النافذةَ، فتدخلُ الزرقةُ الشّاحبةُ لأوّلِ خيوطِ الفجر. تقفُ المرأةُ هناك، لبعض الوقت، قبل أن تتسلقَ، وتغادر المكان. تشيكا تسمعُ وقعَ الخطواتِ، وأناساً يمرون على الرصيف. تسمعُ المرأةُ تنادي بأعلى صوتها، كمن يتعرّفُ على شخصٍ ما، تبعه حديثٌ سريعٌ بلغة هاوسا، التي لا تفهمها تشيكا.

تعودُ المرأةُ أدراجها، متسلّقة النافذة. «الخطر انتهى. إنه آبو، بائع الخردوات. جاء ليتفقّد دكّانه. رجال الشرطة يتوزعون في كلّ مكان، ومعهم الغاز المسيل للدموع. وثمة جندي قادم. أريدُ أن أغادر، الآن، قبل أن يقوم هذا الجندي بإهانة أحدٍ ما».

تنهضُ تشيكا ببطء، وتبسط ذراعيها، وتشعرُ بوجع في مفاصلها. سوف تمشي، عائدةً إلى منزل عمتها، في المزرعة، خلف البوابة، لأنه لا سيارات أجرة في الشوارع الآن. هناك فقط سيارات جيب عسكرية، وعربات متهالكة، تابعة لقسم الشرطة. سوف تعثرُ على عمّتها، التي كانت تتجوّلُ من غرفةٍ إلى أخرى، حاملةً كأساً من الماء في يدها، مغمغمةً بحروف إغبو، مرّةً بعد أخرى، «لماذا طلبتُ منكِ ومن نيدي أن تأتيا لزيارتي؟ لماذا خانني حدْسي بهذه الطريقة؟» وتشيكا تمسكُ بكتفيّ عمّتها، وتقودُها إلى الأريكةِ في الصالون.

الآنَ، تفكُّ تشيكّا الشّالَ المربوطَ حول ساقها، وتنفضُهُ كأنّما لتتخلّص من بقع الدم فوقه، وتناوله إلى المرأة. «شكراً».

«اغسلي ساقكِ جيداً، جيّداً. وسلّمي على أختكِ، وأهلكِ» تقول المرأةُ، عاقدةً دثارَها حول خصرها بإحكام.

«سلّمي على أهلكِ أيضاً. وبلّغي تحياتي لطفلكِ ولابنتك حليمة» تقول تشيكا. لاحقاً، وفي طريق عودتها إلى البيت، سوف تلتقطُ حجراً،

ملطّخاً بالدم اليابس، وتحملُ التذكارَ المرعب قريباً من صدرها. وسوف ينتابها الشكّ، عندئذ، بأقلّ من لمحِ البرق، بينما كانت تقبض على الحجر، أنها لن تجد نيدي أبداً، وأَنَ أختها اختفت إلى الأبد. لكنها، الآن، تلتفتُ إلى المرأة، وتضيف، «هل يمكنني أن أحتفظَ بشالكِ؟ قد يبدأُ النزف من جديد».

تنظرُ المرأةُ لبضع ثوانٍ، كأنما لم تفهمْ، ثم تومئ برأسها. ثمة ملامح حزن وشيك على وجهها، لكنها تبتسم ابتسامةً خفيفةً، شاردةً، قبل أن تعيدَ الشال إلى تشيكا، وتتجهَ لتتسلّق النافذة وتغادر.

أشباح

اليومُ رأيتُ إكينا، الرجل الذي حسبتُ، منذ وقت طويل، أنه قد مات. ربّما كان يجب أن أنحني، وأغرف حفنةً من الرمل، وأرميها عليه، كما يفعلُ النّاس الذين أتحدّرُ منهم، كي يتأكّدوا من أنّه شخص ما وليس شبحاً. لكنني أنا رجل تلقّى تعليمه في الغرب، والآنَ، بروفسور رياضيات متقاعد، في سنّ الواحدة والسبعين، ومن المفترض أنني تسلّحتُ بما يكفي من العلم تجعلني أضحك، ملء شدقيّ، من طرائق وأعرافِ أهلي. لم أرمِ رملاً باتجاهه. ولم يكن بإمكاني أن أفعل حتى ولو كنتُ أرغبُ بذلكَ، في أي حال، بما أننا التقينا في البهو الأسمنتي لمحاسبة الجامعة.

كنتُ هناك، لأستفسر عن راتبي التقاعدي، مرّة أخرى. «طاب يومُك، بروفسور» قال كاتب المالية، يوغوكي، بسحنته الجافّة. «آسف، لم تأتِ النقود بعد».

الكاتب الآخر، الذي نسيتُ اسمه الآن، أومأ برأسه، وقدّم اعتذاره أيضاً، بينما كان يمضغ فلقةً بنّيةً من الجوز. لقد اعتادوا على ذلك. وأنا اعتدتُ على ذلك. وكذا حالُ الرجال المتحلّقين تحت شجرة اللّهب، ذات الزهور الحمراء، وهم يتحدثون بصوتٍ عالٍ فيما بينهم، ويؤشرون بأيديهم. وزير التربية سرق أموال التقاعد، أحد الأشخاص قال. وقال آخر، إنه نائب المستشار، الذي أودع النقود بفوائد عالية في حساباته الشخصية. وراحوا يلعنون نائب المستشار. ليت قضيبَه يجفّ، وأولادَه

لا ينجبون أولاداً، ويقضي نحبَه من الإسهال. حين مشيتُ باتجاههم، ألقوا عليّ التحية، وهزّوا رؤوسهم، آسفين، لما آلت إليه الحالُ، وكأنّ مستوى راتبي التقاعدي كأستاذ جامعي أكثر أهمية من مستوى الراتب التقاعدي للمراسل، أو الراتب التقاعدي للسائق. ينادونني البروفسور، مثلما يفعل معظم الناس، وكما فعل الباعةُ الجوّالون، الجالسون قريباً من صوانيهم، تحت الشجرة. «بروفسور! بروفسور! تعال واشتر موزاً فاخراً».

تبادلتُ أطراف الحديث مع فينسينت، سائقنا، حين كنت عميداً للكلّية، في فترة الثمانينيات. ولطالما نقل زوجتي، إيبير، ونقلني أنا، لزيارتها في كلّية الطب في إنوغو. أتذكّر، حين توفيت إيبير، أتى مع أقربائه لتقديم واجب العزاء، وألقى خطاباً مؤثراً، ومسهباً بعض الشيء، حول كيف كانت تعامله إيبير، أثناء عمله سائقاً لنا، وكيف أعطته الملابس العتيقة العائدة لابنتنا، كي يوزّعها على أطفاله.

«نكيرو على ما يرام» قلتُ.

«من فضلك، بلّغها تحياتي حين تتصلُ بكَ، بروفسور».

«سوف أفعل».

ثم أطال في الحديث قليلاً، عن بلادنا التي لم تتعلم كيف تقول شكراً، وعن الطلاب في السكن الجامعي، كيف أنهم لا يسددّون له في الموعد المحدّد لقاء خياطته لأحذيتهم. وما كان يلفت انتباهي أكثر من غيره في هذا الرجل هو تفاحة آدم، إذ كانت تبرز ناتئةً، بفجور، كأنها على وشك أن تخترق الجلد المتجعّد لعنقِهِ، وتخرجَ من مكانها. فينسينت أصغر مني سناً، ربما هو في أواخر الستينيات من العمر، لكنه يبدو هرماً أكثر. لم يبق لديه الكثير من شعر الرأس. ما زلتُ أتذكّر ثرثرته التي لا تنتهي حين كان ينقلني بالسيارة إلى مكان عملي، في تلك الأيام، كما أني أتذكر أيضاً أنه كان شغوفاً بقراءة جرائدي، وهذا تمرين لا أشجّعُ عليه كثيراً.

«بروفسور، ألن تشتري لنا الموز؟ الجوع يقتلنا» أحدُ الرجال المتجمهرين تحت شجرة اللّهب قال. وجههُ مألوفٌ، وأعتقد أنه يعمل

بستانياً لجارِنا، البروفسور إجير. نبرةُ صوته تشي بنصف المناكفة، ونصف الجدّية، لكنني اشتريت لهم الفستق، وبعض عناقيد الموز، رغم أنّ ما يحتاجه هؤلاء الرّجال، حقاً، هو كريم لتنعيم البشرة. وجوههم وأذرعهم تبدو كالرّماد. إننا في شهر آذار، تقريباً، لكنّ الطقس الصحراوي لم يبرح بعدُ هذه الأنحاء: الرياح الجافة، ونتف الرّمل فوق ملابسي، والغبار فوق رموشي. وقد وضعتُ مطرّياً للجلدِ أكثر من المعتاد، هذا اليوم، وكريم فاسلين على شفتيّ، رغم ذلك ظلّ الجفافُ سبباً في جعلِ وجهي ويديّ موبوءة بالخشونة.

ولطالما كنتُ أسمعُ المناكفة من زوجتي، إيبير، لأنني لم أكن أضع الكريم بالشكل المناسب، وبخاصة في موسم الجفاف، وأحياناً، بعد حمّامي الصباحي، فكانت، بكل هدوء، تفرك ذراعيّ، وساقي، وظهري، بكريم النيفيا. ينبغي أن نعتني بهذه البشرة الجميلة، كانت تقولُ، ضاحكةً ضحكتَها اللّعوب. كانت دائماً تقول إنّ بشرتي هي الفيصل التي جعلتها تقبل بالزّواج مني، بما أنني لم أكن أملك المال، كمثل أولئك العرسان الآخرين، الذين لطالما طرقوا باب شقّتها، زرافات، زرافات، في شارع إلياس، في عام 1961: «صافية» لا تشوبها شائبة، هكذا كانت تصف بشرتي. والحق أنني لم أكن أرى شيئاً فريداً بالضرورة في ذاك اللّون البنّي الدّاكن، لكنني اعتدتُ، مع السنين، الاعتناء بهندامي، بفضلِ زوجتي إيبير، وأناملها الناعمة.

«شكراً، بروفسور!» قال الرجال، ثم بدأوا يتهكمون بعضهم على بعض، حول من سيقوم بتقسيم الحصص.

وقفتُ جانباً، ورحتُ أُصغي لحديثهم. كنتُ مدركاً أنهم كان يتكلمون باحترامٍ أكبر لأنني كنتُ حاضراً بينهم: مهنة النجارة لا تمرّ بأحسن أيامها، والأولاد مرضى، والكثير من مشكلات اقتراض النقود. لكنهم غالباً ما كانوا يضحكون. بالطبع كانوا يخفون الكثير من الحنق، ومعهم كلّ الحق في ذلك، لكن الغضب، بشكلٍ أو بآخر، لم يكسرْ معنوياتهم.

وكنتُ أتساءلُ، بيني وبين نفسي، هل كنتُ سأفعلُ مثلهم، لو لم أوفّر المال من التعيينات التي شغلتها، لدى المكتب الفيدرالي للإحصاء، ولو لم تصرّ نكيرو على إرسالها الدولارات التي لم أكنْ أحتاجها. أشكّ في هذا. ربمّا كنتُ سأبدو مقوّس الظهر، كالسلحفاة داخل صدفتها، وأسمحُ لكرامتي بأن تُهدَرَ أمام عيني.

أخيراً، قلتُ لهم وداعاً، ومشيتُ باتجاه سيارتي، التي أوقفتُها بالقرب من أشجار الصنوبر، التي تصفرُ في الريح، والتي تفصلُ، كالدرع، كلّية التربية عن قسم المحاسبة. تلك هي اللحظة التي رأيتُ فيها إكينا أوكورو.

وكان هو الذي ناداني أولاً، «جيمس؟ جيمس نوي، أهذا هو أنت؟» وقف شاغراً فاه، وكدتُ ألمح أن أسنانه مازالت كاملة، ولم يفقد منها شيئاً. فقدتُ سنّاً العام الماضي. رفضتُ ما كانت تسمّيه نكيرو «عملاً» وتنتهي من السنّ، لكنني، مع ذلك، شعرتُ ببعض الامتعاض، لرؤية أسنان إكينا كاملة.

«إكينا؟ إكينا أوكورو؟» سألتُ بطريقة ملغزة توحي بأن شيئاً ما لا يمكن أن يكون: عودةُ رجلٍ إلى الحياة كان قد مات قبل سبعة وثلاثين عاماً.

«نعم، نعم» اقترب إكينا مني أكثر، متردّداً. تصافحنا بالأيدي، وتعانقنا لبرهة وجيزة.

لم نكن على صداقة وطيدة، أنا وإكينا، لكنني كنتُ أعرفه جيداً، في تلك الأيام، لأنّ الجميع كانوا يعرفونه جيداً. إذ عندما أعلن نائبُ المستشار الجديد، وهو رجلٌ نيجيريٌّ، تربى في إنكلترا، أنّ جميع المحاضرين ينبغي أن يرتدوا ربطات عنق في الصفّ، هذا الرجل، إكينا، تحدّاهُ، وأصرّ على أن يرتدي سترته القصيرة، ذات الألوان الفاقعة. إنه هو الذَي صعد إلى المنبر، في نادي المعلمين، وظلّ يتكلم حتى بُحّ صوته، عن ضرورة تقديم عريضة للحكومة بخصوص توفير ظروف أفضل للمحاضرين من خارج السلك الأكاديمي. كان يحاضر في قسم علم الاجتماع، وعلى الرغم من أنّ معظمنا في قسم العلوم الصرفة كنا نعتقد

أن جماعة العلوم الاجتماعية ليسوا سوى أوانٍ فارغة، يملكون الكثير من الوقت، بين أيديهم، ويؤلفون كتباً غير قابلة للقراءة، لكننا رأينا إكينا على نحوٍ مختلف. سامحناه على أسلوبه المسهب، ولم نهمل منشوراته، بل أثارت إعجابنا حدّته الرّصينة، المصاحبة لتحليلاته المتّقدة. إنه لا يزال الشخص القصير، المنكمش، نفسه، بعينين كعيون الضفادع، وبشرته الفاتحة، التي أضحت الآن، مشوّشة اللون، تتخللها بقعٌ بنّيةٌ، دالّةٌ على التقدّم في السنّ. من كان يسمع به، في تلك الأيام، كان يصعب عليه أن يخفي خيبة أمله الكبيرة، لدى رؤيته بالعين المجردة، لأنّ عمق خطابه كان يتطلّبُ وسامةً من نوعٍ ما. ولكن، وكما يقولُ أهلُ بلدي، الحيوانُ المشهورُ لا يملأ دائماً سلّةَ الصياد.

«أنتَ على قيد الحياة؟» سألتهُ. كنتُ أرتجفُ حقاً. عائلتي وأنا رأيناه في اليوم الذي مات فيه، في السادس من تموز، 1997، اليوم الذي أخلينا فيه نسوكّا، على عجل، بينما كانت الشمس لهباً أحمر في السماء، وفي الجوار هديرُ القصف، أثناء تقدم الجنود الفيدراليون. كنا داخل سيارتي، حين سمحتْ لنا الميليشيات بالعبور عبر بوابات حرم الجامعة، وصاحوا بأعلى صوتهم أنه يجب أن لا نقلق، لأنّ المخربين- مثلما كنا نسمّي الجنود الفيدراليين- في طريقهم إلى هزيمة منكرة خلال أيام، وعندئذ يمكننا العودة. القرويون المحليون، وهم الأشخاص أنفسهم الذين سيفتشون عن الطعام في حاويات الأساتذة، بعد الحرب، كانوا أيضاً يتابعون السير، المئات منهم، نسوة بصناديق على رؤوسهنّ، وأطفال موثوقون إلى ظهورهنّ، وأطفال حفاة يحملون صرراً، ورجال يجرون دراجات هوائية، حاملين بطاطا اليامّ الكبيرة. أتذكّر أنّ زوجتي، إيبير، كانت تواسي ابنتنا، زيك، بخصوص اللعبة التي تركتها في المنزل، لأننا كنا على عجل، حين رأينا سيارة إكينا الخضراء، من ماركة كاديت. كان يقودها عكس السير، عائداً إلى حرم الجامعة. أطلقتُ له الزمّور، وتوقّفتُ. «لا يمكنكَ أن تعود أدراجك» ناديتُ. لكنه لوّح بيده، وقال، «ينبغي أن أُحضِرَ

بعض المخطوطات» أو ربما قال «ينبغي أن أُحضر بعض الموادّ». اعتبرتُ عودته نوعاً من العناد، لأنّ أصوات القصف بدت قريبة، ولأنّ قواتنا ستدحرُ المخربين، وتردّهم على أعقابهم، خلال أسبوع أو أسبوعين، في كلّ الأحوال. ولكنني، أيضاً، كنتُ ممتلئاً بمتانتنا الجمعية، وبعدالة قضية بيافرا، ولذا لم أفكّر أكثر بالأمر، حتى وصلت الأخبارُ بأنّ نسوكّا سقطت، في اليوم نفسه الذي أخلينا فيه المكان، وتم احتلال الجامعة. حاملُ هذه الأخبار، وهو أحد أقارب البروفسور، إزيكي، أخبرنا بأنّ محاضرين اثنين قُتلا. أحدهم كان يتجادلُ مع الجنود الفيدراليين، قبل أن يطلقوا النار عليه. ولم نكن نحتاج أن يخبرنا أحدٌ بأنه إكينا.

ضحك إكينا من سؤالي. «نعم، أنا على قيد الحياة!» بدا وكأنه وجد إجابته مضحكةً أكثر، لأنّه ضحكَ من جديد. حتى ضحكته، الآن، وأنا أفكر بها، بدتْ لي بلا لون، وجوفاء، لا تشبه في شيء تلك النبرة الحاسمة التي كان يتردّدُ صداها فوق نادي المعلمين، في تلك الأيام، حين كان يؤنب أولئك الذين لا يتفقون معه في الرأي.

«لكنّنا رأيناك» قلتُ. «هل تتذكّرُ؟ اليوم الذي أخلينا فيه الجامعة.»

«نعم» قال.

«قالوا إنك لم تخرجْ حياً».

«بل خرجتُ» أومأ برأسه. «خرجتُ. وغادرتُ بيافرا في الشهر التالي».

«غادرت؟» أمرٌ لا يصدق، ما أحسستُ به اليوم. لعلّه بريق خاطف من الاشمئزاز الذي ينتابنا حين كنا نسمعُ بالمخرّبين - كنا نسمّيهم باسمهم المختصر- الذين خانوا جنودنا، وقضيتنا العادلة، وأمتنا الناشئة، مقابل عبور آمن نحو نيجيريا، إلى حيث الملح واللحم والماء البارد، التي حرَمَنا منها الحصار.

«كلاّ، كلاّ، ليس الأمر كذلك، ليس كما تظنّ» ثم سكت إكينا، ولاحظت أن قميصه البني مثنيٌّ عند الكتف. «ذهبتُ إلى الخارج على متن طائرة

للصليب الأحمر، إلى السويد.» كانت ثمة هالة من الغموض تحيط به، وعدم ثقة بالنفس، غريبة على شخص مثله، من السهل عليه حثّ الناس للقيام بفعلٍ ما. أتذكّر كيف قام بتنظيم أول تظاهرة بعد أن أُعلنت بيافرا دولة مستقلّة، حيث تجمهرنا جميعاً في ساحة الحرية، بينما كان صوت إكينا يلعلعُ في الفضاء، وصفّقنا وهتفنا، قائلين «استقلال سعيد!».

«ذهبتَ إلى السويد؟».

«نعم».

لم يقل شيئاً آخر. وأدركتُ أنه لن يقول لي المزيد، وأنه لن يخبرني كيف غادر حرم الجامعة، حياً، وكيف انتهى به المطاف على متن تلك الطائرة. كنتُ أعلم بأمر الأطفال الذين نُقلوا جواً إلى الغابون، لاحقاً، خلال الحرب، ولكن بالتأكيد لم أسمع بأناس نُقلوا على متن طائرات الصليب الأحمر، وفي هكذا وقتٍ مبكر، بتلك الطريقة. وساد بيننا صمتٌ لا يخلو من التوتّر.

«وهل مكثْتَ كلّ هذا الوقت في السّويد؟» سألتُ.

«نعم. جميع أفراد عائلتي كانوا في أورلو حين قاموا بقصفها جواً. لم ينجُ منهم أحد، وبالتالي لم يكن يوجد سببٌ أمامي لي للعودة.» توقّفَ، ليسمحَ لصوتٍ خشنٍ بالتحليق، يُفترض أنه ضحكةٌ، لكنه خرج، في شكل سلسلةٍ من السعال. «ظللتُ على اتصالٍ مع الدكتور أنايا لبعض الوقت. أخبرني عن أمر إعادة جامعتنا، وقال أيضاً، على ما أعتقد، إنك ذهبتَ إلى أمريكا، بعد الحرب».

في الحقيقة، عدتُ أنا وإيبير إلى نسوكّا، حالاً، بعد انتهاء الحرب، عام 1970، ولكن فقط لبضعة أيام. كانت الظروف أقوى منا، ولم نستطع التحمّل. وجدنا كتبنا مكدسة في أكوام ممزقة، أمام الحديقة العامة، تحت شجرة المظلة. ورأينا كتل الغائط الراكدة في حوض الحمام، مرمية مع صفحات من كتابي «حوليات رياضية»، بعد أن استُخدمت كورق تواليت، تعلوها بقعٌ دبقة تحجبُ المعادلات التي درستُها

وعلّمتُها لطلابي. البيانو- بيانو إيبير – سُرق. ملابس التخرج، التي كنت قد ارتديتها للحصول على أول شهادة لي في إيبادان، اسُتخدمت لمسح شيءٍ ما، والآن وجدناها مرميةً على الأرض، والنمل يزحفُ فوقها، ذهاباً وإياباً، غير عابئ بي، وأنا أراقبُ حركته. وبالتالي غادرنا إلى أمريكا، ولم نرجع حتى عام 1976. تم تخصيصُ بيتٍ آخر لنا، في شارع إزينويز، ومرّ وقت طويل، تجنبنا فيه قيادة السيارة، عبر شارع إيموك، لأننا لم نكن نريد أن نشاهد البيت القديم، ثم علمنا فيما بعد أن الناس الجدد الذين سكنوا المنزل قطعوا شجرة المظلة الوارفة. أخبرتُ إكينا بكلّ هذا، رغم أنني لم أذكر شيئاً عن الوقت الذي أمضيناه في بيركلي، بعد أنّ رتب صديقي الأمريكي الأسود، تشاك بيل، أمر تعييني في هيئة التدريس. ظلّ إكينا صامتاً لبعض الوقت، ثم قال، «كيف حالُ ابنتك الصغيرة، زيك؟ لابدّ أنها أصبحت امرأةً، في سنّ النضج، الآن».

كان دائماً يصرّ على أن يشتري عصير الفانتا لابنتنا، زيك، حين كنّا نأخذها معنا إلى نادي المعلمين، بمناسبة يوم العائلة، لأنها، كما كان يقول، أجمل الطفلات التي رآها. لكن السبب، في الواقع، كما أحسبُ، هي أننا أسميناها على اسم رئيسنا، وإكينا كان من المناصرين الأوائل لزيك، قبل أن أعلن أن الحركة وديعةٌ جداً، وقرر المغادرة.

«الحرب أخذت زيك» قلتُ بلغةِ إغبو. الحديث عن الموت بالإنكليزية كان دائماً له وقعُ النهايات، بالنسبة لي.

تنهّد إكينا بعمق، ولكن كان كلّ ما قاله هو «آسف». وقد شعرتُ بالارتياح لأنه لم يسألني كيف – لا توجد الكثير من كلمات «كيف»، في أي حال– ولم يظهر على أساريره ما يدلّ على أنه قد صُدم، بغتةً، وكأن ميتات الحرب ليست سوى حوادث بالصدفة، دائماً وأبداً.

«رزقنا بطفلة أخرى، بعد الحرب، ابنة أخرى» قلتُ.

لكنّ إكينا كان يتحدّث رشّاً. «فعلتُ ما استطعتُ» قال. «أجل، فعلتُ. تركتُ الصليب الأحمر الدولي. كان يعجّ بالجبناء الذين لا يأبهون

بالدفاع عن البشر. انحنوا أمام العاصفة، منذ أن تم إسقاط تلك الطائرة في إكيت، وكأنهم لم يكونوا يعرفون أن هذا بالضبط ما كان يريده غوون. لكنّ المجلس العالمي للكنائس استمرّ بإرسال المساعدات الجوية عبر «أولي». ليلاً! كنت هناك في أبسالا حين عقدوا اجتماعهم. كانت هي العملية الأكبر، التي قاموا بها، منذ الحرب العالمية الثانية. نظمتُ عملية جمع التبرعات. ونظمتُ تظاهرات بيافران، عبر جميع العواصم الأوروبية. سمعتَ بالتظاهرة الأكبر في ساحة جبل طارق. كان لي اليد العليا في كلّ شيء. فعلتُ ما استطعت».

لم أكن متأكداً أن إكينا كان يتحدّثُ إليّ. لعلّ ما قاله كان قد قاله، مراراً وتكراراً، لأناسٍ آخرين. نظرتُ باتجاه شجرةِ اللّهب. كان الرجال ما يزالون يتجمهرون، هناك، لكنني لم أستطع أن أتبيّن ما إذا كانوا قد التهموا الموز والفستق. ربّما، في تلك اللحظة، بدأت أشعرُ بأن حنيناً غامضاً بدأ يجتاحني. شعورٌ ما زال لم يفارقني.

«كريس أوكيغبو، مات، أليس كذلك؟» سأل إكينا، وجعلني أركّز، من جديد. للحظة، تساءلتُ ما إذا كان يريدني أن أنفي ذلك، وأن أجعل من أوكيغبو شبحاً عائداً، أيضاً. لكن أوكيغبوا مات، الحقيقيّ بيننا مات، نجمنا، والرّجل الذي أثر شعره فينا جميعاً، حتى أولئك الذي يدرسون العلوم ولا يفهمون الشعر دائماً.

«نعم، الحربُ أخذتْ أوكيغبو.»

«خسرنا صرحاً في طور التشكّل.»

«هذا صحيح، لكنه، على الأقـل، كان شجاعاً بما يكفي لكي يحارب.» ما إن تفوهتُ بهذه الكلمات، شعرتُ بالنّدم، على الفور. لقد عنيتُ التعبير عن العرفان لكريس أوكيغبو، الذي كان بوسعه أن يعمل في إحدى المديريات، تماماً مثلنا جميعاً، نحن أهل الجامعات، لكنه، عوضاً عن ذلك، حمل البندقية، للدفاع عن نسوكّا. لم أكن أريد لإكينا أن يسيء فهم ما قصدته، وتساءلتُ ما إذا كان عليّ أن أعتذر. هبّةُ غبار

صغيرة تتجمعُ على الطريق. شجرُ الصنوبر يصفرُ، متمايلاً فوقنا، والريحُ تكنسُ الأوراق الجافة عن الأشجار أبعد، فأبعد. وبسبب شعوري بعدم الارتياح، ربّما، بدأتُ أخبر إكينا عن اليوم الذي عدتُ فيه، أنا وإيبير، إلى نسوكا، بعد أن وضعت الحربُ أوزارها، وعن أفقٍ من الأطلال، والسقوف المنسوفة، وعن البيوت المدروزة بالثقوب، التي قالت عنها إيبير إنها تشبه الجبنةَ السويسرية. حين وصلنا الطريق التي تعبر وسط آغوليري، أوقفنا جنودُ بيافرا، ووضعوا جندياً جريحاً، معنا، في السيارة. ظلّ دمه ينزف على المقعد الخلفي، وبسبب شقٍّ صغيرٍ في البطانة، تغلغل أعمق إلى الحشوات الداخلية، وانصهر مع أحشاء السيارة في الدّاخل. إنه دمُ شخصٍ غريب. لا أعرفُ لماذا اخترتُ هذه القصة بالذات لأسردها لإكينا، لأنني دائماً تخيّلتُ أنّ الجنود الفيدراليين أطلقوا عليه النار، وتركوه ليموت. تركوا دمه يبقّع التراب.

هذا ليس صحيحاً. أنا لم أتخيل شيئاً من هذا القبيل، ولم يكن ذاك الجندي الجريح يذكرني بإكينا. وإذا ظنّ أن قصتي غريبة، فإنه لم يقل هذا جهراً. أومأ برأسه وقال، «سمعتُ قصصاً عديدة، وعديدة».

«كيف هي الحياة في السويد؟» سألتُ.

هزّ كتفيه. «تقاعدتُ العام الماضي. وقررتُ العودة لأرى ما سيحدث». قال «أرى» كأنما عنى شيئاً أكثر مما تستطيع عيناهُ أن تقولاه.

«ماذا عن عائلتك؟» سألتُ.

«لم أتزوج، ثانيةً، أبداً».

«أوه» قلتُ.

«كيف حالُ زوجتك؟ نينّا، أليس كذلك؟» سأل إكينا.

«إيبير».

«أوه، بالطبع، إيبير. يا لها من امرأة طيبة».

«إيبير لم تعد معنا. حدث هذا منذ ثلاث سنوات». قلتُ بلغة إغبو.

وأصابتني الدهشة حين رأيتُ عيني إكينا تغرورقان بالدموع. كان قد نسي اسمها، ومع ذلك، كان قادراً، بشكل أو بآخر، أن ينعى فراقها، أو، ربّما، كان ينعى زمناً حافلاً بالاحتمالات. إكينا، مثلما كنتُ أدركُ، كان الرّجل الذي يحملُ معه ثقل ما يمكن أن يكون.

«آسف لسماع هذا. آسف جداً».

«لابأس»، قلتُ. «وهي تزورني».

«ماذا؟» سأل بنظرةٍ مرتبكة، مع أنه، بالطبع، سمع ما أقول.

«تزورني. إنها تزورني».

«فهمت» قال إكينا، بتلك النبرة المطمئنة التي يحتفظ بها البعض للمجانين.

«أقصد، زارت أمريكا أكثر من مرة، وابنتنا تعمل طبيبة هناك».

«أوه، أهذا صحيح؟» سألَ إكينا مبتسماً، وبدت عليه علامات الارتياح. أنا لا ألومه. إننا، نحن المثقفين، تعلّمنا أن نبقي التخوم التي تفصلنا عما هو حقيقي، واضحة وصارمة. كنتُ مثله تماماً، إلى أن قامت إيبير بزيارتها الأولى، بعد مرور ثلاثة أسابيع على جنازتها. كانت نكيرو قد عادت لتوها، مع ابنها، إلى أمريكا. وبقيتُ وحدي. حين سمعتُ الباب، أسفل الدرج، يُغلقُ، ثم يُفتح، ثم يُغلقُ، من جديد، لم أعره أي اهتمام. ريح المساء تفعلُ هذا دائماً. ولكني لم أسمع خشخشة الأوراق، خارج نافذة غرفة النوم، ولا الحفيف الناعم لشجر الكاجو والبطم. علاوة على ذلك، لم تكن ثمة ريح تهبّ في الخارج. مع ذلك، الباب أسفل الدرج، ينفتح وينغلق من تلقائه. وأنا أتذكر الآن، أشكّ، الآن، أنني كنتُ خائفاً، كما ينبغي أن أكون. سمعتُ وقع الخطوات على الدرج، تماماً بالإيقاع نفسه الذي تمشي فيه إيبير، ودائماً أثقل مع كلّ درجة ثالثة. أنا أستلقي هادئاً، ساكناً، في ظلام غرفتنا. ثم أشعرُ بأنّ شرشف سريري يُسحب إلى الخلف، وأنّ يدين تمسّدان بلطفٍ ذراعيّ

وساقيّ وصدري، وشعرت بتلك الطراوة المنعشة لكريم البشرة، ومن ثم اجتاحني نعاسٌ حلوٌ- نعاسٌ ما زلتُ لم أستطعْ مقاومته كلّما قامت بزيارة لي. استيقظتُ، مثلما أفعلُ دائماً، مع كلّ زيارة لها، لأشعر ببشرتي، ناعمةً، فوّاحةً بكريم النيفيا.

أريدُ أحياناً أن أخبر نكيرو بأنّ والدتها تزورني أسبوعياً في موسم الخماسين الصحراوي، وتقلّ زياراتها في الفصل الماطر، ولكن، إذا فعلتُ هذا، فإنها ستجد سبباً، في النهاية، لأن تأتي إلى هنا، وتصحبني معها، كالحقيبة، إلى أمريكا، وسوف أُجبَرُ على أن أعيش حياةً، مقنّنةً، تشوبُها الرّصانة التي أراها عقيمة. حياة معفّرة بما نسميه «الفرص». حياة ليست لي. وأتساءلُ ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا ربحنا الحرب عام 1967. ربّما ما كنّا سننظر إلى ما وراء البحار، بحثاً عن تلك الفرص، وما كنتُ أحتاج لأقلق على حفيدنا، الذي لا يتحدّث لغة إغبو، والذي، اثناء زيارته الأخيرة، لم يستطع أن يفهم لماذا عليه أن يقول «طابت ظهيرتك» للغرباء، ذلك أنه، في عالمه، ينبغي على المرء أن يبرّر تلك الكياسة. ولكن من بمقدوره أن يتوقع؟ ربما ما كان سيتغيّر شيء، حتى لو ربحنا.

«كيف حال ابنتك في أمريكا؟» سأل إكينا.

«إنها تتدبّر أمورها بشكل جيّد جدّاً».

«قلتَ لي إنها طبيبة».

«نعم». شعرتُ أن إكينا يستحقّ أن أخبره المزيد، أو ربما أن التوتر الناتج عن تعليقي الأول لم يكن قد خفّ وقعه نهائياً، فرأيتُ نفسي أقول، «تعيش في بلدة صغيرة في كونيتيكت، قرب رود آيلاند. نشرتْ لوحةَ إعلانات المشفى إعلاناً عن حاجتها لطبيب، وحين أتت، ألقوا نظرة واحدة على شهادتها الطبية، من نيجيريا، وقالوا إنهم لا يحتاجون أجنبياً. لكنها مولودة في أمريكا - كما تعلم، فقد رزقنا بها أثناء إقامتنا في بيركلي، إذ كنتُ أعطي الدروس هناك، بعد ذهابنا إلى أمريكا بعد الحرب- وبالتالي لم يكن أمامهم خيار سوى أن يتركوها تبقى». ضحكتُ، وأملتُ أن

يضحك إكينا، معي، لكنه لم يفعل. راح ينظر باتجاه الرجال المتجمهرين تحت شجرة اللهب، وعلى محياه مسحة من الرزانة.

«آه، نعم. على الأقل ليس الوضعُ سيئاً الآن مثلما كان بالنسبة لنا. هل تتذكّر ماذا كان يعني الذهاب للدراسة في أرض الفرنجة، في أواخر الخمسينيات؟» سأل.

وافقته، بهزة من رأسي، لأظهر له أني أتذكر، على الرغم من أن إكينا وأنا لم نمر بالتجربة نفسها كطلاّب في الخارج، فهو درس في أكسفورد، وأنا واحدٌ من أولئك الذين حصلوا على منحة صندوق الكلّية للزنوج المتحدين، لكي أدرس في أمريكا.

«نادي المعلمين ليس سوى قشرة لما كان عليه في الماضي» قال إكينا. «ذهبت إلى هناك هذا الصباح».

«لم أذهب إلى هناك منذ وقت طويل. حتى قبل أن أتقاعد، وصلتُ إلى مرحلة شعرت فيها أنني تقدمت في السنّ، وأن مكاني ليس هناك. هؤلاء الأغرار جهلةٌ تماماً. لا أحد يعلّم. لا أحد يملك أفكاراً جديدة. إنها سياسة، سياسة، سياسة، الجامعة، بينما الطلاب يشترون علاماتهم بالمال، أو بأجسادهم».

«أهذا صحيح حقاً؟».

«أوه، أجل. لقد تدهورت الأمورُ. اجتماعات مجلس الشيوخ أضحت معارك وهمية لإبراز الشّخصية. هذا مرعبٌ. هل تتذكر جوزيفات يودينا؟».

«الراقص العظيم؟».

لبرهة، شعرتُ بالصدمة، فقد مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن فكّرت بجوزيفات، بما أنه كان، في تلك الأيام، قبل الحرب، أمهر الراقصين لدينا في الجامعة، وبما لا يُضاهى. «نعم، نعم، كان كذلك» قلتُ، وشعرتُ بالامتنان لأن ذكريات إكينا، تجمّدتْ، عند لحظة من الزّمن، كنتُ ما أزال أرى جوزيفات رجلاً صاحب مصداقية. «جوزيفات شغل

منصب نائب المستشار، لمدّة ست سنوات، أدار فيها الجامعة كأنها قنّ لصيصان أبيه. الأموال اختفت، وبدأنا نرى سيارات جديدة، تحمل أسماء مؤسسات أجنبية، غير موجودة. بعض الناس ذهبوا إلى المحكمة، ولكن لم يسفر هذا عن أي شيء. كان يقرّر من يستحق الترفيع، ومن يستحق التجميد. باختصار، تصرف الرجل كمجلس جامعي منفرد. هذا النائب الجديد يقتفي خطاه، بأمانة كبيرة.لم أقبض راتبي التقاعدي منذ أن تقاعدت، كما ترى. لقد أتيتُ للتوّ من قسم المحاسبة».

«ولماذا لا يتكلم أحد عن الموضوع؟ لماذا؟» سال إكينا، وللحظة وجيزة من الزمن، شعرت بإكينا القديم، هناك، بصوته، وشجاعته، وغضبه، ثم تذكرتُ أيضاً أن هذا الرّجل جسورٌ. ربمّا سوف يمشي ويرفع قبضته، ضارباً، تلك الشجرة القريبة.

«حسناً»-هززتُ كتفيّ-»العديد من المحاضرين يبدلون تواريخ ميلادهم الرسمية. يذهبون إلى قسم الأحوال الشخصية، ويقدمون الرشوة لأحدهم، ويضيفون خمس سنوات أخرى. لا أحد يريدُ أن يتقاعد».

«هذا لا يجوز. لا يجوز أبداً».

«الأمر منتشر في كلّ أنحاء البلاد، في الحقيقة، ليس هنا فقط». أهزّ رأسي بذاك الإيقاع البطيء، المضبوط، يميناً وشمالاً، الذي تعوّد أهلُ بلدي اتقانه حين يشيرون إلى أمور من هذا القبيل، وكأنما يريدون أن يقولوا إنّ الحالة، لسوء الحظ، ميئوس منها.

«أجل، المعايير تتهاوى في كل مكان. كنت أقرأ للتوّ عن الدواء المغِشوش. بيع الدواء الذي انتهت فاعليته هو من أحدث الآفات التي تجتاح بلدنا، ولم لم تمت إيبير بالطريقة التي ماتت بها، لوجدتُ هذا مقاطعةً عاديةً في المحادثة. لكنني كنتُ أشكّ، منذ اللحظة الأولى. ربما سمع إكينا كيف رقدت إيبير في المشفى، وبدأت صحتها تتدهور، شيئاً فشيئاً، وكيف احتار أطباؤها، لأنها لا تظهرُ أي تحسّن، بعد تناولها

الدواء، وكيف كنتُ مصعوقاً، وكيف أننا لم نعرف، إلا بعد فوات الأوان، أنّ الدواء الذي كانت تأخذه كان عديم الفائدة. ربما أرادني إكينا أن أتطرق إلى كلّ هذا، وأن أعبر عن بعض الجنون الذي كان قد لمحه فيّ آنفاً.

«الدواء المغشوش أمرٌ رهيب»، قلتُ بحزن شديد، مصمّماً على أن لا أقول المزيد. لكنني قد أكون مخطئاً بخصوص موقف إكينا، لأنه لم يتابع الموضوع إلى النهاية. بل اكتفى بالنظر إلى الرجال تحت شجرة اللهب، وقال، «حسناً، ماذا تفعل هذه الأيام؟» لقد بدا فضولياً بالنسبة لي، كأنما كان يتساءلُ عن نوع الحياة التي أحياها هنا، وحيداً، في حرم جامعة ليست سوى هيكل عظمي مقارنةً بما كانت عليه في السابق، منتظراً راتباً تقاعدياً لا يأتي أبداً. ابتسمتُ وقلتُ له إنني أرتاح. أليس هذا ما يفعله المرء بعد التقاعد؟ ألا نسمي التقاعد بلغة إغبو «راحة الشيخوخة»؟

أحياناً، أمرّ، كي أزور أحد أصدقائي القدامى، البروفسور مادوي. أو أتسكّع في أرجاء الملعب المغبرّ لساحة الحرية، بأشجار المانغا التي تحيط بها كالسوار. أو أذهب إلى شارع إكيجياني، حيث الدراجات الهوائية تعبر مسرعةً، والطلاّب يقودونها، متلاصقين، الواحد بالآخر، ربما ليتجنّبوا الأخاديد. في الفصل الماطر، حين أكتشفُ مجرىً جديداً حفرته الأمطار في التربة، أشعرُ بغبطة الإنجاز. أقرا الصحف اليومية. آكل بشكل جيّد، وشغّالُ المنزل، هاريسون، يأتي خمسة أيام في الأسبوع، والحساءُ الذي يُحضرهُ لا مثيل له. أتحدث إلى ابنتنا، بشكل منتظم، وحين يتعطل هاتفي بين الأسبوع والأسبوع، أهرع إلى شركة «نايتيل» وأرشو أحدهم ليقوم بإعادة الخدمة. أنبشُ المجلات القديمة، القديمة، في مكتبي المبعثر الذي تعلوه الغبار. أشمّ أريجَ شجرِ البطم، الذي يفصلُ منزلي عن منزل البروفسور أيجير- العطرُ الذي ينعش كالدواء، رغم أنني لم أعد متأكداً أي نوعٍ من الأمراض يمكن أن يداوي. لا أذهبُ إلى الكنيسة، وقد توقّفتُ منذ أن قامت إيبير بزيارتها الأولى، لأنني، عندئذٍ، قطعتُ الشكّ باليقين. عدمُ ثقتنا بعالم ما بعد الموت هو ما يقودنا

إلى التفكير بالدين. هكذا، في أيام الآحاد، أجلسُ على الشرفة، وأرقبُ الطيورَ الجوارحَ، تحطُّ على سطحي، وأتخيّلها تنظر نحو الأسفل بكثير من الفضول.

«أهي حياة جميلة، يا أبي؟» نكيرو اعتادت أن تسأل، في الآونة الأخيرة، على الهاتف، بتلك النبرة الأمريكية، الخافتة، والبعيدة. إنها ليست جيدة أو سيئة، أقولُ لها، إنها ببساطة حياتي. وهذا ما يهمّ، في كلّ حال.

زوبعةُ غبارٍ أخرى تهبّ، وكلانا يرمش بسرعة لكي يحمي عينيه، ما جعلني أسألُ إكينا بأن يأتي معي إلى منزلي، وبالتالي يكون بمقدورنا أن نجلس، ونتحدث براحةٍ أكبر، لكنه قال إنه في طريقه إلى إنوغو، وحين سألته هل يعدني بزيارة، لاحقاً، قام بحركة غامضة بيديه أوحت لي بالموافقة. مع ذلك، كنتُ أعرف أنه لن يأتي. ولن أراه ثانيةً. راقبته يبتعد بخطواته، هذا اللبّ الجافّ لما تبقّى من إنسانٍ، وأنا قدتُ سيارتي، عائداً إلى البيت، متأملاً حيواتٍ أخرى كان يمكن أن نحياها، وحيواتٍ عشناها للتوّ، نحن الذين كنا نزور نادي المعلمين، في تلك الأيام الجميلة، قبل الحرب. قدتُ سيارتي ببطْءٍ، بسبب سائقي الدراجات الهوائية، الذين لا يحترمون أيّ قانون، ولأنّ بصري لم يعد حاداً، مثلما كان عليه من قبل.

تسببتُ بضربة خفيفة حين كنتُ أعودُ بسيارتي، المرسيدس، إلى الوراء، في الأسبوع الماضي، وبالتالي صرتُ أكثر حذراً وأنا أوقفها داخل الكراج المخصص. عمرُ سيارتي ثلاثة وعشرون عاماً، لكنّها ما تزالُ في حالةٍ جيّدةٍ. أتذكر كيف كانت نكيرو مبتهجةً حين تم شحنها من ألمانيا، حيث اشتريتها، حين ذهبتُ لاستلام جائزة أكاديمية العلوم. كانت السيارة آخر الموديلات. لم أكن أعرف ذلك، لكنّ أصدقاء ابنتي المراهقين هم الذين عرفوا، وقد جاؤوا جميعاً لاستراق النظر إلى عداد السرعة، وطلب الأذن للمس حوافّ لوحة العداد. اليوم، الجميع باتِ يقتني المرسيديس، بالطبع. يقومون بشرائها مستعملة، من كوتونو،

حيث مراياها الخلفية أو أضواؤها الأمامية، مفقودة. كانت إيبير تسخر منها، قائلة قد تكون سيارتنا قديمة، لكنها أفضل بكثير من كلّ هذه الأشياء الفاقعة التي يركبها هؤلاء الناس، بلا أحزمة أمان. إنها ما تزال تملك حسّ الفكاهة ذاك. أحياناً، حين تزورني، تدغدغ خصيتيّ، وتمرّرُ أصابعها، ناعمةً، فوقها. إنها تعرف جيداً أن دواء البروستات الذي أتناوله قد أمات أشيائي، في الأسفل، وهي تفعل هذا من أجل أن تناكفني فحسب، وتطلقُ ضحكتها المجلجلة، العذبة تلك. في جنازتها، حين قرأ حفيدي قصيدته «ظلّي اضحكي، يا جدّتي»، رأيتُ في العنوان كمالاً حقيقياً، وجعلتني كلماته الطفولية أبكي تقريباً، رغم شكوكي أنّ نكيرو كتبت معظم مفرداتها.

نظرتُ حولي في الباحة، بينما كنتُ أستعدُ للدخول إلى المنزل. هاريسون يقوم ببعض الجهد في الحديقة، وعمله يقتصر على السقاية في هذا الفصل. أدغال الورد أضحت عيداناً جافّة، أما شجيرات الكرز الأقرب، فخضراء مغبرة. أدرتُ جهاز التلفاز. إنها ماتزال تمطر في الشاشة، رغم أن نجل الدكتور أوتاغبو، الشاب الألمعي، الذي يدرس هندسة الإلكترونيات، أتى في الأسبوع الماضي لإصلاحه. جميع أقنيتي الفضائية اختفت، بعد العاصفة الرعدية الأخيرة، لكنني لم أذهب بعد إلى مكتب الفضائيات كي أجد أحداً يقوم بفحصه. على أي حال، يمكن للمرء أن يبقى عدة أسابيع من دون (BBC)، أو (CNN)، والبرامج على محطة (NTA) غاية في الجودة. وكانت محطة (NTA) نفسها هي التي أجرت مقابلة، قبل بضعة أيام، مع رجلٍ آخر متّهم باستيراد الدواء المزيف- دواء حمى التيفوئيد، في هذه الحالة. «العقاقير التي أبيعها لا تقتل الناس» قال، مواجهاً الكاميرا بعينين مفتوحتين على وسعهما، كأنما يحاول أن يكسب ودّ الجماهير. «إنها فقط لا تعالج أمراضكم». أقفلتُ جهاز التلفاز، لأنني لم أعد أحتمل أن أرى شفتي الرّجل المترهلتين. لكنني لم أنزعج. ليس، على الأقلّ، مثلما، أنزعج، عندما لا تزورني إيبير. كنتُ آمل، فقط، ألا

يُترك طليقاً، ليسافر مرة أخرى إلى الصين، أو الهند، أو أي بلد آخر، ويقوم باستيراد أدوية فاقدة الصلاحية، التي، في الواقع، لن تقتل الناس، لكنها ستكون السبب في جعل المرض يقتل الناس.

أتعجّب لماذا لم يناقش أحدٌ، أبداً، خلال السنوات التي أعقبت الحرب، أن إكينا لم يمتْ. صحيح أننا كنا نسمع، أحياناً، قصصاً عن أناسٍ كان يُعتقد أنهم ماتوا، لكنهم عادوا إلى مقراتهم، بعد أشهرٍ، وحتى بعد سنواتٍ، بعد كانون الثاني من عام 1970. أستطيع فقط أن أتصوّر كمية الرمل المرمية على رجالٍ مكسورين، من قبل أفراد عائلاتهم، ظلوا عالقين بين عدم التصديق والأمل. لكننا قلما كنا نتحدّث عن الحرب. وإذا فعلنا، كنا نتوارى خلف غموضٍ كتيم، وكأنّ ما يهمّ ليس أننا انبطحنا مراراً في خنادق من وحل، بعد كلّ غارة جوية، وبعدها كنا ندفن الجثث، وعلى أجسادها المثقبة نثرات من اللون الوردي؛ وليس أننا أكلنا لحاءَ الكَسْبا، وشاهدنا بطون أطفالنا تنتفخُ بسبب سوء التغذية، بل لأننا نجونا. إنها اتفاقية ضمنية، بيننا جميعاً، نحن الناجين من بيافرا. حتى أنا وزوجتي إيبير، نحن اللذين بقينا نتجادل حول اسم مولودنا الأوّل، زيك، على مدى بضعة أشهر، اتفقنا، على جناح السرعة، على نكيروكا: القادم أفضل.

أجلسُ الآن في مكتبي المنزلي، حيث اعتدتُ أن أصحّحُ أوراقَ طلابي، وأساعدُ نكيرو في حلّ وظائف الرياضيات للمدرسة الثانوية. أريكة الجلد بدأت تتفسخ. الدهان البلاستيكي فوق رفوف الكتب يتقشّر. التلفون فوف طاولتي، موضوعٌ فوق كتاب التلفون السميك. ربما سيرنّ في أي لحظة الآن، وسوف أسمعُ صوتَ نكيرو وهي تخبرني عن حفيدنا، وكيف عمل جيداً في المدرسة هذا اليوم، وهذا ما سيجعلني أبتَسم، رغم أنني أعتقد أن المعلمين الأمريكيين ليسوا صارمين كما ينبغي، ويمنحون علامة ممتاز بكلّ سهولة. إذا لم يرنّ الهاتف بعد قليل، سوف أدخل وأستحمّ، وأذهب إلى الفراش، في العتمة الساكنة لغرفتي، وأصغي للأبواب تُفتَحُ وتُغلَق من تلقائها.

يوم الاثنين من الأسبوع الماضي

منذ يوم الإثنين، من الأسبوع الماضي، بدأت كامارا تقف، كثيراً، أمام المرايا. تدور من جنبٍ إلى جنبٍ، تتفحّص بطنها البدين، الوعر، وتتخيّله مسّطحاً كغلاف كتاب، ثم تغلق عينيها، وتتخيلُ تريسي تمسّدهُ بنعومة، بتلك الأظافر الملطّخة بالألوان. لقد فعلتْ هذا للتوّ، أمام المرآة، في الحمّام، بعد أن ضغطتْ زرّ الماء.

كان جوش يقف خلف الباب، حين رآها تخرجُ. إنه نجل تريسي، وعمرهُ سبعةُ أعوام. له حاجبا أمّه الكثّان، غير المقوّسين، كخطّين مستقيمين مرسومين فوق عينيه.

«بولٌ-بولٌ، أم شيءٌ آخر؟» سألَ بصوته الطفولي السّاخر.

«بولٌ- بولٌ.» ثم دخلت إلى المطبخ، حيث الأباجورات الإيطالية، ترسمُ خطوطاً من الظلال فوق الطاولة المستطيلة، حيث كانا يتمرنان، طوال ما بعد الظهر، استعداداً لمسابقة القراءة السريعة التي سيجريها جوش. «هل شربتَ عصيرَ السبانخ؟» سألتْ.

«نعم»، كان يراقبها بطرفِ عينه. لقد عرف - وكان عليه أن يعرف - أنّ السبب الوحيد الذي يجعلها تدخلُ إلى الحمام، في كلّ مرة تناولُه فيها كأساً من العصير الأخضر، هو أن تعطيه فرصة لسكبه بعيداً. بدأ هذا منذ اليوم الأول، الذي تذوّقه فيه جوش، وعبّر عن استيائه، قائلاً، «إخْ! لا أحبُّه».

«أبوك يقول إنّ عليكَ أن تشربه، كلّ يومٍ، قبل العشاء»، قالت له

كامارا، وقتئذٍ. «هي نصف كأس فقط، لن تستغرق أكثر من نصف دقيقة لتبلعه»، أضافت، ثم نهضت لتدخل إلى الحمام. هذا كلّ ما حدث. حين خرجت، كانت الكأسُ فارغة، كما هي الآن، وموضوعة بالقرب من المغسلة.

«سأطهو لكَ العشاء، لكي تكون جاهزاً للذهاب إلى (الأحمق الذّكي)، حين يعودُ والدكَ، جيّد؟» قالت. مازالت بعض التعابير الأمريكية من مثل «جاهز» تبدو ثقيلة في فمها، لكنّها تستخدمها لأجل جوش.

«جيّد» قال.

«هل تحبّذ سمكاً مقلياً أم دجاجاً مع الأرزّ الهندي؟».

«الدجاج».

فتحت الثلاجة. الرفّ العلويّ مزدحمٌ بقوارير البلاستيك، المملوءة بعصير السبانخ العضويّ. علبُ شاي الأعشاب ملأت تلك المساحة، منذ أسبوعين، حين كان نيل يقرأ كتاب «شراب الأعشاب للأطفال»، وقبل ذلك، كانت مشروبات الصويا هي التي تشغل هذا المكان، وقبلها، عصائر البروتين لتنمية العظام. عصيرُ السّبانخ، بدوره، لن يعمّر طويلاً، كما تعلم كامارا، لأنها عندما وصلت هذه الظهيرة، لفت نظرها أن كتاب «دليل كامل عن خضروات العصير» لم يعد على الطاولة؛ ولا بدّ أن نيل قد وضعه في الدرج، خلال عطلة نهاية الأسبوع.

أحضرتْ كامارا رزمةً من شرائح الدجاج العضوي. «لماذا لا ترتاح قليلاً، وتشاهد فيلماً، يا جوش،» قالت. كان يحبّ الجلوس في المطبخ، ويراقبها وهي تطهو الطعام، لكن التعب كان بادياً على وجهه، هذه المرّة. لا َبدّ أن المتسابقين الأربعة، الآخرين، الذين بلغوا نهائي منافسة القراءة السريعة هم أيضاً متعبون، مثله، وأفواههم توجعهم من فرط تدوير كلمات طويلة، غير مألوفة، على ألسنتهم، وقد تكون أجسادهم متوترة، أيضاً، بسبب التفكير بالمسابقة غداً.

كامارا شاهدت جوش يضع القرص المدمّج (DVD)، ويستلقي على الأريكة، وبدا طفلاً نحيلاً، ببشرة زيتيةٍ، وخصلات شعر شعثاء. في نيجيريا، يُسمّون الأطفال، الذين يشبهونه، «نصف ملوّن»، والكلمة تعني، على الفور، طفلاً وسيماً، وجذّاباً، ببشرةٍ فاتحةٍ، يسافرُ خارج البلاد، لزيارة جدّيهِ الأبيضين. ولطالما شعرتْ كامارا بالامتعاض من الهالة التي تحيط بأنصاف الملونين هؤلاء. ولكن، في أمريكا، كلمة «نصف ملوّن»، تُعتبرُ مفردة سيئة. عرفت كامارا هذا عندما قرأت إعلاناً في جريدة فيلادلفيا سيتي يطلبُ مربية للأطفال: أجرٌ سخي، والمواصلات متوفّرةٌ، ولا حاجة للسيارة. ولم يُخفِ نيل اندهاشَه حين عرف أنها من نيجيريا.

«تتحدّثين الإنكليزية بشكلٍ جيّد» قال، وهذا ما أزعجها. أزعجها أيضاً اندهاشه، وافتراضه بأنّ الإنكليزية، بشكل أو بآخر، هي ملكٌ شخصي له. وبسبب هذا، ورغم أنّ توبيتشي كان قد حذّرها بعدم ذكر تعليمها، فإنّها أخبرت نيل بأنها نالت درجة الماجستير، وأنها وصلت، مؤخّراً، إلى أمريكا للالتحاق بزوجها، وأنها تريد أن تكسب القليل من المال كمربّيةٍ للأطفال، بينما تنتظر قبول طلبها للحصول على «غرين كارد»، لكي يتاح لها الحصول على إذن عمل مناسب.

«حسناً، أريدُ أحداً يستطيع الالتزام مع جوش حتى نهاية فصله الدراسيّ»، قال نيل.

«لا مشكلة»، قالت كامارا على عجل. كان ينبغي، حقاً، ألا تذكر أنّها حاصلة على شهادة ماجستير.

«ربما تستطيعين أن تعلّمي جوش لغة نيجيرية؟ إنه يأخذ دروساً في الفرنسية، مرتين في الأسبوع، بعد المدرسة. وقد سُجّل في برنامج متقدّم، في (تيمبل بيث هيليل)، حيث يجرون امتحانات الدخول للأطفال، بدءاً من عمر الرابعة. إنه ولدٌ هادئٌ ولطيفٌ جدّاً، وصبي رائع، لكنني أشعر ببعض القلق، لأنه ليس في المدرسة أو في الحي أطفال مثله مزدوجو العرق».

«مزدوجو العرق؟» سألتْ كامارا.

نيل يسعل سعالاً خفيفاً. «زوجتي أمريكية من أصول أفريقية، وأنا يهوديٌّ أبيض».

«أوه، نصف ملوّن!».

ساد صمتٌ قصيرٌ، ثم عاد صوتُ نيل، أكثر خشونةً. «من فضلكِ، لا تقولي تلك الكلمة».

نبرتُهُ تلك جعلت كامارا تقول «آسفة» رغم أنها لم تكن متأكّدة علامَ تعتذر، ومن أجل ماذا. تلك النبرة، أيضاً، جعلتها متأكدة أنها خسرتْ فرصةَ العمل، وبالتالي أصابتها الدهشة حين ناولها نيل العنوان، وسألها إن كان بإمكانهما أن يلتقيا في اليوم التالي. شخصٌ طويل القامة، بفكّ مائلٍ للطول. وثمة خاصية سلسة، ومريحة، في حديثه، افترضت كامارا أنها جاءت من كونه محامياً. أجرى المقابلة في المطبخ، مستنداً إلى الطاولة، سائلاً عن معارفها، وعن حياتها في نيجيريا، قائلاً لها إنّ جوش تلقى تربيةً تتيحُ له معرفة خلفيتِه اليهودية، والأفرو-أمريكية. وبينما كان يشرح كلّ هذا، ظلّ، طوال الوقت، يمسّد بإصبعه تلك اللاصقة الفضية على جهاز الهاتف التي تقول «لا للسلاح». تساءلتْ كامارا، بينها وبين نفسها، أين، يا ترى، أمّ جوش. ربما قتلها نيل، وأخفى جثتها في دولاب الملابس. كانت كامارا قد أمضت الأشهر الماضية تشاهد تلفزيون المحكمة، وعرفت إلى أي مدىً يمكن لهؤلاء الأمريكيين أن يكونوا مجانين. ولكن، كلّما طال بها الوقت وهي تصغي إلى نيل يستفيض في الحديث، ازدادت قناعتها بأنه لا يستطيع أن يقتل حتّى نملة واحدة. لقد استشعرتْ نوعاً من الهشاشة فيه، ورواسب قلق كثيرة. قال لها إنه يقلق لأنّ جوش يجد صعوبةً في التأقلم مع حقيقة كونه مختلفاً عن الأطفال الآخرين، في المدرسة، وأن جوش قد لا يكون سعيداً، وأن جوش لم يعرف والده كما ينبغي، وأن جوش هو ولده الوحيد، وأن جوش قد يصطدم بمشاكل مرتبطة بطفولته، حين يكبر، ويبلغ سن الرشد، وأنّ

جوش، في نهاية المطاف، قد يُصاب بالاكتئاب. في منتصف الحديث، تمنّت كامارا أن تقاطعه، وتسأل، «لماذا تقلق بخصوص أشياء لم تقع بعد؟» لكنها لم تفعل، لأنها لم تكن متأكدة من أنها حصلت على موافقته بالعمل. وحين وافق وعرض عليها العمل- بعد المدرسة، حتى السادسة والنصف، واثني عشر دولار في الساعة، تُدفع نقداً- ظلت صامتةً، ولم تقلْ شيئاً، لأن كل ما كان يحتاجه نيل، وهي حاجة يائسة، هي أن تجلس هي وتصغي له، ولا يكلّفها الكثير، أن تجلس وتصغي.

نيل قال لها إن طريقته في التربية قائمة على العقل. هو لن يفكّر أبداً بصفع جوش، لأنه لا يؤمن بالضرب كوسيلة للتربية. «إذا جعلتِ جوش يرى لماذا هذا السلوك المعيّن خاطئ، فإنه لن يكرّره،» قال نيل.

الصفعُ شكلٌ من التربية، أرادت كامارا أن تقول، وسوء المعاملة شيءٌ مختلفٌ تماماً. سوء المعاملة هو ما سمعتْ عنه في الأخبار، عن آباءٍ أمريكيين يضعون السجائر على أجسادِ أطفالهم. لكنها قالت ما كان توبيتشي قد طلب منها أن تقول: «أشارككَ الرأي حول فكرة الضرب. بالطبع سوف أستخدمُ فقط طريقةَ التّربية التي تحبّذها أنت».

«جوش يتبع نظاماً غذائياً صحّياً» تابع نيل. «نستخدم القليل من سيروب رقائق الذرة، المعسل، أو الطّحين الأبيض، أو الدهون المعدّلة. سأكتبُ لكِ هذه المعلومات كلّها على ورقة جانبية».

«حسناً،» لم تكن متأكّدة ماذا تعني كلّ تلك الأشياء التي ذكرها.

وقبل أن تغادر، سألتْ: «وماذا عن أمّه؟»

«تريسي رسّامة. إنها تمضي الشطر الأكبر من وقتها في القبو، في هذه الآونة. إنها تعمل على لوحة كبيرة، كُلّفتْ بها. وثمة موعد نهائي للتسليم ....» ارتجف صوتُه قليلاً.

«أوه،» نظرت إليه كامارا، مندهشة، متسائلةً ما إذا كان ثمة شيء أمريكي عليها أن تفهمه مما قاله، شيء يوضّح لماذا أم الصبي لم تأتِ لمقابلتها.

«ليس مسموحاً لجوش أن يكون في القبو، في هذه الآونة، وبالتالي لا يمكنكِ النزول إلى هناك، أيضاً. اتصلي بي إذا واجهتكِ أي مشكلة. أرقام التلفونات موضوعة على واجهة الثلاجة. تريسي لا تصعد إلى فوق حتى حلول المساء. الدرّاجون يوصلون لها الحساء والسندويتش، كلّ يوم، ولا ينقصها شيءٌ في القبو، بتاتاً». توقف نيل لبرهة قصيرة. «عليكِ أن تنتبهي، وحذار أن تزعجيها مطلقاً بخصوص أيّ شيءٍ كان».

«لم آتِ إلى هنا كي أزعجَ أحداً» قالت كامارا، ببعض البرودة، لأنه، فجأةً، بدأ يتحدث إليها كما يتحدث النّاسُ إلى الخادمات في نيجيريا. كان ينبغي ألا تسمح لتوبيتشي بأن يقنعها بالقبول بهذا العمل السائد، الذي تمسحُ فيه مؤخّرةَ طفلِ أحدِ الغرباء، وكان ينبغي ألا تصغي له حين أخبرها أن هؤلاء الناس البيض، الأغنياء، في الحيّ الرئيسي، لا يعرفون ماذا يفعلون بأموالهم. ولكن حتى عندما مشت باتجاه محطة القطار، تداوي كبرياءَها الجريح، كانت تعرف أنها حقاً لا تحتاج لمن يقنعها. كانت تريد هذا العمل، وأيّ عمل. كانت تبحث عن سبب يجعلها تغادرُ شقّتها، كلّ يوم.

والآن، ثلاثة أشهرٍ مرّت. ثلاثة أشهرٍ من الإشراف على تربية جوش. ثلاثة أشهرٍ من الإصغاء إلى وساوس نيل، وتنفيذ تعليمات نيل، الصادرة عن شخصٍ قلق، ومشاعر الشفقة التي طوّرتها تجاه نيل. ثلاثة أشهرٍ لم تر فيها تريسي. في البداية، انتاب كامارا بعض الفضول تجاه هذه المرأة، بجدائل شعرها الطّويلة، والبشرة، التي لها لون زبدة الفستق السوداني، وتظهر حافية القدمين في صورة الزفاف، الموضوعة على الرفّ، في غرفةِ النوم. ولطالما تساءلت كامارا، بينها وبين نفسها، إن كانت تريسي تغادر القبو، أصلاً، وإن فعلت، فمتى. كانت أحياناً تسمعُ أصواتاً، تأتي من الأسفل، وباباً يُغلق، أو نغمات خافتة من الموسيقى الكلاسيكية. بل كانت كامارا تتساءلُ ما إذا كانت تريسي قد رأت ابنها، على الإطلاق. وحين كانت تدفعُ جوش للحديث عن أمه، كان يقول، «ماما مشغولة

جدّاً في عملها. تُصاب بالجنون إذا أزعجناها»، ولأنه كان يُبقي وجهَه حيادياً، بكلّ أناة، كانت تتراجع عن توجيه المزيد من الأسئلة إليه. ساعدته في وظيفته المدرسية، ولعبت الورق معه، وشاركته في مشاهدة فيلم (DVD)، وأخبرته عن حشرات الصرار التي اعتادت أن تصطادها، كطفلة، وفرحت بالمتعة الشديدة التي أبداها وهو ينصت إليها. وجود تريسي أضحى بلا أهمية، وشبه خلفية واقعٍ ما، فحسب، مثل الطنين في خطّ الهاتف، حين تتصل كامارا بأمّها في نيجيريا. حتى جاء يوم الإثنين من الأسبوع الماضي.

في ذلك اليوم، كان جوش في الحمّام، وكامارا تجلسُ خلف طاولة المطبخ، تنظر إلى وظيفته المدرسية، حين سمعت صوتاً، خلفها. التفتتْ وهي تظنّ أنه جوش، ولكن تريسي هي التي ظهرت، ترتدي جرابات طويلة مقوّسة، وكنزة ضيقة، والابتسامة تعلو محياها، ترفع جدائلها المنسدلة على وجهها، بأظافر ملوّنة بالطلاء. كانت تلك لحظة غريبة. التقت عيناهما، وفجأةً أرادت كامارا أن تخسر وزنها، وتضع الماكياجَ على وجهها، من جديد. امرأةٌ من جنسكِ، وتملكُ الشيءَ نفسَه الذي تملكين؟ هذا ما ستقوله صديقتُها، تشينوي، لو جرّبت أن تخبرها مرة. سحاقية! أيُّ غباءٍ هذا؟ هذا ما كانت تقوله كامارا لنفسها، أيضاً، منذ يوم الإثنين من الأسبوع الماضي. قالت هذا حتى بعد أن توقفت عن أكل الطعام المقلي، وأضافت خصلاً مجدولة إلى شعرها، في المكان السنغالي، في ساوث ستريت، وتجولت بين أكداس علب الكحل والرّموش، في محال التجميل. الهمسُ بتلك الأشياء إلى نفسها لم يغيّر شيئاً، لأنّ ما كان قد حدث في المطبخ، في تلك الظهيرة، هو تبرعمٌ لأملٍ باذخ، لأنّ الدافعَ الذي يشدّ حياتها، الآن، هو التفكير بأن تريسي ستصعد، إلى الأعلى، ثانيةً.

وضعت كامارا شرائح الدجاج في الفرن. نيل أضاف ثلاثة دولارات، في السّاعة، على تلك الأيام التي لا يأتي بها إلى المنزل،

بالتوقيت المحدد، وتكون قد طهت عشاء جوش. أسعدتها فكرة أنّ «طهي العشاء» يُعتبرُ عملاً شاقاً بينما ليست سوى سلسلة معقّمة من الأفعال: فتح أكثر من كرتونة وكيس، ووضعها داخل الفرن، أو الميكروويف. ماذا لو أنّ نيل شاهد مدفأة الكاز التي تستخدمها في منزل أهلها، مع سحائب الدخان الكثيفة التي تغطّيها. الفرن أعطى إشارة اكتمال الطبخ. رتّبتْ كامارا شرائح الدجاج، حول كمية من الأرز، فوق صحن جوش.

«جوش»، نادت بأعلى صوتها. «العشاء جاهز. هل تحبّذ اللبن البارد بعد الأكل؟»،

«نعم». ابتسم جوش، وراحت تتأمّل انحناءة شفتيه، التي تشبه تماماً انحناءة شفتي تريسي. لطمتْ إصبع قدمِها بالحافّةِ السفلى للطاولة. وتكرر اصطدامها بأشياء وأشياء منذ الإثنين من الأسبوع الماضي.

«هل أنتِ بخير؟» سأل جوش.

فركت إصبع قدمها. «أنا بخير».

«كامارا، انتظري»، ركع جوش على ركبتيه، أرضاً، وقبّل قدمها. «حسناً. هذا سيجعلُ الكدمةَ تختفي».

نظرت نحو الأسفل، إلى رأسه الصغير، مائلاً بجذعه أمامها، ينسدلُ شعرُهُ خواتمَ لا مبالية، على وجهه، وأرادت أن تضمّه بقوة إلى صدرها. «شكراً، جوش».

رنّ جرسُ الهاتف. عرفت أن نيل هو المتصل.

«مرحبا»، كامارا. هل كلّ شيء على ما يرام؟».

«كلّ شيء على ما يرام».

«كيف حال جوش؟ هل هو خائف من يومِ الغد؟ هل ينتابه القلق؟».

«إنه بخير. أنهينا التمرين للتوّ».

«عظيم» صمت. «هل أستطيع أن أقول له، سريعاً، مرحباً؟».

«هو في الحمّام الآن». خفّضت كامارا صوتها، وهي تراقبُ جوش يُطفئ مسجّلَ (DVD) في الغرفة.

«حسناً. أراكِ قريباً. انتهيتُ توّاً من آخر الزبائن في المكتب. استطعنا في النهاية أن نقنع زوجها بأن ينهي المسألة، من دون الذهاب إلى المحكمة، وبدأتْ زياراتُها تطول أكثر من اللازم»، ثم ضحك ضحكةً قصيرةً.

«حسناً، إذن؟» كانت كامارا على وشك أن تغلق سماعة الهاتف حين أدركت أن نيل مازال على الخطّ.

«كامارا؟»

«نعم».

«أنا مضطرب قليلاً بشأن الغد. كما تعلمين، لستُ متأكداً إلى أي حدّ سيكون الأمر صحّياً، مع صحبة كهذه، لطفلٍ في سنّه».

فتحت كامارا حنفيةَ الماء، ونظّفت آخرَ آثارِ السائلِ الأخضر القاتم. «سيكونُ بخير».

«آملُ أنّ الذهاب إلى عرضِ (الأحمق الذكي) ستخفّف، قليلاً، من ضغط المسابقة».

«سيكونُ بخير» كرّرت كامارا قولها.

«هل تودّين المجيء إلى عرضِ (الذكي الأحمق)؟ سأوصلكِ إلى المنزل، فيما بعد».

كامارا قالت إنها تفضل الذهاب إلى البيت. لا تعرف لماذا كذبت، وقالت إنّ جوش في غرفة الحمّام. زلّ لسانها سريعاً. من قبل، كانت ستطيلُ المحادثة أكثر مع نيل، وربّما تقبلُ الدعوةَ للذهاب معهما إلى فيلم الذكيّ الأحمق، لكنّها لم تعدْ تشعرُ بعلاقة الودّ التلقائيةِ مع نيل.

ظلّتْ يدها ممسكةً بسمّاعة الهاتف، حتى بدأتْ تسمعُ طنيناً عالياً. لمست اللاصقة المكتوب عليها «احموا ملائكتنا»، التي ألصقها نيل، مؤخّراً، على سرير جوش، بعد يومٍ من اتصاله المذعور، حين شاهد صورةً على الإنترنت، لمتحرّش أطفال، انتقل إلى حيّهم، ويبدو شبيهاً

بعاملِ البريد، الذي يسلّم الطرود. «أين هو جوش؟» «أين هو جوش؟» سأل نيل، وكأن جوش يمكن أن يكون في مكانٍ آخر سوى البيت. أغلقت كامارا سماعة الهاتف وهي تشعر بالأسف تجاهه، ووصلت إلى نتيجة مفادها أنّ التربية الأمريكية للأطفال هي نوع من اللعب بكراتِ القلق، وهذا يتأتّى من توفّر الكثير من الطعام: المعدة الشبعانة أعطت الأمريكيين وقتاً للتفكير بأنّ طفلهم قد يكون مصاباً بمرضٍ نادرٍ، قرأوا عنه للتوّ، وجعلهم يفكّرون بأن لديهم الحق بحماية طفلهم من خيبة الأمل والعوز والفشل. المعدة الشبعانة أعطت الأمريكيين بذخَ امتداح أنفسهم، بأنّهم آباء صالحون، وكأن العناية بطفلٍ من لحمك ودمك هو الاستثناء، وليس القاعدة. اعتادت كامارا، في الماضي، أن تستمتع وهي تشاهد النساء الأمريكيات، على التلفزيون، يتحدّثن عن مدى حبّهن لأطفالهنّ، وعن التضحيات التي قدّمنها لهم. الآن، بات الموضوع يزعجها. الآن، حيث دورتها الشهرية، تصرّ على المجيء، شهراً، بعد شهر، باتت تنفرُ من أولئك النسوة المتبرّجات، اللّواتي يحبلْن وينجبْن، من دون جهد، ويطلقن تعابيرهنّ الهوائية عن «التربية الصحّية».

وضعت الهاتف جانباً، وحكّت بظفرها اللاصقة السّوداء لترى إن كان من السهل نزعَها. حين أجرى نيل مقابلة العمل معها، كانت لاصقةُ «لا للسلاح»، فضّيةَ اللّون، وهي أوّل شيءٍ أخبرتْ توبيتشي عنه، وكم كان غريباً أن تراقب نيل يمسّدها بإصبعِه، مرّةً بعد أخرى، وكأنه يمارس طقساً ما. لكنّ توبيتشي لم يكن مهتماً باللاصقة. سألها عن المنزل، وعن تفاصيل لم تستطع، بأي حال، أن تعرفها. أهو بيت كولونيالي؟ وكم عمر المنزل؟ في غضون ذلك، كانت عيناه تبرقان بأحلام مائية. «سوف نعيش فَي منزل، يشبه هذا، ذات يوم، في آردمور، أيضاً، أو في أيّ مكانٍ آخر، على الخطّ الرئيسي»، قال.

لم تقل شيئاً، لأن المهم، بالنسبة لها، لم يكن أين يعيشان، بل كيف آلَ إليه حالهما.

تقابلا في الجامعة، في نسوكّا. كانا كلاهما في السنة الأخيرة. هو يدرس الهندسة، وهي تدرس الكيمياء. كان طالباً هادئاً، قصير القامة، شغوفاً بالكتب، ومن ذاك النمط الذي يقول عنه أهله ينتظره «مستقبلٌ باهر». لكن ما جذبها إليه هي الطريقة التي نظر فيها إليها، بتلك العينين الوجلتين. عينين جعلتاها تحبُّ نفسَها. بعد مضي شهر، انتقلت إلى غرفته، في سكن الطلاّب، المطلّ على رصيف مشجّر، داخل الجامعة، وباتا يذهبان إلى كلّ الأمكنة، معاً، ويركبان الدراجة نفسها، حيث كامارا تجلس بين توبيتشي والـدرّاجِ. كانا يستحمّان معاً، في الحمام، ذي الجدران الضيقة، ويطهوان، معاً على فرن صغيرٍ، في الهواء الطلق. وحين بدأ أصدقاؤه ينعتونه بـ «مغلّف المرأة»، كان يبتسم، كمن يقول لهم لا تعرفون كم ضاع من حياتكم. حفلة الزفاف التي أقيمت، بعد وقت قصيرٍ من استكمالهما لما يسمّى «خدمة الشباب الوطنية»، جرت على عجلٍ لأن أحد أعمامه، وهو قسّ، عرض عليه المساعدة في تأمين فيزا أمريكيةً، عبر إضافة اسمه إلى مجموعة ذاهبة لحضور مؤتمر هناك، تنظمه البعثة الإيمانية الإنجيلية. أمريكا تعني العمل الشاقّ، وكلاهما يعرفان ذلك، ولكن يمكن للمرء أن ينجح، إذا كان مستعداً للمثابرة والعمل بجدّ. والخطة تقوم على أن يذهب توبيتشي إلى أمريكا، ويجد عملاً، ويعمل لمدة عامين، هناك، ثم يحصل على «غرين كارد»، وبعدئذٍ، يرسلُ في طلبها. لكن، مضت سنتان، ومن ثم أربعة، وظلت كامارا، خلالها، في إنوغو، تعمل في التدريس في مدرسة ثانوية، وتتابع دراستها في برنامج الماجستير، بنصف دوام فقط، وتحضرُ حفلات تعميد أطفال أصدقائها، بينما كان توبيتشي يعملُ سائقاً على سيارة عمومية، في مدينة فيلادلفيا، لمصلحة رجلٍ من نيجيريا، اضطرّ أن يتخلّى عن جميع سائقيه، لأنهم، جميعاً، لا يحملون أوراقاً رسمية. ومرّت سنة أخرى. وتوبيتشي لم يكن قادراً على إرسال النقود، كما كان يريد، لأنّ معظمها كان يذهب، كما يقول، إلى «ترتيب أوراقه». همسات عماتها بدأت تعلو أكثر فأكثر: ماذا ينتظر ذاك الصبي؟ إذا لم يكن قادراً على تنظيم نفسه، والإرسال في

طلب زوجته، ينبغي أن يُعلمَنا بذلك، لأنّ وقت المرأة ينقضي سريعاً! خلال مكالماتها الهاتفية معه، كانت تسمع دائماً غصة في صوته، فكانت تواسيه، وتشتاق له، وتبكي كثيراً، حين تكون وحدها، حتى جاء ذاك اليوم أخيراً: اتصل توبيتشي ليقول لها إن بطاقة «غرين كارد» أصبحت على الطاولة، أمامه، وهي ليست حتى خضراء.

سوف تتذكر كامارا، دائماً، ذاك الهواء الملفوح بأجهزة التبريد، فور وصولها إلى مطار فيلادلفيا. كانت ما تزال تحمل جواز سفرها بيدها، مفتوحاً، قليلاً، على الصفحة التي تُظهِرُ فيزا الزائر، مع اسم توبيتشي، مسجّلاً كراعٍ لها، حين خرجتْ من بوابة الوصول، ورأته يقف هناك، ضاحكاً، ببشَرته الفاتحة، وبدانته المعتدلة. لقد مرّتْ سنواتٌ ستّ. والآن هما يتعانقان بقوة. داخل السيارة، أخبرها أنه رتّب أوراقه كشخصٍ عازب، وبالتالي سوف يتزوجان، من جديد، في أمريكا، ويقدّم طلباً لها للحصول على غرين كارد. خلع حذاءه حين وصلا الشقة، ونظرت إلى أصابع قدميه، التي بدتْ سوداء فاحمة، فوق رخام المطبخ، الناصع البياض، ولاحظت شعراً ينمو فوقها. كانت تحدق فيه، مشدوهةً، وهو يتكلّم، حيث لغته المحلية، إنغو، اختلطت ببعض المفردات الإنكليزية، ذات اللفظ الأمريكي، غير الموفق. فبدلاً من «I will go»، كان يقول «Amah go». على الهاتف لم يكن يتكلم هكذا. أم إنه كان يفعل، وهي لم تكن تنتبه؟ أم إنّ مجرّد رؤيته، يعني بالضرورة أن تراه بشكل مختلفٍ، إذ إنها كانت تنتظر أن ترى توبيتشي، الطالبَ الجامعي؟ ثم راح ينبشُ الذكريات، ويعرّضها للهواء، فرحاً، سعيداً: هل تذكرين تلك الليلة، حَين خرجنا لنشتري البيرة تحت المطر؟ تذكّرتْ. وتذكرتْ، أيضاً، أن السماء كانت تُرعِدُ، وتبرقُ، وأضواء الشوارع تنوسُ تارةً، وتشعلُ تارةً، وتذكرُ أنّهما تناولا معاً لحماً مشوياً، طرياً، مع البصل النيء الذي جعل عيونهما تذرف دمعاً. وتذكّرت كيف استيقظا، في اليوم التالي، ورائحة

البصل عالقة بقوة في أنفاسهما. وتذكرت أيضاً كيف أن علاقتهما كانت مملوءة بالسلاسة واليسر. الآن، بات صمتهما ملغزاً، لكنّها، كانت تقول لنفسها لا بدّ أن الأشياء ستتحسّن، فهما كانا بعيدين عن بعضهما لمدّة طويلة، على أي حال. في السرير، لم تشعرْ بشيءٍ، سوى بالاحتكاك المطاطي للبشرةِ بالبشرة، وقد تذكّرت بوضوح كيف كان الحال بينهما من قبل، فهو، في الفراش، الشّخص الصامت واللّطيف، والثابت، وهي، المرأة التي تشهق، وتتلوّى، وتضغطُ بأصابعها. الآن، بدأت تتساءل ما إذا كان هو نفسه، توبيتشي، حقاً، هذا الشخص الذي يبدو متشوّقاً جداً، ومسرحياً جداً، والأسوأ من هذا وذاك، تلك اللكْنة المزيفة التي يتحدّث بها، حتى أنها تمنّت لو تصفعه على وجهه. ويكفي أن تسمعه يردّد:

(I wanna fuck you, I am gonna fuck you). في أول عطلة نهاية أسبوعٍ، اصطحبها معه إلى فيلادلفيا، ومشيا، معاً، عبر المدينة القديمة، ذهاباً وإياباً، حتى شعرت بالإجهاد، وطلب منها أن تجلس على مقعدٍ، على الرّصيف، وذهب ليشتري لها زجاجة ماء. حين عاد أدراجه، ماشياً نحوها، ببنطلون الجينز، الفضفاض قليلاً، وقميص تي شيرت قصير، بينما الشمس تتوهّج خلفه كبرتقالة يوسفية، فكّرت للحظة بأنها تنظر إلى شخصٍ آخر، لا تعرفه أبداً. كان يعودُ من عمله الجديد، كمديرٍ في شركة (بيرغر كينغ)، حاملاً هديةً صغيرةً: آخر عددٍ من مجلة «إيسنس»، وشراب «مالتينا» من متجرٍ أفريقي، ولوح شوكولا. في اليوم الذي ذهبا فيه إلى المحكمة لتبادل قَسَم الزواج، أمام امرأةٍ فاقدة للصبر، راح يطلق، سعيداً، صفيره المتقطّع، بينما كان يعقدُ ربطة عنقه، فيما هي، كامارا، تراقبه بنوعٍ من الحزن اليائس، وتشعرُ بأمسّ الحاجّة لأنّ تشاركه غبطته. كانت ثمةَ بعض العواطف التي تمنت لو أن تحملها على راحة كفها، لكنها ببساطة تبخّرت، ولم تعد موجودة.

أثناء مكوثه في العمل، كانت كامارا تذرع الشقة ذهاباً وإياباً، وتتفرج على التلفاز، وتأكل كلّ ما تقع يدها عليه في الثلاجة، وتلتهم ملاعق

كاملة من السّمن الصناعي بعد انتهائها من أكل الخبز. بدأت ثيابها تضيق، وتُظهِرُ خصرها، وإبطيها، وقد اعتادت التجوال في المنزل، مرتديةً عباءتها الفضفاضة. أخيراً، اجتمعت مع توبيتشي في أمريكا، مع رجلها الطيّب، لكنّ المشاعر كانت مسطّحة وباردة. شعرت بأنّ صديقتها، تشينوي، هي وحدها التي تستطيع التحدّث إليها. تشينوي هي الصديقة التي لم تقل لها يوماً إنها حمقاء، لأنها تنتظر توبيتشي، وإذا أخبرتها أنها لا تطيق سريرها، لكنها لا تريد أن تغادره في الصباح، فإنّ تشينوي ستفهم هذا الشعور بالارتباك.

اتصلت بصديقتها تشينوي، فبدأت تشينوي تبكي، بعد كلمة مرحباً، وعبارة كيف الحال. امرأة أخرى أضحت حاملاً من زوج تشينوي، ويتوجّبُ عليه أن يدفع ثمن عرسها، لأنّ تشينوي لها ابنتان، والمرأةُ تنحدرُ من عائلةٍ من الأبناء الذكور. حاولت كامارا أن تهدّئ من روع تشينوي، وعبّرت عن غضبها العارم تجاه زوجٍ عديم النفع، ثم أقفلت السماعة، من دون أن تقول حرفاً واحداً بخصوص حياتها الجديدة. لم تكن تستطيع أن تشكو حاجتها للحذاء، إذا كان الشّخص الذي تتحدّث معه، على الخطّ الاخر، ليس له ساقان.

مع أمّها، على الهاتف، قالت إنّ كل شيء على ما يرام. «سوف نسمعُ طقطقة الأقدام الصغيرة قريباً»، قالت أمها، وأجابتها «أرجو ذلك» من أجل أن تُظهر لها أن مباركتها في الحفظ والصون. وهذا ما حاولت أن تفعله: تغلق عينيها، بينما توبيتشي ينام فوقها، متمنيةً أن تحبل منه، فإذا لم يخلّصها هذا من شعورها بالحنق، فإنه سيمنحها شيئاً تهتمُّ من أجله. اشترى لها توبيتشي حبوبَ منع الحمل، لأنه كان يرغب بأن يبقيا معاً وحيدين، ولو لسنة واحدة، ولكي يعوّضا ما فاتهما، ويستمتعا بعضهما ببَعض، لكنها كانت ترمي الحبّ في التواليت، كلّ يوم، وتتعجّبُ كيف لا يرى الكدر الذي يعكّر أيامها، والأشياء الصعبة التي بدأت تتغلغلُ بينهما. لكنه، في يوم الإثنين، من الأسبوع الماضي، استطاع أن يلاحظَ التغيير الذي طرأ عليها.

«تبدينَ مشرقةً هذا اليوم، يا كام،» قال، وهو يعانقها في ذاك المساء. بدا سعيداً لأنها بدت مشرقة. فرحتْ، وشعرتْ بالأسف في آن واحد، لأنّها لا تستطيعُ أن تشاركَه ما يجول في خاطرها، ولإيمانها، فجأةً، بأشياء لا علاقة له بها. لم تستطعْ أن تقول له كيف صعدت تريسي الدرج، ودخلت المطبخ، والدهشة التي انتابتها لأنها تخلّت عن التساؤل عن هذا النمط من الأمهات.

«هاي، كامارا»، كانت تريسي قد قالتْ، وهي تقتربُ منها. «اسمي تريسي». صوتها عميقٌ، وجسدها الأنثوي سلسٌ، ويداها وكنزتها ملطخة بالألوان.

«أوه، هاللّو»، قالت كامارا، مبتسمة. «يسعدني اللقاء بك، أخيراً، يا تريسي».

مدّت كامارا يدها، لكن تريسي اقتربت منها أكثر، ولمستْ ذقنها.

«هل سبق لك أن ارتديتِ حلقاً للأنف؟».

«حلقاً للأنف؟».

«نعم».

«كلاّ، كلاّ».

«أسنانُك جميلة، بل الأكثر جمالاً».

مازالتْ يدُ تريسي تلمسُ ذقنها، وتجعلُ رأسَها ينحرف، قليلاً إلى الأعلى. انتاب كامارا، في البداية، شعورُ الدمية الفاتنة، ثم العروس. ابتسمتْ، ثانيةً. إنها في أشدّ لحظات الإدراك لجسدِها، ولعينيّ تريسي، وللمساحة الصغيرة، والصغيرة جدّاً، التي تفصل بينهما.

«هل سبق لك أن جلستِ، كعارضة، أمام ريشة فنّان؟».

«كلاّ، ...كلاّ».

دخل جوش المطبخ، وهرع إلى تريسي، ووجهه يضيء فرحاً. «ماما!» عانقته تريسي وقبلته، ومسحتْ على شعره. «ماما، هل انتهيتِ من عملكِ؟» قال ماسكاً يدها.

«لا، ليس بعد، يا حبيبي». بدتْ على ألفة مع المطبخ. كامارا توقعت أنها لن تعرف أين تُحفظ الكؤوس، أو كيف يعمل جهازُ منقّي المياه. «شعرتُ بغصّة، فقلتُ أصعدُ إلى هنا لبعض الوقت». وظلّت تمسّدُ شعر جوش. ثم التفتت إلى كامارا. «غصّة عالقة في حلقي، هنا، كما تعلمين».

«نعم»، قالت كامارا، رغم أنّها لم تكن تعلم. كانت تريسي تنظر إلى عينيها، مباشرةً، ما جعل لسان كامارا يرتعشُ من تلقائه.

«نيل يقول إنّكِ حاصلة على درجة الماجستير»، قالت تريسي.

«أجل».

«هذا رائع. لطالما كرهتُ الجامعة، ولم أصدّق متى كنتُ سأتخرج!» وضحكت. كامارا ضحكت أيضاً. وجوش ضحك، بدوره. وراحت تريسي تقلّبُ رسائل البريد، فوق الطاولة، ثم اختارتْ واحدةً منها، وفتحتها، ثم أعادتها إلى مكانها. كان جوش وكامارا يراقبانها، بصمت. التفتت إليهما. «حسناً. من الأفضل أن أعود إلى العمل. أراكما لاحقاً».

«لماذا لا تجعلين جوش يرى ماذا تعملين؟» سألت كامارا، لأنها لم تكن تتحمّلُ مجرّدَ فكرة مغادرة تريسي لها.

بدت تريسي متفاجئة للحظة من هذا الاقتراح، ثم نظرتْ إلى جوش. «هل تريد أن ترى، يا عزيزي؟».

«نعم».

في القبو، لوحةٌ ضخمةٌ تستندُ إلى الحائط.

«إنّها جميلة» قال جوش. «أليس كذلك، يا كامارا؟».

بالنسبة لها، بدت اللوحةُ لطخاً عشوائية من الألوان. «أجل، إنها حلوة جدّاً».

القبو أثار فضولها أكثر، حيث كانت، عملياً، تعيش تريسي. الأريكة الشعثاء، والطاولات المكتظة بالأدوات، والفناجين المدبوغة بالقهوة. وبدأت تريسي تدغدغ جوش، وجوش بدأ يضحك. ثم التفتت إليها. «آسفة، المكان فوضى عارمة هنا».

«كلاّ، إنه مقبول». أرادت أن تقترح على تريسي فكرة القيام بالتنظيف، فقط من أجل أن تبقى قريبةً منها.

«نيل يقول إنك وصلتِ حديثاً إلى الولايات المتحدة؟ أتمنى أن أعرف المزيد عن نيجيريا. زرتُ غانا قبل بضع سنوات».

«أوه.» بلعتْ كامارا معدتَها. «هل أعجبتكِ غانا؟»».

«أعجبتني جداً. البلد الأمّ يلهمُ كلّ أعمالي». تريسي تدغدغُ جوش، لكن عينيها تحدقان بكامارا. «هل تنتمين إلى إثنية يوروبا؟»».

«كلا، أنا إغبو».

«ماذا يعني اسمكِ؟ هل لفظي له صحيح؟ كا-مارا؟»

«نعم. إنه اختصار لكلمة كاماراتشيزوراناي. وتعني «ليرأفَ الربُّ بحالنا جميعاً.»

«إنه جميل. إنه يشبه الموسيقى. كامارا، كامارا، كامارا.»

وتخيّلتْ كامارا أن تريسي تردّدُ اسمها، ثانيةً، ولكن، هذه المرة، تهمسه همساً في أذنها. كامارا، كامارا، كامارا، يتردّد الصدى بينهما، فيما الجسدان يتمايلان على وقع موسيقى الاسم.

جوش يركض حاملاً فرشاةً في يده، وتريسي تركضُ خلفه، ثم يقترب الاثنان أكثر من كامارا. تتوقفُ تريسي. «هل تحبين هذا العمل، يا كامارا؟»».

«نعم». أصيبت كامارا بالدهشة. «جوش طفلٌ طيبٌ جدّاً».

أومأت تريسي برأسها. مدّت يدها، من جديد، ولمستْ، قليلاً، خدَّ كامارا. عيناها لمعتا في ضوء مصابيح الهالوجين.

«هل تخلعين ملابسك، من أجلي؟» سألت بنبرة ناعمة، هامسة، حتى أن كامارا لم تكن متأكّدة أنّها سمعتْ على نحوٍ صحيح. «أريدُ أن أرسمكِ. لكن لن تكون الصورةُ شبيهةً بكِ».

علمت كامارا أنها لم تعدْ تتنفّسُ بانتظام، مثلما كانت تفعلُ منذ قليلٍ.

«أوه، لا أعلم»، قالت.

«فكّري بالأمر»، قالت تريسي، قبل أن تلتفت إلى جوش، وتخبره أنها تريد استئناف العمل.

«حان وقت تناول عصير السبانخ، يا جوش». قالت كامارا، بنبرةٍ عاليةٍ، متمنيةً لو أنّها قالت شيئاً آخر، أكثر جرأةً، وأن تصعدَ تريسي ثانيةً، وتزورهما.

كان نيل قد بدأ يسمح لابنه جوش بتناول رذاذ الشوكولا، بعد أن صدر كتابٌ يقول إن العنصر الحلو، الخالي من السكّر، قد يسبّب السّرطان، وبالتالي بدأ جوش يتناولُ، بعد طعامه، اللّبنَ الرائبَ العضويّ، مزيناً برذاذ الشوكولا، عندما انفتح باب الكراج. كان نيل يرتدي بذّةً سوداء لامعة. لقد وضع حقيبته الجلدية على الطاولة، وألقى التحية على كامارا، وانحنى يعانق جوش.

«مرحباً، يا عزيزي».

«هاي، بابا». قبّله جوش، وضحك حين وضع نيل يده على عنقه.

«كيف جرى تمرين القراءة مع كامارا؟».

«جيّد».

«هل أنت خائف، يا عزيزي؟ ستقدم أداءً عظيماً، وأراهن أنّكَ ستفوز. ولكن إن لم تفز، فهذا ليس بالأمر المهمّ، لأنكَ، في نظر بابا، ستظلّ أنتَ الفائز. هل أنت جاهز لحضور (الذكي الأحمق). سيكون العرض ممتعاً. المغفّل، وأوّل زيارةٍ لكرة الجبنِ!».

«نعم». دفع جوش صحنَه جانباً، وبدأ ينظر إلى داخل حقيبته المدرسية.

«سأنظرُ إلى أشيائك المدرسية، لاحقاً». قال نيل.

«لا أستطيعُ أن أجدَ ربطةَ حذائي. كنتُ قد فككتها في باحة اللّعب».

أخرج جوش قصاصة من الورق من حقيبته، وانتشل ربطة حذائه، المبتلّة بالوحل، ثم قام بفكّ الخيطان بعضها عن بعض.

«أوه، انظرْ! هل تذكر بطاقات العائلة الخاّصة التي كان صفّي يعملُ عليها، بابا؟».

«هل هي هذه؟».

«نعم!» رفع جوش الورقة المرسومة بقلم التلوين، ملوّحاً بها إلى هذه الجهة وتلك. في يده الصغيرة الأنيقة كلمات تقول «كامارا، أنا سعيد أننا صرنا عائلة واحدة. تحياتي».

«نسيتُ أن أعطيكِ إياها الجمعة الفائتة، يا كامارا. لذلك سوف أنتظرُ حتى يوم الغد لأعطيكِ إياها، أوكي؟» قال جوش، بوجهٍ رزين.

«حسناً، يا جوش». قالت كامارا. كانت تنظف صحنَه بالماء لتضعَه في غسّالةِ الصحون.

أخذ نيل البطاقة من جوش. «هل تعلم، يا جوش» قال، ثم أعاد له البطاقة، «أمرٌ في غاية اللطف أن تعطي هذه لكامارا، لكنّ كامارا مربّية، وصديقة، والبطاقة هذه عائلية».

«الآنسة (ليه) قالت لي يجوزُ أن أعطيها إياها».

نظر نيل إلى كامارا، كمن يبحث عن مساعدة، لكن كامارا أشاحتْ بوجهها، وراحت تركّز على فتح غسّالة الصحون.

«هل نذهبُ الآنَ، يا بابا؟» سأل جوش.

«بالتأكيد».

وقبل أن يغادرا، قالت كامارا «حظاً سعيداً، غداً، يا جوش».

نظرت كامارا إليهما، وهما يبتعدان بسيارة نيل، من ماركة جاغوار. ثم بدأت قدماها تحثّانها للنزول على الدرج، والطَرْق على باب تريسي، واقتراحِ أن تقدّم لها شيئاً ما، كالقهوة، أو كأس من الماء، أو سندويشة، أو تقدّمَ نفسَها. في غرفة الحمام، سوّتْ جدائل شعرها، ولمست أحمر شفاهها، وكحل رموشها، ثم بدأت تنزلُ الدَرَج، المؤدّي إلى القبو.

توقّفتْ مرّاتٍ عديدةً، وعادت إلى الوراء، مرّات عديدة. لكنّها، في نهاية المطاف، اندفعت نحو الأسفل، وطرقت الباب. طرقتْ مرّةً، بعد أخرى.

فتحت تريسي الباب. «ظننتُ أنكِ غادرتِ» قالت، وبدتْ ملامحها بعيدة. كانت ترتدي تي شيرت عتيقاً، وبنطلون جينز، ملطّخاً بالدهان. حاجباها كثان جداً، ويمكن على الفور الاستنتاج بأنهما زائفان.

«كلاّ»، كامارا شعرت بالإحراج. لكن لسان حالها كان يقول «لماذا لم تصعدي الدرج منذ يوم الإثنين من الأسبوع الماضي؟ ولماذا لم تبرقْ عيناكِ لدى رؤيتكِ لي؟

«نيل وجوش غادرا إلى العرض. وأنا أرسمُ شارةَ الصليب لكي يُوفّق جوش غداً».

«نعم». ثمة شيء ما في سلوكها جعل كامارا تخشى أنه شيء من انزعاج وفقدان الصبر.

«أنا متأكدة أنّ جوش سوف يفوز»، كامارا قالت.

«هذا ممكنٌ تماماً».

بدت تريسي وكأنها تتراجع إلى الوراء، وكأنّها على وشك أن تغلق الباب.

«هل تريدين شيئاً؟» سألتْ كامارا.

ابتسمت تريسي ابتسامةً بطيئة. مشت إلى الأمام، الآن، واقتربت أكثر من كامارا، اقتربت أكثر، حتى صار وجهها ملاصقاً لوجه كامارا. «ينبغي أن تخلعي ملابسكِ من أجلي».

«نعم». وظلّت كامارا تبلعُ معدتها، حتى قالت تريسي، «حسناً. لكن ليس اليوم. اليوم غير مناسب،» ثم توارت في أرجاء القبو.

حتى قبل أن تنظر كامارا إلى جوش، في ظهيرة اليوم التالي، عرفت على الفور أنه لم يفزْ. كان يجلس قبالة صحن من البسكويت، ويشرب

كأساً من الحليب، ونيل يقف إلى جانبه. وثمة فتاة شقراء، جميلة، ترتدي بنطلون جينزٍ ضيّقاً، تنظرُ إلى صور جوش المعروضة على باب الثلاّجة.

«مرحباً، كامارا. لقد عدنا للتوّ»، قال نيل. «كان جوش رائعاً. كان، بالفعل، يستحقّ أن يفوز. كان، بوضوح، الطفل الذي عمل بجدّ، أكثر من الجميع».

مسدت كامارا بأصابعها شعر جوش. «مرحباً، يا جوشي!».

«هاي، كامارا» قال جوش، ووضع قطعة بسكويتٍ في فمه.

«هذه مارِنْ»، قال نيل. «إنها معلّمة جوش للّغة الفرنسية»

قالت المرأة مرحباً، وصافحت يد كامارا، ثم ذهبت إلى الصالون. كان بنطلون الجينز يلتصق بشدّة بين فخذيها، بينما حوافّ وجهها مبقّعة بظلال كرزية، فاقعة من الحمرة، ولم تكن تشبه في شيء ما كانت تتخيّلُه كامارا عن مدرسةِ لغةٍ فرنسية.

«مسابقة درس القراءة السريعة التهمَت وقت درسِهما، فقلتُ، ربّما ستكون فكرة جيّدة لو أنّهما يأخذان الدرس، هنا، ومارن اللّطيفة لم تمانعْ في ذلك. لا ضير في هذا، يا كامارا، أليس كذلك؟» سأل نيل.

«بالطبع». وفجأةً أحبّتْ نيل ثانيةً، وأحبّت الأباجورات التي فصدتْ ضوءَ الشمس المتسلّل نحو المطبخ، مزقاً صغيرةً، وأحبّت وجودَ معلّمة اللغة الفرنسية هنا، إذ عندما يبدأ الدرسُ، ستهرعُ لتنزل الدرج، وتسأل تريسي إن كان الوقت قد حان لتخلع ملابسها، بعد أن ارتدتْ حمّالة صدرٍ، جديدة، وردية اللّون.

«أنا قلق» قال نيل. «أعتقد أنّني أواسيه بجرعة زائدة من السكّر. لقد أكل قطعتين من الكراميل. كما أننا تناولنا الحلوى في مكان آخر». كان نيل يهمسُ همساً، رغم أنّ جوش كان على مقربة منه، ويمكنه أن يسمع. إنها النبرة الخافتة ذاتها، التي لا ضرورة لها، والتي كان نيل قد استخدمها ليخبرها عن الكتب، التي تبرع بها للصف الابتدائي في (تيمبل بيث

هيلليل)، وهي كتب تتحدث عن يهود أثيوبيا، وبداخلها صور توضيحية لأناس تبدو بشرتهم بلون الأرض المحترقة، لكن جوش قال إنّ المعلّم لم يقرأ قط الكتب على الطلاب. تذكّرتْ كامارا الطريقة التي أمسك بها نيل يدها، بلطفٍ بالغ، حين قالت، «سيكون جوش بخير» وكأنّ كلّ ما كان يحتاجه نيل هو أن يسمع أحداً يقول تلك العبارة.

الآن، قالت كمارا، «سوف يتجاوز تلك العثرة».

أومأ نيل برأسِهِ هادئاً. «لا أعلم».

مدّت يدها وضغطت على يد نيل. شعرت بأنها طفحتْ بسخاء الرّوح.

«شكراً، يا كامارا». صمتَ نيل للحظة. «الأفضل أن أذهب الآن. سوف أتأخّر اليوم. هلاّ تفضلتِ بتحضير العشاء؟».

«بالطّبع». ابتسمتْ كامارا ثانيةً. ربما سيكون أمامها متسع من الوقت للنزول إلى القبو، بينما يتناول جوش عشاءه، وربما سوف تطلب منها تريسي بأن تمكث، وسوف تتصل بتوبيتشي، وتخبره أن ثمة طارئاً قد حدث، وأنها ستبقى بالقرب من جوش، هذه الليلة. الباب المؤدّي إلى القبو انفتحَ على مصراعيه. حماسةُ كامارا جعلت النبضَ يعلو حول صدغيها، ويتصاعدُ الخفقانُ أكثر، حين ظهرت تريسي، مرتديةً جراباتها الطّويلة الضيقة، وقميصها الملطّخ بالدهان. عانقتْ وقبّلتْ جوش. «مرحباً، يا روحي، أنت الفائز الأول، الفائز الخصوصي».

غمرت السعادةُ كامارا لأنّ تريسي لم تقبّلْ نيل، وأنّهما قالا، «مرحباً، يا أنتَ»، كلٌّ إلى الآخر، وكأنّهما أخ وأخت.

«مرحبا، يا كامارا،» قالت تريسي، وقالت كامارا لنفسها إن السبب الذي جعل تريسي تبدو عادية تجاهها، وغير سعيدة على الإطلاق لرؤيتها، هي أنها لا تريد لنيل أن يعرف شيئاً.

فتحت تريسي الثلاجة، وأخذت تفّاحة، وتنهدت، «خيالي توقّف. توقّف تماماً»، قالت.

«كلّ شيء سيكون على ما يرام»، تمتم نيل. ثم رفع صوته، بحيث تستطيع المعلمة مارن، في غرفة الصّالون أن تسمعه، وأضاف، «لم تقابلي مارن، أليس كذلك؟».

وعرّفهما نيل، الواحدةَ إلى الأخرى. مدّت مارن يدها، وصافحتها تريسي.

«هل ترتدين عدسات لاصقة؟» سألت تريسي.

«عدسات لاصقة؟ كلاّ».

«عيناكِ الأكثر جمالاً. إنهما بلون البنفسج». كانت تريسي لا تزال تمسك يدَ مارن.

«أوه، شكراً!» ضحكت مارن على استحياء.

«إنهما حقاً بلون البنفسج».

«أوه ...نعم، أظنُّ ذلك».

«هل سبق أن وقفتِ أمام رسّامٍ؟».

«أوه...كلاّ» غمغمتْ مارن.

«ينبغي أن تفكّري بهذا».

رفعت التفّاحة إلى شفتيها، وقضمت نهشةً صغيرةً، ونظراتها لا تفارقُ وجهَ مارن. كان زوجها، نيل، يراقبهما بابتسامةٍ فرحة، بينما لم تجدْ، كامارا، أمامها سوى أن تشيحَ بوجهها بعيداً. جلستْ قرب جوش، وتناولتْ قطعةَ بسكويتٍ من صحنِهِ الصغير.

ورشة للكتابة في:
جمبينغ مونكي هيل

للأكواخِ جميعها سقوفٌ من قشّ، وأسماء من مثل «مسكنُ البابون» و«مكان الشّيهم» مكتوبة، يدوياً، بطلاء الدهان، فوق الأبواب الخشبية التي تؤدّي، خارجاً، إلى الدروب المرصوفة بالحصى. النوافذ تُركت مفتوحة على مصاريعها، بحيث يستيقظ الضيوف على صوت حفيف ورق النارنج، والإيقاعِ الثابت، اللّطيف، لأمواجِ البحر المتكسّرة. فوق صواني الأملود خياراتٌ شتى من الشاي الفاخر. خلال منتصف الصباح، وصيفات أنيقات، سوداوات البشرة، يرتّبن الأسرة، وينظّفن الحمّامات اللمّاعة، وينفضن السجّاد، ويتركْن زهوراً برّيةً في أباريق خزفية، مصنوعة يدوياً. يوجونوا وجدت الأمر غريباً، أي أن تُقام ورشة الكتابة الإبداعية، هنا، في «جمبينغ مونكي هيل»، القريبة من كيب تاون. الاسم ذاته يفتقر للانسجام، والمنتجع يشيعُ جواً من الرخاء المرتبط بالثراء، وهو المكان الذي تخيّلت أن السيّاحَ، الأجانبَ، الأثرياء، يتوافدون إليه، ويتجوّلون، لأخذ صور السحالي، ثم يعودون إلى أوطانهم، غير مدركين، على الأغلب، أنّ عدد السكان السود أكبر بكثير من عدد السحالي، في جنوب أفريقيا. لاحقاً، سوف تعلم أنّ إدوارد كامبل هو الذي اختار المنتجع، فقد كان يقضي عطلات نهاية الأسبوع هنا، حين عمل محاضراً في جامعة كيب تاون، منذ سنوات بعيدة.

لكنها لم تكنْ تعرفُ هذا الأمر ظهيرةَ أتى إدوارد- رجلٌ عجوزٌ،

يرتدي قبّعةً صيفيةً، وحين يبتسمُ، ينكشفُ له سنّان أماميان بلون العفنِ- لاستقبالها في أرض المطار. قبّلها على خدّيها. سألها إن كانت قد اعترضتها أي صعوبة بخصوص بطاقتها، المدفوعة الثمن، في لاغوس، وما إذا كانت تمانع بانتظار الشخص الأوغندي، الذي ستصل طائرته بعد قليل، وهل تشعر بالجوع. أخبرها أن زوجته، إزابيل، استقبلت أغلبية المشاركين في الورشة، وأنّ صديقيهما، سيمون وهيرميون، اللذين أتيا معهما من لندن، كمشرفين عامّين، لقاء أجر يُدفع لهما، سوف ينظمان غداء استقبالٍ، في المنتجع. جلسا، هو ويوجونوا، على مقعدٍ في قاعة الوصول. رفع الرّجلُ الشارةَ، التي تحمل اسم الأوغنديّ، قريبةً من كتفه، وأخبرها كيف أنّ الرطوبة عالية جداً في كيب تاون، خلال هذا الوقت من السنة، وكيف أنه راضٍ عن جميع الترتيبات الخاصة بالورشة. كان يمدّ كلماته مدّاً. إنها اللكنة التي يسمّيها الإنكليز «أنيقة»، وهي اللكنة ذاتها التي يحاول بعض النيجيريين الأثرياء تقليدها، لكنهم غالباً ما يفشلون، وتصير لكنتهم مضحكة، من دون قصد. تساءلت يوجونوا ما إذا كان هو الشخص عينه الذي اختارها لتشارك في الورشة. ربّما لا. المركز الثقافي البريطاني هو الذي قام بالاتصالات، ومن ثم اختار الأفضل.

تحرك إدوارد قليلاً، وجلس بالقرب منها. سألها عما تقوم به في نيجيريا. أجبرت يوجونوا نفسها على التثاؤب، وتمنّتْ لو أنه يتوقّف عن الكلام. كرر سؤاله، وأراد أن يعرف ما إذا كانت قد حصلت على إذن من عملها لحضور الورشة. كان ينظر إليها بتمعّنٍ شديد. لقد قدّرتْ عمره بين الخامسة والستين والتسعين عاماً. لم تستطع أن تخمن عمره من ملامح وجَهه. وجهُهُ مريحٌ، لكن بلا تشكيل محدّد، وكأن الله، حين خلقه، ضرب الحائط به، وشتّت ملامحه فوق صفحة وجهه. ابتسمت بغموض، وقالت إنها خسرت عملها قبل وقت قليل من مغادرتها لاغوس- عملاً له علاقة بالبنوك- وبالتالي لم تكن بحاجة للحصول على إذن. تثاءبت ثانيةً. لكنه

بدا مصراً على معرفة المزيد، لكنها لم تكن ترغب بقول المزيد، ولذلك، حين نظرت إلى البعيد، ورأت الأوغندي قادماً، تنفّست الصعداء.

بدا الأوغنديّ ناعساً، في أوائل الثلاثينيات من العمر. وجههُ مستطيلٌ، وبشرته داكنة. شعره أشعث، غير مسرّح، مع كراتٍ صغيرة شديدة التعرّج. انحنى بجذعه حين صافح يد إدوارد بكلتا يديه، ثم استدار، وغمغم، ملقياً التحية على يوجونوا. جلس في المقعد الأمامي من سيارة الرينو التي تقلهم. الرحلةُ إلى المنتجع طويلة، فوق طرقات محفورة عشوائياً، وحول هضاب شديدة الانحدار، وقد شعرت يوجونوا بالخشية كيف أن إدوارد، الهرم جدّاً، يقودُ السّيارة بهذه السرعة. حبستْ أنفاسها حتى وصلوا أخيراً، إلى صفوف من سقوفِ القشّ، والدّروبِ النظيفة. امرأة شقراء مبتسمة، دلّتها إلى كوخ إقامتها، واسمه زيبرا لير، وبداخله سرير بأربع وسائد، تفوح منها رائحة الخزامى. جلست يوجونوا على حافة السرير، للحظة، ثم نهضتْ لتفكّ حقائبها، ناظرة، بين الحين والحين عبر النافذة، باحثة بين سرادق الشّجر عن القرود المختبئة.

اختفت، ولم يعد لها من أثر، لسوء الحظّ، قال إدوارد للمشاركين، لاحقاً، بينما كان الجميع يتناول الغداء، تحت مظلات بنفسجية اللون، على الشرفة الواسعة، خلف الطاولات القريبة من درابزين الحافّة، وهذا أتاح الفرصة للنظر نحو الأسفل، صوب البحر التركوازي الأزرق. ثم أشار إلى كلّ شخصٍ، بمفرده، وارتجل مقدمةً قصيرة عنه. المرأة الجنوب أفريقية، ذات البشرة البيضاء، جاءت من دوربان، بينما الرجل الأسود أتى من جوهانسبرغ. الرجل التنزاني أتى من أروشا، والرجل الأوغندي من إينتيب، والمرأة الزيمبابوية من بولاويو، والرجل الكيني من نيروبي، والمرأة السنغالية، الأصغر سناً، وعمرها ثلاثة وعشرون عاماً، قدمت من باريس، حيث تتابع دراستها الجامعية. ثم قدم إدوارد يوجونوا، في آخرِ القائمة: «يوجونوا أوغندو هي ضيفتنا المشاركة من نيجيريا، وتعيش في لاغوس». نظرت يوجونوا حول الطاولة، وتساءلتْ

من سيكون من بين المشاركين الأقرب إلى قلبها. المرأة السنغالية هي المرشحة الأقوى، باللمعانِ الجريء في عينيها، واللّكنة الفرنكوفونية في صوتها، وخصلات الشعر الفضية، المنسدلة، مع جدائل شعرها الكثيف. المرأة من زيمبابوي لها جدائل أكثر طولاً، لكن الأقلّ كثافةً، بينما الخرز العالق حول الخصلات، يرنّ كلّما حركتْ رأسَها، من جانبٍ إلى آخر. بدت مفرطةً في نشاطها، وأكثر حيوية، وظنّت يوجونوا أنها يمكن أن تستسيغ صحبتها، ولكن بالطريقة نفسها التي تستسيغُ فيها الكحول- بجرعات قليلة فحسب. الكينيّ والتنزانيّ ظهرا عاديين، وتقريباً لا يمكن التمييز بينهما- رجلان طويلان بجبهتين عريضتين، كلٌّ يربّي لحيةً شعثاء، ويرتدي قميصاً مخطّطاً، بأكمامٍ طويلةٍ. ظنّت أنها يمكن أن ترتاح لهما، بالطريقة الحيادية ذاتها التي يحبُّ فيها المرء الناس المسالمين. لم تستطع أن تتأكّد من انطباعها عن المشاركَين الاثنين من جنوب أفريقيا. المرأة البيضاء توحي بحدّية مبالغ فيها، بوجهها الصارم، الذي لا أثر فوقه للماكياج، والرّجل الأسودُ بدا رزيناً، صبوراً، مثل أحد شهود يهوه ممن يذهبون من منزلٍ إلى منزلٍ، ويبتسمون إذا أغلق أحدٌ باباً في وجهه. أما بالنسبة للرجل من أوغندا، فقد كرهته يوجونوا، منذ أن رأته في المطار، وازدادت كراهيتها له، الآن، بسبب إجاباته المتملقة على أسئلة إدوارد، والطريقة التي كان ينحني فيها إلى الأمام، فقط لكي يكلّم إدوارد، ويهمل المشاركين الآخرين. وهم بدورهم لم يتحدثوا إليه إلا لماماً. الجميع عرف أنه كان آخر الفائزين بجائزة ليبتون للكتّاب الأفارقة، التي تصل قيمتها إلى خمسة عشر ألف جنيه إسترليني. ولذلك، لم يُشركوه في أحاديثهم المهذّبة عن مواعيد طائراتهم.

بعد أن تناولوا الدجاجَ الطريَّ، المبهّر بالأعشاب، وبعد أن شربوا المياه المتلألئة، المعبأة في قوارير زجاجية، نهض إدوارد لكي يلقي خطاب الاستقبال. رمش كثيراً أثناء القراءة، بينما شعره الخفيف يتطاير في النسيم الذي تفوح منه رائحة البحر. بدأ بإخبارهم بما يعرفونه للتوّ-

أنّ الورشة ستكون لمدة أسبوعين، وأن الفكرة فكرته، لكن تمويلها جاء بسخاء من مؤسسة شامبرلين للفنون، مثلما كانت جائزة ليبتون للكتاب الأفارقة فكرته أيضاً، والتي موّلها أناسٌ أفاضل في المؤسّسة، ويُنتظرُ من كل مشارك أن يكتب قصة واحدة، لنشرها في مجلة (أوراتوري)، وبأنّ أجهزة الحاسوب المحمول سوف توزع عليهم داخل الأكواخ، وبأنهم سيبدؤون الكتابة خلال الأسبوع الأول، ومن بعدها يراجعون عمل كلّ مشارك، خلال الأسبوع الثاني، وبأنّ الأوغنديّ سيكون المنظّمَ العامّ للورشة. ثم تحدث عن نفسه، وكيف أنّ الأدب الأفريقي كان قضيته، على مدى أربعين عاماً، وهو شغف حياته الذي بدأ في جامعة أكسفورد. غالباً ما كان يوجه نظراته إلى الأوغنديّ، وهذا بدوره كان يهزّ له رأسه، علامةً على الموافقة، في كلّ مرّة. ثم قدم إدوارد زوجته، إيزابيل، رغم أن الجميع سبق أن قابلها. قال لهم إنها ناشطة في مجال حقوق الحيوان، وعاشقة قديمة لأفريقيا، وقد أمضت سنوات صباها في بوتسوانا. بدا فخوراً، حين نهضت عن كرسيها، وكأنّ طولها، وسماحة وجهها، قد عوّضا ما كان يفتقر إليه في مظهره العامّ. شعرها مصبوغٌ بالأحمر الخافت، ومقصوص، ما جعل الخصلات القصيرة تؤطّر وجهَها. مسّدته وقالت: «إدوارد، حقاً، مقدّمة». يوجونوا، مع ذلك، تخيلت أن إيزابيل أرادت تلك المقدّمة، بل حتى أنها ذكّرت إدوارد بها، قائلة، الآن، يا عزيزي، تذكر أن تقدّمني على نحو لائق، خلال الغداء. ولابدّ أنّها همستْ ذلك همساً.

في اليوم التالي، على الفطور، استعملتْ إيزابيل تلك اللّكنة عينها حين جلست بالقرب من يوجونوا، وقالت، بالتأكيد، ونظراً لذاك التناسق الدقيق في العظام، لابدّ أن يوجونوا تنحدرُ من عائلة ملكيةٍ في نيجيريا. وأول شيء خطر في بال يوجونوا هو أن تسأل إذا كانت إيزابيل قد احتاجت، على الإطلاق، إلى دم ملكي، كي تشرح وسامة أصدقائها وصديقاتها، في لندن. لم تسأل هذا، لكنها قالت -لم تستطع أن تقاوم-

إنها، حقّاً، أميرة، وتنحدر من أسرة عريقة، وأنّ أحد أجدادها ألقى القبض على تاجر برتغالي، في القرن السابع عشر، واحتفظ به، مزيّناً ومدلّلاً، داخل قفص ملكي. توقّفت لتأخذ رشفةً من عصير التوت البري، وتبتسمُ ناظرةً إلى كأسها. قالت إيزابيل، مشرقة الوجه، إنها تستطيع دائماً أن تكتشف الدم الملكي، وتمنّت لو أنّ يوجونوا تساعدها في حملتها ضدّ الصيد الجائر، وكم هي مرعبة، مرعبة حقاً معرفةُ عدد القرود، المعرّضة للانقراض، والتي يقتلها البشر، ولا يقومون حتى بأكلها، وأن لا تصدّق كلّ الاحاديث التي تدورُ عن لحاء الشجر، فهم استخدموا الأجزاء الخاصّة، لغاياتِ التجميل.

بعد الفطور، اتّصلت يوجونوا بأمّها، وأخبرتها عن المنتجع، وعن إيزابيل، وغمرتها السعادة حين قهقهتْ أمها عالياً. أغلقت تلفونها، وجلست أمام الحاسوب المحمول، وفكّرت كم مرّ وقتٌ طويلٌ لم تسمعْ أمها تضحكُ حقاً. جلست هناك لمدة طويلة، تحرّكُ فأرة الحاسوب، من جانب إلى جانب، محتارةً ما إذا كان يجب أن تسمّي شخصيتها اسماً شائعاً، مثل تشيوما، أم شيئاً غرائبياً، مثل إيباري:

(تعيش تشيوما مع أمّها في لاغوس. تحمل شهادةً في الاقتصاد من جامعة نسوكي، وقد انتهت مؤخراً من أداء الخدمة الوطنية للشباب. تشتري جريدة الغارديان كلّ يوم خميس، وتتفحّص قسمَ الإعلانات عن فرص العمل، وترسلُ شهادتها، وأوراقها، داخل مغلّفات رمادية وأرجوانية. ولا تسمعُ شيئاً، خلال أسابيع. في النهاية، تتلقى اتصالاً هاتفياً، يدعوها لإجراء مقابلة. بعد بضعة أسئلة أوّلية، يقول الرجل إنها مقبولة، ثم يمشي عبر الغرفة، ويقف خلفها، ويمدّ يديه إلى كتفيها، ويحاول لمس نهديها. لكنّها تنتفض قائلةً، «أيها الأحمق! أنت لا تحترم نفسك!» ثم تغادرُ. أسابيع من الصمت تعقبُ هذا. إنها تساعد والدتها في محلّ الملابس. ترسلُ المزيدَ من الرسائل. في المقابلة القادمة،

تتحدثُ المرأةُ إليها بأكثر اللكنات سخفاً وزيفاً، لم تعهد تشيوما مثيلاً لها. تقول إنها تبحث عن شخص نال شهادةً من الخارج، وتشيوما كادتْ تضحكُ، حين همت بالمغادرة. المزيد، المزيد من أسابيع الصمت. لم تر تشيوما والدها منذ أشهر، لكنها تقرر الذهاب إلى مكتبه الجديد في فيكتوريا آيلاند كي تطلب منه المساعدة في الحصول على عمل. اللقاء بينهما عصيبٌ. «لماذا لم تأتِ منذ الحادثة؟» يقول، متظاهراً بأنه غاضب، لأنها تعرف أنه من الأسهل عليه أن يكون غاضباً، ومن الأسهل أن يكون المرءُ غاضباً من الناس، بعد إلحاق الأذى بهم. يقومُ ببعض الاتصالات. يعطيها لفافة رقيقة من فئة المئتي نيرة (ليرة). لا يسألها بتاتاً عن والدتها. وتلفت نظرها صورةُ المرأة الصفراء فوق مكتبه. كانت أمها قد وصفتها لها على أكمل وجه: «فاتحة البشرة جدّاً، وتبدو خليطاً عرقياً، والشيء اللافت هي أنها ليست جميلة، ولها وجهٌ يشبه الإجاصة الناضجة.»)

الشمعدان، في غرفة العشاء الرئيسية، في «جمبينغ مونكي هيل»، يتدّلى واطئاً جدّاً، حتّى أنّ يوجونوا تستطيعُ أن تمدّ يدها، وتلمسه بأصابعها. جلس إدوارد على الطرف الأقصى من الطّاولة، الطويلة، المغطاة بالقماش الأبيض، وإيزابيل، جلست على الطرف الأقصى الآخر، وبينهما جلس المشاركون. أرض المكان الخشبية تطقطق تحت أقدام النادل، جيئةً وذهاباً، بينما كان يضع دفاتر قائمة الطّعام على الطّاولة. شرحاتُ النعامة. سمكُ السلمون المدخّن. دجاجٌ بصلصة البرتقال. حثّ إدوارد الجميع على تناول النعامة. إنها ببساطة خلاّبة. يوجونوا لم ترق لها فكرة أكل نعامة، ولم تكن تعلم أصلاً أن الناس يأكلون النعامة، وحين قالت هذا، ضحك إدوارد، بنية طيبة، وقال بالطبع النعامة طبق أفريقي فاخر. الجميع، ما عداها، طلب طبق النعامة. وحين أتت وجبة يوجونوا، بالدجاج والحمضيات، فكّرت ما إذا كان يجب أن تغيّر رأيها، وتطلب طبق النعامة. بدت شرحات الدجاج كأنها لحم

عجل، على أي حال. شربتْ كمية أكبر من الكحول، أكثر مما فعلت في أي مرة من قبل، في حياتها. كأسان من النبيذ، جعلتاها تسترخي، وتبدأ حديثاً مع السنغالية، حول أفضل الطرق للعناية بشعرٍ أسود طبيعي: لا تستخدمي منتجات السيليكون؛ أكْثري من زبدة الكمثرى؛ وسرّحي شعركِ، فقط حين يكون رطباً. وتناهى إلى سمعها شذرات حديثٍ، حين تكلّم إدوارد عن النبيذ: تشاندوري مملٌ بشكلٍ فظيع.

بعدئذٍ، تجمع المشاركون في مقصورة الحديقة -باستثناء الأوغندي الذي بقي مع إدوارد وإيزابيل. طاردوا الحشرات الطّائرة، وشربوا النبيذ، وضحكوا، وناكفَ أحدهم الآخر: أنتم الكينيون مطواعون جداً! وأنتم النيجيريون عدوانيون! وأنتم التنزانيون ليس لديكم حسّ الموضة! وأنتم السنغاليون أدمغتكم مغسولة بسبب الفرنسيين! وتحدّثوا عن الحرب في السودان، وعن تدهور «سلسلة الكتاب الأفارقة»، وعن الكتب والكتّاب. اتفقوا على أنّ دامبودزو ماريتشيرا مدهشٌ، وآلن باتون مجاملٌ، واسحق دينسين غير قابل للصفح. الكينيُّ استعار لكْنةً أوروبيةً بنيويةً، وبين نفثاتِ سيجارته، قرأ ما كان اسحق دينسين قد قاله عن جميع أطفال «كيكويو»، وهم أكبر جماعة إثنية في كينيا، بأنهم أصبحوا جميعاً متخلّفين عقلياً، منذ سنّ التاسعة. ضحك الجميع. المرأة من زيمبابوي قالت عن الكاتب أتشيبي بأنه مملّ، ولم يقدّم جديداً على صعيد الأسلوب، والكينيُّ قال إنّ هذا تدنيس للمقدّسات، وخطفَ كأسَ نبيذ الزيمبابوية، حتّى ارتدّتْ عن رأيها، ضاحكةً، قائلةً بالطّبع أتشيبي يمثل الرفعة الفنية. السنغالية قالت إنها كادت تتقيأ حين أخبرها بروفسور في السوربون بأنّ كونراد كان حقّاً إلى جانبها، وكأنها لا تستطيع أن تقرّر بنفسها من يكون إلى جانبها. بدأت يوَجونوا تقفز، إلى الأعلى ومن ثم الأسفل، وتغمغمُ هراءً، وهي تقلّد أفارقة كونراد، شاعرةً بالخفّة اللذيذة للنبيذ، في رأسها. فتاة زيمبابوي ترنّحت وسقطتْ في مياه النافورة، ثم صعدت، مرتجفةً، خصلات شعرها رطبة، وقالت إنّها شعرت بسمكة تتلوى هناك، في أسفل البركة. الكينيُّ

قال إنّه سوف يستخدمُ هذا في قصّته - سمكة في نافورةِ منتجعِ باذخٍ- بما أنه ليس لديه فكرة أبداً حول عمّا يريد أن يكتبه. السنغالية قالتْ إنّ قصّتها، هي، حقّاً قصّة جرت معها، وكيف أنها أمضتْ حداداً على صديقتها، وكيف أن حزنها منحها جرأةً بأن تذيع سرّها إلى أهلها، رغم أنهم الآن يتعاملون معها، بوصفها سحاقية، لكنهم يعتبرون الأمر مجرد نكتةٍ ظريفة، وظلوا يتحدثون عن عائلات الشبان المناسبين للزواج منها. المشارك الأسود من جنوب أفريقيا بدا مصعوقاً لسماعه كلمة «سحاقية». نهض ومشى بعيداً. الكيني قال إن الجنوب أفريقي ذكّره بوالده، الذي كان يحضر القداديس في كنيسة «إحياء الرّوح القدس»، ولم يكن يتكلّم إلى النّاس في الشارع، لأنهم لا يستحقّون الخلاص. المرأةُ من زيمبابوي، مع التانزانية، والمرأة البيضاء من جنوب أفريقيا، والسنغالية، جميعهنّ تحدّثن عن آبائهنّ.

الجميع نظر إلى يوجونوا، وأدركت أنها كانت الوحيدة التي لم تقل شيئاً. ولبرهة، لم يكن النّبيذُ يعكّر صفو ذهنها. هزت كتفيها وغمغمت قائلةً إنه ليس هناك الكثير مما يمكن أن تقوله عن والدها. إنه مجرّد شخص عادي. «هل يعيش معك؟» سألت السنغالية، بنبرة ناعمة توحي بأنها افترضت أنه لا يعيش معها، وللمرة الأولى تشعر يوجونوا أنّ لهجتها الفرنكوفونية مزعجة بالنسبة لها. «إنه يعيش معي». قالت يوجونوا بنبرة واثقة وهادئة. «إنه هو الذي اشترى لي كتباً، حين كنتُ صغيرةً، وهو من قرأ قصائدي وقصصي الأولى». توقفت للحظة، حين كان الجميع ينظر إليها، ثم أضافت «لقد فعلَ شيئاً أصابني بالدهشة. وتسبّب لي بأذى، لكنّه أدهشني بالدرجة الأولى». نظرت السنغالية إليها، وكأنها تريد أن تعرف المزيد، لكنها غيرت رأيها، وقالت إنها ترغبُ بالمزيد من النبيذ. «هل تكتبين قصة عن والدك؟» سأل الكينيُ، وأجابت يوجونوا بكلمة «لا» حاسمة، لأنها لم تؤمن يوماً بالسّرد المتخيّل كعلاج. التانزانية قالت لها إنّ كلّ أنواع الكتابة علاج، أو شكلٌ من أشكال العلاج، بغضّ النظر عمّا يمكن أن يقوله أي أحد.

في ذاك المساء، أرادت يوجونوا أن تكتب، لكنّ عينيها كانتا تسبحان في عالمٍ آخر، ورأسها يعاني صداعاً، وما كان أمامها سوى أن تذهب إلى النومً. بعد الفطور، جلستْ أمام حاسوبها المحمول، وطلبت كأساً من الشاي.

(تتلقّى تشيوما اتصالاً من مصرف الائتمان التجاري، وهو أحد الأمكنة التي اتصل والدها بها. كان يعرف مدير الهيئة العليا. فجأةً عاد إليها الأمل. جميع الموظفين في البنوك، ممن تعرفت إليهم، يقودون سيارات «جيتا» مستعملة، جميلة، ويملكون شققاً حلوة في غباغادا. نائب المدير يجري معها المقابلة. رجلٌ داكن البشرة، حسن الطلعة، وحول نظّارتيه لاصقةٌ جميلة للمصمّم، وعندما بدأ يتحدث إليها، رغبتْ أشدّ الرغبة بأن ينتبهَ إلى وجودها حقاً. لكنه لم يفعل. قال لها إنه يرغب بأن يوظّفها في مهنة التسويق، التي تعني الذّهابَ خارجاً، وإحضارَ حسابات جديدة. سوف تعمل مع ينكا. إذا استطاعت أن تجنيٍ عشرة ملايين نيرا (ليرة)، خلال فترة التجريب، فإنه يضمن لها وظيفةً دائمةً. تهزّ برأسها بينما كان يتحدث إليها. لقد اعتادت على انتباه الرجال، لكنها انزعجت لأنه لم يكن ينظر إليها، مثلما ينظر رجل إلى امرأة، ولم تفهم بالضبط ماذا كان يعني بالذهاب خارجاً وإحضار حسابات جديدة، حتى تبدأ العمل بعد أسبوعين لاحقين. سائق يرتدي بذة رسمية يأخذها برفقة ينكا، داخل سيارة جيب رسمية، مزوّدة بتهوية باردة - تمرر أصابعها فوق مقعد ناعمٍ مصنوعٍ من الجلد، وتهمّ بالنزول على مضض- إلى منزل الحاجّ فيٍ إيكويي. الحاجّ يكره العامية، ويرسم ابتسامةً عريضة، ويبالغُ بحركات يديه، وضحكته. ينكا زارته أكثر من مرة في السابق. يعانقها، ويقول لها شيئاً يجعلها تضحك. ينظر إلى تشيوما: «هذا النوع فاخرٌ جداً»، يقول. أحدُ مساعديه يقدّمُ كؤوساً مثلّجة من بائع جوّال. الحاج يتحدث إلى ينكا، لكنه ينظر باستمرار إلى تشيوما. ثم يسأل

ينكا بأن تقترب منه أكثر، وتشرح له حسابات المدخرات، ذات الفوائد العالية، ثم يطلبُ منها أن تجلس في حضنه، وسألها إن كان قوياً بما يكفي ليحملَ جسدها؟ ينكا تقول بالطبع هو قوي، وتجلسُ في حضنه، ويفترُّ ثغرها عن ابتسامة هادئة. ينكا صغيرة الحجم، وجميلة. إنها تذكّر تشيوما بالمرأة الصفراء.

إنّ ما تعرفه تشيوما عن المرأة الصفراء هو ما أخبرته بها أمها. ففي إحدى نهارات بعد الظهر البطيئة، كانت المرأةُ الصفراء قد دخلت إلى بوتيكِ والدتها، في شارع أدينيران أوغنسانيا. أمها كانت تعرف من هي المرأة الصفراء، وتعرف العلاقة مع زوجها التي بدأت منذ سنة مضت، وتعرف أنه كان يدفع لها النقود، لشراء سيارة هوندا أكورد، وشقة لها في إلوبيجو. لكنّ ما أطاح بعقل أمها، هي هذه الإهانة: المرأة الصفراء تأتي إلى بوتيك أمها، باحثةً عن أحذية، وتخطط لتسديد ثمنها من الأموال التي تعود، في حقيقة الأمر، إلى زوجها. وبالتالي، ما كان من أمها سوى أن تغافل المرأة الصفراء من الخلف، وتصرخُ «يا خاطفة الرجال!»، وتجمهرتْ فتيات البيع، وبدأن يضربن، ويرفسْن المرأة الصفراء، قبل أن تنجح في الهروب، والالتجاء إلى سيارتها. حين سمع والد تشيوما بالحادثة، صرخ في وجه أمها، وقال لها إنها تصرفت بطريقة نسوان الشوارع الشرسات، وأنها بهدلتْ سمعته، وسمعتها، وسمعةَ امرأةٍ بريئة، من أجل لا شيء. ثم ترك المنزل. عادت تشيوما من الخدمة الوطنية للشباب، ولاحظت أن أدراج والدها خاوية. عمتها، إلوهور، وعمتها روز، وعمتها أوتشي، أتين جمعيهنّ، وقلن لأمها، «نحن مستعدات للذهاب معكِ، كي نتوسّل إليه بأن يعود، أو نذهب وحدنا، ونتوسّل بالنيابة عنكِ». والدة تشيوما قالت، «أبداً. ليس وأنا على قيد الحياة. لن أتوسّل إليه. كفى». أنبرتْ عمتي، فونمي، وقالت إن المرأة الصفراء ربطته بدواء معين، وإنها تعرف روحانياً جيّداً يستطيع أن يفكّ السحر. والدة تشيوما قالت، «كلاّ، لن أذهب». وبدأ بوتيكُ الملابسِ يتدهور،

لأنّ والد تشيوما كان يقوم باستيراد الأحذية من دبي. واضطرت لتنزيل أسعارها، ونشرت إعلانات في مجلتي (الغبطة) و(أناس المدينة)، وبدأت تكدس أحذيةً صُنعت في آبا. وكانت تشيوما ترتدي زوجين من هذه الأحذية، في ذاك الصباح، حين جلست في غرفة الجلوس، وقابلت الحاجّ، ورأت ينكا، الجالسة فوق الحضن الواسع، تتحدّثُ عن أرباح حسابات التوفير، مع مصرف الثقة التجاري.)

في البداية، حاولت يوجونوا ألا تلاحظ أنّ إدوارد يواظبُ النظر إلى جسدها، وأنّ عينيه ليستا أبداً على وجهها، بل إلى أسفل. بدأت أيامُ الورشة تسقط في الروتين، فالطور في الثامنة، والغداء في الواحدة، والعشاء في السادسة، في الغرفة الرئيسية الكبرى. في اليوم السادس، وهو يوم حارّ، قائظ، وزّع إدوارد نسخاً من أوّل قصّة ينبغي أن تُراجع، كتبتها المرأةُ من زيمبابوي. كان جميع المشاركين يجلسون على الترّاس، وبعد أن انتهى من توزيع النسخ، لاحظت يوجونوا أن جميع المقاعد تحت المظلات باتت محجوزةً.

«لا مانع لديّ من الجلوس تحت الشّمس» قالت، بينما كانت تهمّ بالنهوض. «هل تريدني أن أقفَ، وأساعدكَ، يا إدوارد؟».

«أفضّلُ أن تستلقي، من أجلي،» قال. اللحظةُ عاليةُ الرّطوبة، ودبقةٌ، وثمة صوتُ عصفورٍ يغرّدُ في البعيد. كان إدوارد ما يزال يبتسم. فقط الأوغندي والتانزاني سمعا ما قال. ويوجونوا ضحكت، لأنّ العبارة مضحكة، وذكية، قالت لنفسها، حين يفكّر المرءُ ملياً بها. بعد الغداء، خِرجت تتمشى مع المرأة من زيمبابوي، وتوقفتا لجمع الصدف عن شاطئ البحر. أرادت يوجونوا أن تخبرها بما قاله إدوارد لها. لكن فتاة زيمبابوي بدت شاردة، وغير ميالة لتبادل الأحاديث، على غير عادتها. ربما كانت قلقة بشأن قصتها. في ذلك المساء قامت يوجونوا بقراءة نصها. واعتبرت أن الكتابة متخمة بالتنميق، لكنّ القصة شيقة، وكتبت

على الهامش مقترحات حذرة، وبعض عبارات التقييم. القصة مألوفة وساخرة، عن معلم ثانوية في هاراري، أخبره كاهن الكنيسة، بأنه وزوجته، لن يُرزقا بطفل حتى ينتزعا اعترافاً من السّاحرات، اللواتي ربطن رحمَ زوجته. وباتا مقتنعين بأنّ الساحرات لسْنَ سوى جيرانهما، في الباب المقابل، وكانا، كلّ صباح، يصلّيان، بصوت عالٍ، وهما يرميان قنابل لفظية، عن الروح القدس، من فوق السياج.

بعد أن قرأت الزيمبابوية مقتطفاً، في اليوم التالي، سادَ صمتٌ وجيزٌ حول طاولة العشاء. ثم تحدّث الرّجل من أوغندا، وقال إنّ نثرها يضمرُ طاقةً كبيرة. المرأة البيضاء من جنوب أفريقيا هزّت رأسها، موافقةً بحماسة. الكينيُّ لم يوافق. بعض الجمل تجهدُ لكي تبدو أدبيةً، كما قال، وقرأ جملةً واحدةً كمثال على ذلك. الرّجل من تانزانيا قال ينبغي النظر إلى القصة ككل متكامل، وليس كأجزاء مبعثرة. نعم، وافق الكيني، لكن ينبغي على الجزء أن يكونَ ذا معنى، من أجل أن يشكّل كلاًّ ذا معنى. ثم تحدّث إدوارد. الكتابة، من دون شكّ، طموحة، لكنّ القصة نفسها تتوسّلُ السؤال «ما الغرض؟» ثمة ما يمكن وصفه «بالبالي»، أو ما عفا عليه الزمن، في القصّة، قياساً بالأشياء الأخرى المرعبة التي تحدث في زيمبابوي في ظلّ حكم موغابي الغاشم. حدّقت يوجونوا، ملياً، بإدوارد. ما الذي عناه بكلمة «البالي»؟ كيف يمكن لقصة تنضحُ بالحقيقيّ أن تكون بالية؟ لكنها لم تسأل عن المغزى من وراء كلمات إدوارد، والكيني لم يسأل، أيضاً، والأوغندي لم يسأل، وكلّ ما فعلته المرأة من زيمبابوي، هو أن ترفع خصلات مجدولة من شعرها، بعيداً عن وجهها، بينما رنينُ الخرزِ يُسمع بوضوح. أما الآخرون فظلوا صامتين. بعد مرور وقت قصير، بدأ الجميع يتثاءبُ، ويقول، طابت ليلتكم، ويمضي كلّ امرئٍ إلى كوخِهِ.

في اليوم التالي، لم يتحدّثوا عن مجريات الليلة الفائتة. تحدّثوا عن البيض المقليّ، المنفوش، وعن الحفيف الخافت، المقلق، لشجر النّارنج، خلف نوافذهم، أثناء اللّيل. بعد العشاء قرأت السنغاليةُ مقاطعَ

من قصتها. كان ليلاً، هبت فيه ريحٌ قوية، ما اضطرهم لإغلاق الباب، وإسكات عويلِ الشّجرِ في الخارج. الدخانُ المتصاعدُ من غليون إدوراد ملأ سقف المكان. قرأت السنغالية صفحتين عن وصف مشهد الجنازة، تخلّلها وقفات قصيرة لأخذ جرعات من الماء، وبدأت نبرة صوتها تزدادُ سماكةً، كلما ازدادَ انفعالها، وصار حرف «t» يُلفظ كحرف «z». بعد ذلك التفت الجميع إلى إدوارد، وحتى إلى الأوغندي، الذي بدا وكأنّه نسي بأنه مدير الورشة. أخذ إدوارد نفثات متأملة من غليونه، قبل أن يقول إنّ قصصاً عن المثلية الجنسية لا تعكس، حقاً، طبيعة قارّة أفريقيا.

«أي أفريقيا»؟ قالت يوجونوا، مندهشةً.

الرجل الأسود من جنوب أفريقيا تزحزح قليلاً عن مقعده. إدوارد أخذ نفثات أعمق من غليونه. ثم نظر إلى يوجونوا، كمن ينظر إلى طفلة رفضت أن تبقى هادئة، داخل الكنيسة، وقال إنه لم يكن يتحدّث كمختصّ بشؤون أفريقيا، أو كأكاديميّ، تلقّى تدريبه في أكسفورد، بل كواحدٍ تعنيه كثيراً أفريقيا الحقيقية، وليس إسقاط أفكار غربية على قضايا أفريقية. المشاركون من زيمبابوي وتانزانيا، وجنوب أفريقيا، جميعاً، ظلوا يهزّون برؤوسهم، أثناء الحديث الذي كان يدلي به إدوارد.

«قد تكون هذه سنة 2000، بالفعل، ولكن إلى أي حدّ يمكن وصف هذا بالشيء الأفريقي أن تقول إحداهنّ لعائلتها إنها مثلية الجنس؟» سألَ إدوارد.

انفجرت السنغالية بوابل من الفرنسية غير المفهومة، وبعد دقيقة، هدأ خطابها، وقالت بانسيابية أكبر، «أنا سنغالية! أنا سنغالية!» ردّ إدوارد بِفرنسية لا تقلّ نعومةً، ثم قال بالإنكليزية، بابتسامة خفيفة، «أعتقد أنها احتست المزيد من نبيذ بوردو الفاخر». وقهقه بعض المشاركين.

يوجونوا كانت أول من غادر. كادت تقترب من كوخها، حين سمعت صوتاً يناديها، فتوقّفت. إنه المشارك من كينيا، وبصحبته المرأة من زيمبابوي، والمرأة البيضاء من جنوب أفريقيا. «دعونا نذهب إلى البار.»

قال الكيني. تساءلت أين ذهبت السنغالية. في البار، احتستْ كأساً من النّبيذ، واستمعتْ إليهم يتحدثون كيف أنّ الضيوف الآخرين في جمبينغ مونكي هيل -وجميعهم من البيض- كانوا ينظرون إلى المشاركين بريبة كبيرة. الكيني قال إنّ عروسين شابّين توقفا بغتة، وعادا خطوة إلى الوراء، حين اقترب منهما، في طريقه من حوض السباحة، قبل يوم فقط. المرأة البيضاء من جنوب أفريقيا قالت إنها كانت، هي أيضاً، عرضة لنظرات الرّيبة، ربّما لأنّها كانت ترتدي فقط قفطاناً عادياً. جالسةً، هناك، محدّقةً باتجاه اللّيل الداكن، في الخارج، ومصغيةً إلى الأصوات التي رقّقها النبيذُ، شعرتْ يوجونوا بنوبةٍ من مقتِ الذّات، في أسفلِ معدتِها. ما كان يجب أن تضحك حين قال إدوارد، «أفضّلُ أن تستلقي، أرضاً، من أجلي». لم تكن تلك الجملة مضحكة على الإطلاق. لم تكن مضحكةً البتّة. لقد كرهت كلّ حرف فيها، وكرهت الابتسامة الماكرة على وجهه، ومرأى أسنانه الطحلبية، والطريقة التي كان ينظر فيها دائماً نحو ثدييها، وليس وجهها، والطريقة التي تسلّقت فيها عيناه إلى كلّ زاوية من أنحاء جسدها، مع هذا جعلت نفسها تضحكُ مثل ضبعةٍ مجنونة. وضعت كأسها نصف المملوءة جانباً، وقالت، «إدوارد كان دائماً يحملق في جسدي». الكيني والزيمبابوية والجنوب أفريقية، نظروا إليها مندهشين. وكررت يوجونوا، «إدوارد كان دائماً يحملق في جسدي». الكينيّ قال كان واضحاً، منذ اليوم الأول، أنّ الرجل استخدم زوجته كعصاً متينة للتسلّق، متمنياً، في قرارة نفسه، لو أنّها يوجونوا. أمّا الزيمبابوية فأضافت أن عينيه كانتا تزدادان لمعاناً، كلّما نظرتا إلى يوجونوا، والجنوب أفريقية البيضاء قالت إن إدوارد لا يجرؤُ على النظر إلى فتاة بيضاء بالطريقة نفسها، لأنّ ما كان يشعر به تجاه يوجونوا هو بمنزلة وهم رغبوي، يخلو من الاحترام.

«جميعكم لاحظتم؟» سألت يوجونوا. «جميعكم لاحظ ذلك؟» شعرت بأنها تعرضت، بغرابة، لفعلِ خيانة. نهضتْ، وعادت إلى مقر سكنها في الكوخ. اتصلت بوالدتها، لكنّ الصوت المعدني ظلّ يردّد،

«الرقم المطلوب ليس في الخدمة الآن، حاول مرّة أخرى من فضلك،» فأغلقت الخطّ. لم تستطع الكتابة. استلقتْ على السرير، وظلّتْ سهرانةً لفترة طويلة، وحين خلدت إلى النوم، أخيراً، كان الفجرُ قد بدأ يبزغُ.

في ذاك المساء، قرأ التانزاني مقتطفات من قصته حول أعمال القتلِ في الكونغو، من وجهة نظر أحد أفراد الميليشيات، وهو رجلٌ يختزنُ عنفاً لا مثيل له. إدوارد قال إنّ القصة سوف تتصدّر مجلة (أوريتوري)، وإنها مناسبة، وقريبة من الأحداث، وإنها تنقلُ أخباراً بأمانة. يوجونوا تخيلت أن القصة تشبه مقالاً في مجلة «الإيكونوميست»، مع شخصيات كرتونية، مرسومة داخلها. لكنها لم تفصح عن رأيها، علناً. عادت إلى كوخها، وجلستْ أمام حاسوبها المحمول، رغم الألم الذي يعتصرُ معدتها.

(وإذ تجلسُ تشيوما، وتحدق في وجه ينكا، الجالسة في حضن الحاجّ، تشعرُ بأنها تؤدّي دوراً في مسرحية. سبق لها أن كتبت مسرحيات في المدرسة الثانوية. صفّها قدّمَ إحدى تلك المسرحيات، خلال احتفال المدرسة السنوي، وبعد انتهاء العرض، فازت بتصفيق الجمهور واقفاً، وقال المدير: «تشيوما هي نجمتنا القادمة!» كان أبوها حاضراً، يجلس بالقرب من أمها، التي كانت تصفّقُ، وتبتسمُ. ولكن حين قالت إنها تريد أن تدرس الأدب في الجامعة، أخبرها أنه فرع غير قابل للنجاح. كلمته هي «غير قابل للنجاح». قال لها ينبغي أن تدرس شيئاً آخر، وتستطيع أن تظلّ تكتب، إلى جانب ذلك. الحاج يمسحُ، برقّة، إصبعَه فوق ذراع ينكا، «ولكن تعرفين أنّ مصرف اتحاد سافانا أرسل أناساً إليّ في الأسبوع المَاضي». ينكا ما تزال تبتسم، وتشيوما تتساءلُ هل كانت تعاني من وجعٍ ما في خدّيها. تفكّرُ بالقصص داخل صندوقها، الموضوع تحت السرير. والدها قرأها جميعاً، وأحياناً كان يكتب على الهامش: «ممتاز! تعبير نمطي! جيّد جدّاً! غير واضح». إنه هو الذي كان يشتري الروايات لها،

وأمّها كانت تعتقد أنّ الروايات ليست سوى هدر للوقت، وكانت تشعر أنّ كل ما تحتاج إليه تشيوما هو كتبها المدرسية.

تقول ينكا، «تشيوما!» وتنظر إلى الأعلى. الحاج يتكلم إليها. إنه يبدو شخصاً خجولاً، تقريباً، وعيناهُ لا تقعان على عينيها. ثمة انجذاب باتجاهها، لا يظهرهُ تجاه ينكا. «أنا أقول إنّكِ غاية في الرّقة. لماذا لم يقُم والدكِ بتزويجك؟» تبتسم تشيوما، ولا تقول شيئاً. قال الحاجّ: «وافقتُ بأن أجري بعض التعاملات مع بنك الضمان التجاري، وستكونين مندوبتي الشخصية». لم تكن تشيوما متأكدة ماذا تقول.

«بالطبع» ينكا تقول. «ستكون مندوبة لك. سوف نعتني بك. آه، شكراً لكَ، يا سيدي!».

ينهض الحاج ويقول، «تعالي، تعالي، لديّ بعض العطور الجميلة، من رحلتي الأخيرة، إلى لندن. دعيني أعطيك بعضاً منها لتأخذيه إلى البيت». بدأ يمشي نحو الداخل، ثم استدار. «تعاليا، تعاليا، أنتما الاثنتان!»؟ ينكا تتبعُهُ. تشيوما تنهضُ. ويلتفتُ الحاجّ، من جديد، باتجاهها، منتظراً إياها أن تلحقَ بهما. لكنها تظل ماكثة في مكانها. تلتفتُ إلى الباب، وتفتحه، وتخرجُ إلى الشّمس السّاطعة في الخارج، نحو سيارة الجيب، التي يجلسُ فيها السائق، تاركاً بابه مفتوحاً على مصراعيه، ويستمعُ إلى الراديو. «عمّتي؟ عمّتي؟ هل حدث شيء؟» ينادي. لا تجيبه. تمشي، ثم تمشي، بمحاذاة البوابات العالية، نحو الشارع، وهناك تستقلّ سيارة الأجرة، وتعود أدراجها إلى المكتب، لتنظف أدراجها شبه الخاوية.)

تستيقظ يوجونوا على صوت هدير البحرِ، وعلى تقلّصاتٍ مؤلمةٍ في معدتها. لا تريدُ أن تقرأ قصّتها، الليلةَ. ولا تريدُ أن تذهب إلى الفطور أيضاً، لكنها ذهبت، مع ذلك، وألقت تحية الصباح على الجميع، من دون أن تخصّص أحداً بعينه، راسمةً ابتسامةً عموميةً على شفتيها. جلستْ بالقرب من الكينيّ الذي مال بجذعه نحوها وهمس

في أذنها بأنّ إدوارد قد أخبر السنغاليّة للتوّ بأنّه حلم البارحة بسرّتها العارية. سرّتُها العارية! راقبتْ يوجونوا السنغالية وهي ترفعُ فنجانها بأناقة إلى شفتيها، حالمةً، تنظرُ إلى البحر. يوجونوا حسدتْ هدوءَها الواثقَ. وشعرت بالانزعاج، حين سمعت أنّ إدوارد يوجّه إيحاءاته إلى شخص آخر، سواها، وتساءلت عن مغزى شعورها بالضيق. هل وصلت إلى قناعة بأنّ غمزاته الغرامية هي ملكٌ لها وحدها؟ شعرت بعدم الراحة، لمجرد التفكير على هذا النحو، واحتمال قراءة قصتها، في تلك الليلة، وبالتالي، وخلال فترة ما بعد الظهيرة، وبينما كانت تستعدّ للغداء، سألت السنغالية عمّا قالته، حين تفوّه إدوارد بكلماته عن سرّتها العارية.

هزت السنغاليةُ كتفيها، وقالت لا يهمّ كيف يحلمُ الرّجل العجوزُ، فهي ستظلّ دائماً سحاقيةً سعيدةً، ولا حاجة لأن تقولَ له أيّ شيءٍ بالمقابل.

«ولكن لماذا لا نقولُ شيئاً؟» قالت يوجونوا. رفعت وتيرة صوتها، ناظرةً حولها، إلى الآخرين. «لماذا دائماً لا نقولُ شيئاً؟».

نظر بعضهم إلى بعض. الكيني قال للنادل إنّ الماءَ فاترٌ، وهل يمكنه، من فضله، أن يجلب بعض مكعبات الثلج. التانزاني سأل النادل من أي مكانٍ في مالاوي جاء؟ والكيني سأله ما إذا كان الطباخون أيضاً من مالاوي، مثلما هو الحال مع كلِّ نادلٍ هنا. أما المرأة من زيمبابوي فقالت إنها لا تكترثُ من أين ينحدر هؤلاء الطباخون، لأنّ الطعام في جمبينغ مونكي هيل، ببساطة، مقرّزٌ، وبخاصّة كلّ ذاك اللّحم والمرق. كلمات أخرى تدحرجت، هنا، وهناك، ولم تعد يوجونوا قادرةً على تمييز الأَصوات. تخيلوا تجمّعاً للأفارقة لا يوجدُ فيه الأرزّ، ولماذا يتمُّ حظْر البيرة، على طاولة العشاء، فقط لأنّ إدوارد يظنّ أنّ النبيذ هو المشروب المناسب، ولماذا الفطور يُقام في الساعة الثامنة ، بهذا الوقت المبكِر، بغضّ النظر إذا كان إدوارد قد قال إنه الوقت «الصحيح»، ولماذا رائحة

غليونه تسبّبُ الدوار، وكيف عليه أن يقرّر ماذا يدخّن، في نهاية المطاف، ويتوقّف عن التنقّل بين السجائر وبين الغليون.

وحده الرّجل الأسود، من جنوب أفريقيا، ظلّ صامتاً. بدا عليه الحزنُ الشّديد، وأسبل يدين مشبوكتين على حضنه، قبل أن يقول إنّ إدوارد رجلٌ عجوزٌ، لا يسبّبُ الأذى لأحد. صرخت يوجونوا في وجهه، وقالت: «هذا النوع من المواقف هو السبب الذي يجعلهم يقتلونكَ، ويحملونكَ كالبضاعة على متن سفنٍ محلّية، ويطلبون منك إذناً بالمرور، قبل أن يُسمح لكَ بالمشي فوق أرضٍ هي أرضك!» ثم أوقفت نفسها عن الكلام، واعتذرت. ما كان ينبغي أن تقول هذا. ولم تكن تقصد أن ترفع صوتها. هزّ الرجل من جنوب أفريقيا كتفيه، كأنما فهم أنّ الشيطان سيتكفّلُ دائماً بأداء دوروه. كان الكيني يراقب يوجونوا عن كثب. قال لها، بصوتٍ خفيض، إنها غاضبة من أشياء كثيرة أخرى، غير إدوارد، فأشاحت بوجهها، وتساءلت، إن كانت حقاً مفردة «غاضبة» هي الكلمة المناسبة.

فيما بعد، ذهبت إلى دكّانٍ لبيع التذكارات، برفقة الكيني، والسنغالية، والتانزاني، وجرّبت ارتداء حليّ مصنوعة من العاج الأبيض. ناكفوا التانزاني بخصوص اهتمامه بالمجوهرات - ربما كان مثلياً، هو أيضاً. ضحك وقال إنّ مواهبه لا حدود لها. ثم قال، بنبرة أكثر جدية، إن لإدوارد ارتباطاته، ويمكنه أن يعثر لهم على وكيلٍ في لندن، ولا حاجة لاستعداء الرجل، أو إغلاق الباب أمام أي فرصة. وبالنسبة له، شخصياً، لا يريد أن ينتهي به المطاف في عمل التدريس المملّ، في أروشا. كان يتكلّمُ وكأنه يخاطبُ الجميع، لكنّ عينيه ظلتا مصوبتين نحو يوجونوا.

اشترت يوجونوا قلادة عنق، وارتدتها، وأحبّتْ منظرَ النّاب الأبيض المعقوف، المتدلّي من عنقها. ذاك المساء ابتسمت إيزابيل حين رأت قطعة العاج. «أتمنى لو أنّ الناس يرون كيف أنّ العاج المصنّعَ يبدو حقيقياً، ويتركون الحيوانات وشأنها»، قالت. التمعت عينا يوجونوا

فرحاً، وقالت إنها، في الواقع، عاجٌ حقيقي، واحتارت ما إذا كان يجب أن تضيف أنها قتلت الفيلَ بنفسها، خلال إحدى رحلات الصيد الملكية. بدتْ إيزابيل مذهولةً، قبل أن تظهر مسحةٌ من الألم على وجهها. فتحت يوجونوا مصنّف البلاستيك. ينبغي أن تظلّ أعصابُها هادئة، وقد قالت هذا لنفسها، مراراً وتكراراً، ما إن بدأت تقرأ مقاطع من قصتها. بعد ذلك، تكلّم الأوغندي، أولاً، قائلاً كم القصة متينة، وقابلة للتصديق، وقد فاجأت لهجته الواثقةُ يوجونوا، حتى أكثر من كلماته. التنزاني قالَ إنها صوّرت لاغوس على نحو جيد، الروائح والإيقاعات، وإنه لأمر لا يُصدق كيف أنّ مدن العالم الثالث برمّتها تتشابهُ. المرأة البيضاء من جنوب أفريقيا قالت إنها تكره ذاك المصطلح، العالم الثالث، لكنها أحبت الوصف الواقعي لما تعانيه النسوة في نيجيريا. تراجع إدوارد إلى الخلف قليلاً، وقال: «ليست الأمور هكذا أبداً، الحياة الواقعية، أليس كذلك؟ لا يمكن للنسوة أن يكنّ ضحايا بتلك الطريقة الفجّة، بالتأكيد ليس في نيجيريا. وصلت النساء في نيجيريا إلى مراكز مرموقة. إنّ أقوى حقيبة وزارية، اليوم، تشغلها امرأة».

قاطعه الكيني وقال إنه أحبّ القصة، لكنّه لم يصدق أن تشيوما يمكن أن تتخلى عن عملها، فهي، في نهاية المطاف امرأة، وخياراتها محدودة جداً، ولذلك اعتقد أنّ النهاية غير قابلة للتصديق.

«المسألة برمتها غير قابلة للتصديق» قال إدوارد. «هذه كتابة وفقاً لأفكارٍ مسبقة، وليست قصة حقيقية، عن أناسٍ حقيقيين».

في داخل يوجونوا انكمش شيءٌ ما. كان إدوارد ما يزال يتحدّث. بالطبع ينبغي على المرء أن يُعجب بالكتابة نفسها، التي هي بحدّ ذاتها شَيّقة. كان يحملق بها، كعادته، غير أنّ لمعة الانتصار في عينيه جعلتها تقفُ، وتبدأ بالضحك. المشاركون راحوا يحدقون بها. ضحكت، وضحكتْ، وهم يتفرّجون عليها، ثم لملمتْ أوراقها. «قصة حقيقية عن أناسٍ حقيقيين؟» قالت، مصوبةً عينيها نحو وجه إدوارد. «الشيء

الوحيد الذي لم أضفْه إلى القصة هي أنني بعد أن تركتُ زميلتي في بيت الحاجّ، وخرجتُ، صعدتُ إلى سيارة الجيب، وقلتُ للسائق إنني مصرّة أن يأخذني إلى المنزل، لأنني كنتُ أعلمُ أنها المرّة الأخيرة التي سأركبُ فيها الجيب».

ثمة أشياء أخرى، أرادتْ يوجونوا أن تقولها، لكنها لم تقلْها. كان ثمة دموع تغرورقُ في عينيها، لكنها لم تسمح لها بالسقوط. كانت تتشوّق، فقط، للاتصال بوالدتها، وفي طريق عودتها إلى كوخ إقامتها، تساءلت، بينها وبين نفسها، ما إذا كانت تلك النهاية في القصة، هي حقاً نهاية قابلة للتصديق.

ذاك الشيء حول عنقك

كنتِ تظنين أنّ كلّ شخصٍ في أمريكا يملكُ سيارةً، وقطعةَ سلاح. أعمامكِ، وعمّاتكِ، وأبناءُ خالتكِ وعمّاتكِ ظنّوا هذا أيضاً. ومنذ اللّحظَةِ التي ربحتِ فيها يانصيب الفيزا الأمريكية، قالو لكِ: خلال شهرٍ من الآن، سوف تملكينَ سيارةً كبيرةً. وبعدها بقليل، بيتاً كبيراً. لكن إياكِ أن تقتني سلاحاً، كأولئك الأمريكيين.

احتشدوا في الغرفة، في لاغوس، حيث تعيشين، مع والدكِ ووالدتكِ وأخواتكِ الثلاث، وكنتِ تسندين ظهركِ إلى حيطانٍ غير مطليةٍ، لأنه لم تكن في البيت كراسٍ تكفي للجميع. جاؤوا يقولون لكِ وداعاً بأعلى أصواتهم، ويقولُون، بأصوات خفيضة، ماذا يريدون منكِ أن ترسلي إليهم. مقارنةً بالسيارة الكبيرة، والمنزل، (وربّما السلاح)، طلبوا أشياء ثانويةً – حقائب يد، وأحذية، وعطوراً، وملابس. قلتِ، حسناً، لا مشكلة.

عمّكِ في أمريكا، الذي وضع أسماءَ جميع أفراد عائلتك للحصول على فيزا أمريكية، بواسطة اليانصيب، قال يمكنكِ أن تعيشي معه حتى تستطيعي أن تقفي على قدميكِ. رافقك من المطار، واشترى لكَ سندويتش هوت دوغ، مع صلصة صفراء، جعلتكِ تشعرين بالتقيؤ. هذه مقدّمة إلى أمريكا، قال لكِ، ضاحكاً. إنه يعيش في بلدة صغيرة، بيضاء، في مقاطعة «مين»، في منزل عمره ثلاثون عاماً، بالقرب من بحيرة جميلة. قال لكِ إنّ الشركة التي يعمل لمصلحتها، قدّمت له آلافاً إضافيةً، زيادةً على الرّاتب العادي، إضافة إلى خياراتِ عدّة، لأنّهم

يحاولون، يائسين، أن يبدو متنوّعين. وضعوا صورةً له في كلّ منشور لهم، حتى تلك التي لا علاقة لها بتاتاً بقسْمِه. ضحك وقال إن عمله جيد، والعيش في بلدة تسكنها أغلبية ساحقة من البيض هو شيء جميل، حتى وإن كانت زوجته تقطع مسافة ساعة كاملة بسيارتها من أجل أن تجد صالوناً للشعر، يصفّف الشعر الأسود. الحيلة تكمن في فهم أمريكا، وأن ندرك أنّ أمريكا تعني الأخذ والعطاء. تتخلّين عن أشياء كثيرة، لكنّك، بالمقابل، تربحين الكثير.

دلّكِ كيف تتقدّمين إلى عملِ أمينة صندوق، في محطّة للوقود، في شارع «مين»، وسجّلكِ في جامعة تعليمٍ مفتوح، حيث الفتيات هناك، بدينات الأوراك، ويضعْن الطلاءَ الأحمر على أظافرهنّ، وصباغ السمرة الذي يجعلهنّ يظهرْن برتقاليات اللّون. سألوا أين تعلّمتِ الإنكليزية، وهل تملكون بيوتاً حقيقيةً في أفريقيا، وهل رأيتِ سيّارةً في حياتكِ، قبل قدومكِ إلى أمريكا. سخروا من شعركِ. هل ينتصب إلى الأعلى أم يسقط إلى الأسفل، حين تنزعين الجدائلَ. أرادوا أن يعرفوا. هل ينتصب كلّه؟ كيف؟ ولماذا؟ هل تستخدمين مشطاً؟ وكنتِ تبتسمين، متضايقةً، حين يوجّهون هذه الأسئلة. عمُّكِ قال لكِ عليكِ أن تتوقّعي كلّ هذا: خليطٌ من الجهل والعجرفة، هذا ما كان قد سمّاه. ثم أخبركِ كيف أنّ الجيران قالوا، بعد مضيّ بضعة أشهر من انتقاله إلى منزله، بأنّ السناجب بدأت تختفي. لقد سمعوا أنّ الأفارقة يأكلون جميع أنواع الحيوانات البريّة.

ضحكْتِ مع عمّك، وشعرتِ بالألفة في منزله. زوجتُه تناديكِ، بالأخت، وطفلاهُ، اللذان في عمر المدرسة، ينادونكِ عمّتي. يتحدّثون إَغبو، ويأكلون طعاماً نيجيرياً محلّياً، على الغداء. هكذا كان للمنزل حرارة بيتكِ حقّاً. حتى أتى عمّكِ إلى القبو المزدحم، ذات يوم، حيث كنتِ تنامين، بين الصّناديق القديمة، والعلب الكرتونية الفارغة، وشدّكِ بالقوّة نحوه، وعصرَ مؤخّرتكِ، وهو يئنّ. لم يكنْ في الواقع عمّكِ، بل

أخاً لزوجِ أختِ والدكِ، ولا رابطة دم تربطكِ به. بعد أن دفعتهِ بعيداً عنكِ، جلَس على سريركِ - إنه منزله، على أي حال - وابتسمَ، وقال إنك لم تعودي طفلةً، في سنّ الثانية والعشرين. إذا سمحتِ له، سوف يفعل أشياء كثيرة من أجلكِ. النساءُ الذّكياتُ يفعلن هذا طوال الوقت. ماذا تظنين قد فعلت النسوةُ في وطنكِ، نيجيريا، اللّواتي حصلْن على وظائف مغرية مادياً، ماذا فعلن حتّى نجحْن؟ حتى النساء في مدينة نيويورك؟

حبستِ نفسكِ في الحمّام، ورفضتِ الخروج، حتى عاد أدراجَه، صاعداً الدرج، وفي الصباح التالي، غادرتِ، تمشين فوق الطّريق الطويل، المتعرّج، تزكمُ أنفَكِ رائحةُ السّمك الصغير في البحيرة. رأيتهِ يمرُّ بسيارتِهِ - لطالما أوصلَكِ إلى شارع «مين»- ولم يطلق زمّوره. تساءلتِ، بينك وبين نفسكِ ماذا عساه يقول لزوجته، ولماذا غادرتِ. وتذكّرتْ ما كان قد قاله إنّ أمريكا أخذٌ وعطاءٌ.

وانتهى بكِ المطافُ في ولاية كنيتيكت، في بلدةٍ صغيرة أخرى، المحطة الأخيرة لباص «غراي هوند»، الذي ركبتِ فيه. دخلتِ إلى مطعم، له مظلّة نظيفة ونقية، وقلت مستعدة لأن تعملي بأجر ينقص دولارين عن بقية العاملين في المطعم. مدير المطعم، جوان، بشعره الأسود الفاحم، ابتسم، مظهراً سنّاً ذهبيةً. قال إنه لم يسبق له أن عيّن موظفاً نيجيرياً، لكنّ جميع المهاجرين يعملون بجدٍّ كبير. هو يعلم ذلك، لأنه أتى مهاجراً. سيدفعُ لكِ دولاراً أقلّ، ولكن من تحت الطاولة. إنه لا يحبّ كلّ تلك الضرائب التي يجعلونه يدفعها.

ليس بمقدورك الالتحاق بالمدرسة، لأنك تدفعين أجراً شهرياً، الآن، لقاء غرفةٍ صغيرةٍ، مفروشةٍ بسجّادٍ وسخ. إضافة إلى ذلك، البلدة الصغيرة في كنيتيكت لا تملك جامعةً للتعليم المفتوح، وتحصيل الدّرجات في جامعةِ الولاية يكلّف مالاً كثيراً. ذهبتِ إلى المكتبة العامّة، وبحثت، على الشبكة العنكبوتية، عن مناهج دراسية، وقرأتِ بعض الكتب. أحياناً، كنتِ تجلسين فوق الفراش المنفّخ لسريركِ المزدوج،

وتفكّرين بوطنك - بعماتك اللواتي كنّ يبعن السمك المجفّف ونباتات لسان الحمل، ويغوين الزبائن بالشراء، ثم يرفعن أصواتهنّ بالسباب إذا لم يشتروا؛ بأعمامك الذين يحتسون الجنّ المحليّ، ويحشرون عائلاتهم، وحيواتهم، في غرفٍ مفردة؛ بأصدقائكِ الذين جاؤوا ليقولوا لكِ وداعاً، قبل أن تغادري، ويبتهجوا لأنّكِ ربحتِ يانصيب الفيزا الأمريكية، ويبوحون لكِ بحسدهم لك؛ بأهلكِ الذين يمسكون بعضهم بأيدي بعض حين يذهبون إلى الكنيسة، في صباحات الأحد، بالجيران في الغرف المجاورة وهم يضحكون ويتبادلون الأحاديث، بوالدكِ الذي اشترى الجرائد القديمة لرئيسه في العمل، وجعل إخوتك يقرأونها؛ بوالدتك التي بالكادِ يكفي راتبها لدفعِ الأقساط لإخوتك، في المدرسة الثانوية حيث المعلمون، هناك، يمنحون الطالب درجة ممتاز إذا سلّمهم أحدٌ ظرفاً بنّياً.

لم يسبق أن دفعتِ شيئاً للحصول على درجة ممتاز، ولم تعطِ معلماً ظرفاً بنياً، في المدرسة الثانوية. مع ذلك، تختارين ظروفاً بنيةً طويلةً، لترسلي نصف دخلك الشهري إلى أهلكِ، على عنوان المشفى الحكومي، الذي تعملُ فيه والدتكَ خادمةَ تنظيف. دائماً كنتِ تستخدمين الدولارات التي يعطيكِ إياها جوان، لأنها مكوّية وأنيقة، على عكسِ القطع الورقية، المعصورة، لمصاري البخشيش. كلّ شهرٍ، تطوين، بعناية فائقة، النقود الورقية، داخل ورقٍ أبيض، لكنّك لم تكتبي الرسائلَ، إذ ما من شيء، حقيقةً، تكتبين عنه.

في الأسابيع التي تلت، مع ذلك، زادت رغبتكِ بالكتابة، لأنّ لديكِ قصصاً تريدين سردها. أردتِ أن تكتبي عن الصراحة المدهشة للناس فيَ أمريكا، وكيف يفصحون بشوقٍ عارمٍ، عن أمّ تموتُ بالسرطان، وعن الولادة المبكّرة للكنّة، وعن تلك الأشياءَ التي يخفيها المرءُ لنفسه، عادةً، أو يبوح بها فقط لأفراد مقربين من عائلته، ممن يتمنّون له السلامة. تريدين أن تتحدثي عن الطريقة التي يتركُ فيها الناسُ كميات كبيرة من الطعام في

صحونهم، ويرمون دولارات ورقية مجعدة، على الطاولة، كأنها هبة، أو فعل كفّارةٍ عن الطعام المهدور. تريدين أن تكتبي عن الطفلة التي بدأت تبكي، وتشدّ شعرها الأشقر، وترمي قائمة الطعام عن الطاولة، وبدل أن يخرسها أبواها، راحا يرجوانها بأن تسكت، طفلة لا تتجاوز، ربّما، خمس سنوات من العمر، لينهض الجميع فيما بعد ويغادروا. أردتِ أن تكتبي عن الناس الأغنياء الذين يرتدون ملابس بالية، وأحذية رياضية ممزّقة، ويبدون كالحرّاس اللّيليين أمام المنشآت الضخمة في لاغوس. أردتِ أن تكتبي أنّ الأمريكيين الأغنياء نحيفون، والأمريكيين الفقراء يعانون البدانة، والكثير منهم لا يملك بيتاً كبيراً، ولا سيارةً. لكن، لم تتأكّدي، بعد، من منهم يحمل سلاحاً، ومن منهم لا يحمل، لأنهم قد يخفون مسّدساتهم في جيوبهم.

لم تكوني تريدين أن تكتبي فقط لأهلكِ، بل لأصدقائك، وأعمامك وعماتك. ليس لديك القدرة المالية، أبداً، أن تشتري ما يكفي من العطور، وحقائب اليد، والملابس، والأحذية تكفي الجميع، وفي الوقت نفسه، تستمرين بدفع أجرة البيت، مما تجنينه من عملكِ كنادلة في المطعم، ولهذا قررتِ ألا تكتبي لأحد.

لا أحدَ يعرف أين أنتِ، لأنك لم تخبري أحداً بعنوانكِ. أحياناً كنتِ تشعرين بأنك لا مرئية، وتحاولين أن تمشي إلى الردهة، عبر جدار غرفتك، وحين كنتِ تصطدمين بالحائط، كانت ذراعاك تمتلئان بالرّضوض والكَدمات. مرةً، سألكِ جوان إن كان قد ضربكِ رجلٌ ما، لأنه كان سيصفّي حسابه معه، لكنك كنتِ تضحكين ضحكاً غامضاً.

ليلاً، كان ثمة ذاك الشّيء الذي ما ينفكّ يلتفُّ حول عنقكِ، ويكادُ يخنقكِ، تقريباً، قبل أن تخلدي إلى النّوم.

العديد ممن يعملون في المطعم سألوكِ متى جئت من جامايكا، لأنهم يعتقدون أنّ كلّ شخص أسود، يتكلّم بلكْنة أجنبية، لا بدّ أن يكون

بالضرورة من جامايكا. أو البعض ممن عرفوا أنّك من أفريقيا، قالوا لك إنّهم يحبون الفيلة، ويريدون أن يسافروا إلى هناك في رحلات صيدٍ في الأدغال.

وحين سألكِ، في غبش المطعم، بعد أن راجعتِ قائمة المأكولات الخاصّة، اليومية، من أي بلدٍ أفريقي جئتِ، قلتِ نيجيريا، وتوقّعتِ أن يقول إنه تبرع بالمال لمحاربة الإيدز في بوتسوانا. عوضاً عن هذا، سألكِ إن كنتِ من إثنية إغبو أم يوروبا، لأنّ وجهكِ لم يكن من النمط المألوف. أصابتكِ الدهشة - ظننتِ أنه لا بدّ أن يكون بروفسور الأنثروبولوجيا، في جامعة الولاية، هو الشاب في أواخر العشرينيات من عمره، أو نحو ذلك، ولكن من يستطيع التكهّن؟ إغبو، أجبتِ عن سؤاله. سألكِ عن اسمك، وقال إن «أكونا» اسمٌ جميل. لم يسألكِ ماذا يعني اسمكِ، لحسن الحظّ، لأنك سئمتِ من قولِ الناس إليك، «ثروة أبيكِ؟» «هل تقصدين أنّ والدك سوف يبيعُكِ إلى زوجٍ ما؟».

قال لكِ إنه سافر إلى غانا وأوغندا وتنزانيا، وأحبّ شِعر أوكوت بايتك، وروايات آموس توتولا، وقرأ الكثير عن بلدان الصحارى الأفريقية، وعن تاريخها، وتعقيداتها. أردتِ أن تشعري بالاحتقار، وأن تُظهريه على وجهكِ، وأنت تُحْضري طلبَه، لأنّ البشر البيض الذين يحبّون أفريقيا كثيراً جّداً، وأولئك الذين يحبّون أفريقيا قليلاً جدّاً، يتشابهون في نقطة أساسية - المحاباة. لكنّه لم يهزّ رأسه بالطريقة نفسها التي فعلها البروفسور كوبلديك في جامعة «مين» المفتوحة، خلال جلسة نقاش عن تحرّر أفريقيا من الاستعمار. لم تظهرْ عليه تعبيرات البروفسور كوبليك، أو ملامح ذاك الشخص الذي يظنّ نفسه أفضل من اَلناس حوله. أتى في اليوم التالي، وجلس على الطاولة نفسها، وحين سألْتهِ ما إذا كانت شرحات الدجاج لذيذة، سألكِ إن كنتِ قد ترعرعتِ في لاغوس. أتى في اليوم الثالث، وبدأ يتكلم، قبل أن يطلبَ طعامه، كيف أنه زار بومباي، والآن يريدُ أن يزورَ لاغوس، ليرى كيف يعيش

الناس الحقيقيون، خاصةً في الأحياء الفقيرة، لأنه يتجنب أن يفعل ما يفعله السّياح من أشياء سخيفة، حين يكون مسافراً إلى الخارج. تحدّث وتحدّث، وتحدّث، وقلتِ له إنّ هذا يعارضُ سياسة المطعم. مسح على يدكِ بنعومة، وأنتِ تضعين كأس الماء على الطاولة. في اليوم الرابع، حين رأيته قادماً، أخبرتِ جوان أنك لا تريدين أن تخدمي تلك الطاولة، على الإطلاق. وبعد أن بدّلتِ فترتكِ، في تلك الليلة، كان ينتظرك في الخارج، يضعُ سماعتي الهاتف، في أذنيه، ويسألكِ إن كنتِ توافقين على الخروج معه، لأنّ اسمكِ موزون على أغنية «هاكونا ماتاتا» أو «لا تقلقْ»، و(ليون كينغ) هو الفيلم العاطفي الوحيد الذي استطاع أن ينسجم معه. نظرتِ إليه في الضّوء الساطع، ولاحظتِ أن لعينيه لونَ زيت الزيتون، من النخب الأوّل، وهما عينان براقتان كالذّهبِ الأخضر. زيتُ الزّيتونِ الأخضرِ، من النخب الأول، هو الشّيء الوحيد الذي تحبينه، في أمريكا، إنه الشّيء الوحيدُ، حقّاً.

هو يعمل أستاذاً متفرّغاً في جامعة الولاية. أخبركِ عن عمره، وسألته لماذا لم يتخرّج حتى الآن. هذه هي أمريكا، على أي حال، والحال هنا يختلف عن الوضع في الوطن، حيث تُغلقُ الجامعات مراراً، حتى أنّ الطلاب يضيفون ثلاث سنوات، لبرنامجهم الدراسي، الاعتيادي، وتكون المحاضرات عرضةً لإضرابات متكررة، لأنّ الأساتذة لم تُدفع أجورهم. قال إنه طلب إجازة لنفسه، لبضع سنوات، كي يعيد اكتشاف نفسه، ويسافر، أكثر الأحيان، إلى أفريقيا وآسيا. سألْتِهِ أين وجَد نفسه، في آخر المطاف، فضحك. لكنّكِ لم تضحكي. لم تكوني تعرفين أنّ النّاسَ يمكنهم أن يختاروا عدم الذّهاب إلى الجامعة، وأنّ الناس يمكنهم أن ينصرفوا إلى الحياة. اعتدتِ أن تقبلي ما تعطيه لكِ الحياة، وتكتبي ما تمليه عليك الحياة.

قلتِ، لا، للخروج معه في الأيام الأربعة التالية، لأنكِ لم تكوني تشعرين بالراحة إزاء الطّريقة التي ينظر فيها إلى وجهكِ. الطريقة التي

ينظر فيها إلى وجهك تنضحُ بالترقّب والتركيز، لدرجة أنه جعلك تقولين له وداعاً، بل جعلك تذهبين بعيداً، على مضض. بعدئذٍ، وفي اللّيلة الخامسة، شعرتِ بالذعرِ لأنه لم يكن يقف على الباب، بعد انتهاء فترتكِ. صلّيتِ لأوّلِ مرّةٍ، منذ وقتٍ طويل، وحين ظهرَ، واقفاً خلفكِ، وقال، مرحباً، قلتِ، نعم، إنك ستخرجين معه، حتى قبل أن يسألَكِ. كنتِ خائفة أنه قد لا يسألكِ ثانيةً.

في اليوم التالي، دعاكِ إلى العشاء، في مطعم تشانغ. قطعةُ بسكويتِ الحظّ، التي اخترْتِها كان لها خطّان ورقيان. كلاهما كانا خاويين.

عرفتِ أنّكِ أصبحتِ أكثر تناغماً معه، حين أخبرْتِهِ أنكِ شاهدت حلقةً من برنامج (جيوبردي)، على شاشة تلفزيون المطعم، وأنّك راهنتِ كالتالي، وبالترتيب: نساءٌ ملوّناتٌ، ورجالٌ سودٌ، ونسوةٌ بيضٌ، وأخيراً، رجالٌ بيض. وهذا يعني أنك لم تراهني أبداً على الرّجال البيض. ضحكَ وأخبركِ إنه اعتاد على ألا يراهن عليه أحدٌ، فوالدته معلّمة دراسات نسوية.

وعرفتِ أنكما أصبحتما قريبين بعضكما من بعض، حين أخبرتِهِ أنّ والدكِ ليس معلّمَ مدرسة، في لاغوس، وأنه يعملُ سائقاً مساعداً لدى شركة للبناء. وأخبرْتِهِ عن ذاك اليوم، حين كنتِ مع والدك، في سيارة بيجو 504، المتهالكة، وسط زحمة المرور في لاغوس، وكانت السماءُ تمطرُ، ومقعدكِ يزدادُ بللاً بسبب الثقب، في أعلى السقف، الذي زاده الصدأُ سوءاً. زحمةُ المرور خانقة، وهذا هو الحالُ دائماً في لاغوس، وحين تمطرُ، يصبحُ الوضع فوضى عارمة. تصبحُ الطرقاتُ بحيرات من الوَحل، وتعلقُ السيارات في الحفر، وأولاد خالتك، دفعوا النقود كي يساعدهم أحد بإخراج سياراتهم من المستنقعات. المطر، والوحول، جعلت والدكِ يضغط متأخراً على المكابح، في ذلك النّهار. سمعتِ صوتَ الاصطدام حتى قبل أن تشعري به. السّيارة التي ارتطمَ بها والدُكِ،

واسعة، وأجنبية، وخضراء قاتمة، بأضواء ذهبية كاشفة، في الأمام، كعينيّ الفهد. والدكِ بدأ يبكي، ويتوسّل، حتى قبل أن يخرج من السيارة، وانبطح أرضاً، في وسط الطّريق، ما تسبب بالمزيد من زمامير السيارات. آسف، سيّدي، آسف، سيدي، راحَ يردّدُ. إذا بعتني، مع عائلتي، لن يكفي هذا لتشتري إطاراً واحداً لسيارتك. أنا آسف، يا سيدي.

الرجل الكبير، الجالس في الخلف، لم ينزلْ من السيارة، لكنّ سائقه ترجّل، وراح يتفحّصُ مكان الصّدمة، ناظراً، بطرفِ عينه، إلى هيئةِ والدكِ الشعثاء، كأنّ كلّ ذاك التوسّل ليس سوى نوع من الإباحية الجنسية، أو العرض المسرحي، الذي يخجل بأن يعترف بأنه كان يستمتعُ به. في النهاية، سمح لوالدكِ بالذهاب. ولوّح له بيده بأن يغربَ عن وجهه. أصواتُ زماميرِ السّيارات صارت أعلى، وشتائمُ السائقين باتتْ تُسمع من كلِّ حدبٍ وصوب. حين عاد والدكِ إلى السيارة، رفضتِ أن تنظري إليه، لأنه بدا لكِ، كتلك الخنازير التي تتوارى، بين المستنقعات، حول السّوق الرئيسية. والدكِ بدا مثل خرقةٍ مهترئة. وخراء.

بعد أن أخبرتهِ بكل هذا، زمّ شفتيه، وضغط على يدكِ، وقال إنه يفهمُ كيف كنتِ تشعرين في تلك اللحظات. سحبتِ يدكِ من يده، وشعرتِ بالغضب، فجأةً، لأنه كان يظنّ أن العالم مملوءٌ، أو ينبغي أن يكون مملوءاً، بأناسٍ على شاكلته فقط. قلتِ له لا يوجد ما يمكن فهمه، في تلك الحالة. ما وقع قد وقع، فحسب.

وجدَ المتجرَ الأفريقي على الصفحات الصفراء لكتاب هارتفورد الخاص بأرقام الهاتف، وذهبتما معاً، بسيارته، إلى هناك. وبسبب الأريحية التي كان يتجوّل فيها، والتي توحي بمعرفته جيداً بالمكان، أمالَ زجاجة من نبيذ البلح، لكي يرى حجم التفل المترسّب في قعرها، وسأله مالك المتجر، وهو من غانا، إن كان أفريقياً، كمثل الكينيين البيض، أو البيض من جنوب أفريقيا، فقال نعم، لكنه مقيمٌ في أمريكا منذ أمدٍ بعيد.

بدا سعيداً لأنّ مالكَ المتجر صدّق ما قاله. في ذلك المساء، طهوتِ الأشياء التي أحضرتماها، معاً، وبعد أن تناول طعاماً محلياً، وحساءً نيجيرياً، تقيّأ في مغسلتك. لم تأبهي بذلك، لأنك تستطيعين الآن، أن تطبخي الحساء باللّحم.

لم يكن يأكل اللحم لأنه يعتقد أنّ طريقة قتلِ الحيوانات أمرٌ خاطئ. قال لقد بثّوا سموم الخوف بين الحيوانات، وسموم الخوف هذه جعلت البشر مصابين بالانفصام. في الوطن، كانت قطع اللحم التي تأكلينها، هذا إذا تسنّى لكِ أكل اللحم يوماً، لا تتجاوز حجم نصف الإصبع. لكنك لم تخبريه بهذا. ولم تخبريه أيضاً أن أنابيب المنكّهات، «داواداوا»، التي كانت أمّك تطبخُها مع كلّ شيء، لأنّ بهار الكري، ومسحوق الزعتر، غاليان جدّاً، وتحوي مادّة المونو-صوديوم، بل هي منكّهات مونوصوديوم. قال لكِ إنّ هذه تسبّبُ السّرطانات. هذا هو السبب الذي يجعله يأكل في مطعم تشانغ، لأنه لا يستعمل هذه المنكّهات في الطبخ.

ذات مرة، في مطعم تشانغ، أخبر النادلَ أنه زارَ مؤخراً، شنغهاي، وأنه يجيد قليلاً التحدّث بلغة الماندرين. تحمّس النادلُ وأخبره عن أفضل أنواع الحساء، ثم سأله، «هل لديك صديقة في شنغهاي، اليوم؟» ابتسمَ، ولم يقل شيئاً.

ذهبتْ شهيتُكِ في تلك اللحظة، أدراج الرياح، والمنطقة الأعمق من صدركِ أصيبت بالاحتشاء. في تلك اللّيلة، لم يصدرْ عنكِ أنينٌ قطّ، حين أدخله بين فخذيكِ، بل عضضتِ على شفتيكِ، وتظاهرتِ بأنّك لم تبلغي الذروةَ، لأنك كنتِ تعلمين بأنّ هذا سوف يقلقه. لاحقاً، أخبرْته لماذا كنتِ منزعجةً، وعلى الرغم من أنكما ذهبتما مراراً إلى مطعم تشانغ معاً، وتبادلتما القبل، حتى قبل أن تحضرَ قائمة الطعام، لكنّ النادل الصيني لم يكن بمقدوره أن يتخيل أن بينكما علاقة غرامية، واكتفى بأن ابتسم، ولم يقل شيئاً. وقبل أن يعتذر، نظر إليكِ نظرةً بلهاء، وأدركتِ أنّه لم يفهمْ شيئاً.

اشترى لكِ هدايا، وحين اعترضتِ على الأثمان الباهظة، قال إنّ جدّه في بوسطن ثري، ثم أضاف، على عجل، أن الرجل العجوزَ، بعثر الكثير من المال، وبالتالي التركة التي خلفها وراءه لم تكن كبيرة. والداهُ أصاباكِ بالحيرة. الهدايا هي كرة زجاجية، من الحجم الأول، هززتِها لتري دميةً صغيرةً، بنفسجية، تدورُ حول مركزها. وحجرٌ مشعّ، يستعيرُ سطحُه لونَ كلّ ما يلمسه. ووشاحٌ باهظ الثمن، فوقه رسومات يدوية، من المكسيك. أخيراً، قلتِ له، بصوتٍ مشبعٍ بالمفارقة، إنّ الهدايا، في حياتكِ، كانت، دوماً، مفيدة. فالحجر، على سبيل المثال، يكون صالحاً إذا استطعتِ أن تطحني أشياء فيه. ضحك طويلاً، وعميقاً، لكنك لم تضحكي. أدركتِ، أنه في حياته، يستطيع أن يشتري هدايا ليست سوى هدايا فحسب، ولا شيءَ آخر، ولا شيءَ مفيد. حين بدأ يشتري لك أحذيةً وملابس وكتباً، طلبتِ منه ألا يفعل، وأنك لا تريدين منه أي هدايا. لكنه اشتراها، رغم ذلك، وأنتِ احتفظتِ بها لأبناء عمّاتك، وأعمامك وعمّاتك، حين تكونين قادرة، ذات يوم، على أن تزوري الوطن، مع أنك لا تعلمين كيف يمكن أن تتدبّري سعر بطاقة الطائرة، وأجرة غرفتك في آنٍ واحدٍ. قال إنه حقاً يرغب برؤية نيجيريا، ويمكن أن يتكفّل بنفقات السفرِ لكلّ منكما. لا تريدينه أن يدفع عنكِ لكي تزوري بلدك. لا تريدينه أن يذهب إلى نيجيريا، كي لا يضيفها إلى قائمة البلدان التي زارها، وراح يحدق ببلاهة بحياة فقرائها، الذين لن يستطيعوا أبداً أن يبادلوه بالمثل، ويحدّقون، ببلاهة، بحياتِهِ. قلتِ له هذا، ذات نهارٍ مشمسٍ، حين دعاك لتري لونغ آيلاند ساوند، وانخرط كلاكما بجدالٍ طويلٍ، وارتفعتْ أصواتكما، بينما كنتما تمشيان بمحاذاة المياه الهادئة. قال إنك مخطئة حين وصفْتِهِ بالمعتدّ كثيراً برأيه. قلتِ له إنه مخطئ بأن يعتبر الفقراء في بومباي بأنهم وحدهم الهنود الحقيقيون. هل هذا يعني أنه ليس أمريكياً حقيقياً، بما أنه لا يشبه أولئك الناس الفقراء البدينين الذين رأيتِهمْ، معهُ، في هارتفورد؟ مشى بسرعة، سابقاً إياكِ بخطوات إلى الأمام، وظهر الجزءُ العلويُ من جسده، عارياً وشاحباً، فيما ذرّات الرّمل تتطايرُ من نعليه الشاطئيين. لكنه

سرعان ما استدرك، وعادَ، ممسكاً بيدكِ. تبادلتما القبل، ثم نمتما معاً، ولعبت أصابعك بشعره، ولعبتْ أصابعه بشعركِ. شعره ناعمٌ وأصفر مثل الزغب الراقص لأقراط الذرة الغضّة، وشعرك أسود ووثّاب مثل حشوة الوسادة. استقبل الكثير من ضوء الشمس، وتلوّنَ جسدُه بلون البطّيخ الأصفر الناضج، وطبعتِ قبلةً على ظهره، قبل أن تضعي المراهمَ الشّمسية فوقه.

الشيء الذي التفّ حول عنقكِ، وكان على وشك أن يخنقكِ، قبل أن تخلدي إلى النّوم، بدأ يرتخي رويداً، رويداً، ويتركك وشأنكِ.

كنتِ تعلمين، من خلال ردود فعل الناس، أنكما، لستما طبيعيين- الوقحون وقحون جداً، واللطيفون لطيفون جداً. الرجال البيض العجائز الذين غمغموا وتمتموا وحملقوا به، والرجال السّودُ الذين هزوا رؤوسهم كلما رأوك، والنسوةُ السّودُ، اللّواتي وجّهْن نظراتِ الشّفقة إليكِ، يندبْن قلّةَ احترامكِ لذاتكِ، بل كراهيتكِ لنفسكِ. أو النسوة، من سمراوات البشرة، اللّواتي يبتسمن ابتسامات تضامنٍ سريعة؛ أو الرجال من ذوي البشرة السمراء، الذين حاولوا جاهدين مسامحتكِ، قائلين له كلمة مرحباً، لا لبس فيها، أو النسوة والرجال، من ذوي البشرة البيضاء، الذين قالوا: «يا لهما من اثنين وسيمين!» بصوت صريحٍ، واضحٍ، وكأنهم يريدون فقط أن يثبتوا لأنفسهم عقولهَم المنفتحة.

بيد أنّ أبويه لم يكونا كذلك، وكانا حقاً مختلفين. جعلاكِ تشعرين أنّ كلّ شيءٍ طبيعيٌ جدّاً. أمّهُ قالت لكِ إنه لم يُحْضِرْ أبداً فتاةً من قبل كي تقابلهما، باستثناء فتاة الحفلة، في المدرسة الثانوية، التي كان يخرجُ معهَا. أمسكَ يدكِ، ضاغطاً عليها، راسماً على وجهه ابتسامة صارمة. محرمةُ الطّاولة حجبتْ يداكما المتشابكتان. عصرَ يدكِ، وعصرْتِ يده، وتساءلتِ لماذا بدا متيبّساً، ولماذا عيناه، ذواتا اللّون الزّيتوني الفاخرِ، أظلمتا، حين بدأ يتحدث مع أهلهِ. أمه فرحت فرحاً شديداً حين سألتكِ

ما إذا كنتِ قد قرأت نوال السعداوي، وقلتِ لها نعم. أبوه سأل إلى أيّ حدٍّ يتشابهُ الطعامُ الهندي مع النيجيري، ومازحكِ كي تدفعي الحساب، حين أتى شيكُّ الطاولة. نظرتِ إليهما، وشعرتِ بالامتنان تجاههما، لأنهما لم يتفحّصاكِ كما يتفحّصُ المرءُ أيقونةً عجائبيةً، أو ناباً من العاج.

كنتِ أكثر غضباً حين أخبركِ أنه رفض الذهاب معهما إلى كندا لقضاء أسبوع أو اثنين، هناك، في البيت الريفي في مقاطعة كيوبك. بل لقد طلبا منه أن يأتي بكِ. رأيتِ صوراً للكوخ الريفي، وتساءلتِ، بغرابة، لماذا يطلقون عليه الكوخ، وقلتِ في نفسكِ، إنّ أبنيةً، بذاك الحجم، حول حيِّكم في نيجيريا، هي بنوكٌ وكنائس. أوقعتِ كأساً، وتهشّمتْ، فوق الأرضية الخشبية الصلبة في شقته، وسألكِ ماذا حدث، ولم تقولي شيئاً، رغم أنّكِ كنتِ تعتقدين أنّ ثمة الكثير ممّا ليس صواباً. فيما بعد، وأنت تستحمّين، بدأتِ تبكين. راقبتِ قطراتِ الماء تسيلُ مع دموعكِ، ولم تعرفي لماذا كنتِ تبكين حقّاً.

كتبتِ، أخيراً، إلى أهلكِ. رسالة قصيرة إلى أبويكِ، حشوتِ فيها قطع الدولار الورقية، وضمّنتِها عنوانكِ. وصلكِ الردُّ، بعد أيام قليلةٍ فقط، عبر البريد السّريع. أمّكِ كتبت الرسالةَ بنفسها. عرفتِ هذا من خلال خطّها، الذي يشبه تعرّجات العنكبوت، ومن الأخطاء الإملائية الكثيرة.

أبوكِ توفي. انهار فوق مقود سيارته التابعة لشركة البناء. قبل خمسة أشهر، كما كتبتِ. استخدموا بعضاً من المال الذي أرسلْتِهِ لتحضيرِ جنازةٍ لائقة له. نحروا ماعزاً للضيوف، ودفنوهُ في تابوتٍ جيّد. تكوّرتِ في الفراش، وضغطتِ ركبتيكِ باتجاه صدرك، وحاولتِ أن تتذكري ماذا كنتِ تفعلين حين ماتَ، وماذا كنتِ تفعلين طوال كلّ تلك الشهور، التي أعقبت موته. ربما مات أبوك في اليوم نفسه الذي كان قد تجمّد فيه جسدكِ، وانتصب شعرُكِ، من قمةِ رأسكِ حتى أخمص قدميكِ، وبات جسدك قاسياً كأرزّ نيءٍ، من دون أن تفهمي السبب، حتى أن جوان

مازحكِ، وقال لك عليكِ أن تأخذي مكانَ الشيف، لعلّ حرارة المطبخ تعيدُ لكِ حيويتكِ. ربما مات أبوكِ في أحد تلك الأيام التي ذهبتِ فيها إلى (ميستيك)، أو شاهدتِ فيها عرضاً مسرحياً، في مانشستر، أو حين كنتِ تتناولين العشاء في مطعم تشانغ.

عانقكِ، إذ كنتِ تبكين، ومسّدَ شعركِ، وعرض عليكِ بطاقة الطائرة، كي تذهبا معاً لرؤية عائلتك. قلتِ لا، تريدين أن تذهبي وحدكِ. سألكِ إن كنتِ ستعودين، وذكّرتِهِ أنكِ حصلت على غرين كارد، وسوف تخسرينها، إذا لم تعودي في غضون سنة. قال لكِ لقد فهمتِ ما يعنيه، هل ستعودين، تعودين حقاً؟

استدرتِ بوجهكِ، ولم تقولي شيئاً، وحين أوصلكِ بسيارته إلى المطار، عانقْتِهِ بحرارة، ودام العناقُ لحظةً، طويلةً، طويلةً، ثمّ افترقتما.

السفارة الأمريكية

وقفتْ في الطّابور، خارج مبنى السفارة الأمريكية في لاغوس، تنظرُ إلى الأمام، على شكل خطّ مستقيم، لا تحرّكُ ساكناً تقريباً، وتحت إبطها مصنّفٌ بلاستيكيٌ أزرق مليءٌ بالوثائق. إنّها الشّخص الثّامن والأربعون، في الطابور، المؤلف من حوالي مئتي شخصٍ، الذي يبدأ من البوابات المغلقة للسفارة الأمريكية، مروراً بالبوابات الأصغرِ للسفارة التشيكية، التي تعرش فوقها نباتاتُ الكرمة. لم تنتبهْ قطّ لباعة الجرائد الذين يدسّون الغارديان وذانيوز، وفانغارد، في وجهها، أو للمتسوّلين الذين يمرّون صعوداً ونزولاً، حاملين طاساتٍ فضّيةً مزخرفة، أو لدرّاجات البوظة الهوائية بزماميرها العالية. ولم تكن تستعملُ الجريدة كمروحة، أو حتّى تطرد ذبابة صغيرة دأبت تحوّمُ حول أذنِها. حين نقَرَ الرّجلُ الواقف خلفها على كتفها، وسألها، «هل لديكِ فراطة. عشرتان مقابل قطعة من العشرين نيرا (ليرة)»، حملقتْ به لبعض الوقت، محاولةً أن تركّز، وتتذكّر أين هي، قبل أن تهزّ رأسَها وتقول، «كلاّ».

الهواءُ مشبعٌ بحرارةِ الرّطوبة. لقد أرخى بثقله، كلّه، على رأسها، وجعل الأمر أكثر صعوبةً بأن تُبقي عقلها صافياً، وهي نصيحة قدّمها الدكتور بالوغان، بالأمس، حين قال لها إنّ هذا ما ينبغي عليها أن تفعله. وقد رفض أن يعطيها أيّ نوعٍ من المهدّئات لأنها ينبغي أن تكون في أشدّ حالات الانتباه، أثناء مقابلةِ الفيزا. كان من السّهل عليه أن يقول هذا، وكأنّها تستطيعُ أن تجد طريقةً لإبقاء عقلها صافياً، وكأنّ الأمرَ يقع في

دائرة استطاعتها، أو كأنّها هي من تستدعي تلك الصور، عن جسد ابنها الصغير البدين، يوغانا، الذي يأتي زاحفاً أمامها، وعلى صدره بقعةُ طلاءٍ أحمر، حتى أنّها أرادت أن تعنّفه، كي لا يلعبَ ثانيةً بزيت النّخيل في المطبخ. ليس لأنّ بمقدوره أن يطال الرفّ بيديه، حيث تضعُ الزّيوتَ والبهارات، وليس لأنه يستطيعُ أن ينزعَ الغطاءَ الصغيرَ عن زجاجة زيت النخيل. لم يكن عمره قد تجاوز أربع سنوات.

الرجل الواقفُ خلفها لكزها ثانيةً. دارت حول نفسها، وكادت تصرخُ من الألم الحادّ الذي سرى عبر ظهرها. عضلة مجهدة، كان الدكتور بالوغان قد قال، وتعابير وجهها تشير إلى أنها لم تتعرض لصدمةٍ أكثر خطورةً، بعد أن قفزت من أعلى الشرفة.

«هل ترين ماذا يفعل ذاك الجنديّ، العقيمُ، الواقف هناك؟» قال الرّجلُ الواقفُ خلفها.

استدارتْ لتنظرَ عبر الشّارعِ، محركّةً عنقَها ببطءٍ. رأتْ حشداً صغيراً من الناس قد بدأ يتجمّعُ. كانَ الجنديُّ يضربُ شخصاً بسوطٍ طويل، يعلو، معقوفاً، في الهواء، ثم يهوي على وجهِ الرجل، أو على رقبته، لم تكن متأكّدة، لأنّ يدي الرّجل مرفوعتان، في محاولةٍ لصدّ السوط. رأتْ نظّارتي الرّجل تسقطان عن أنفه، وتقعان أرضاً. رأت مقدّمة حذاء الجندي تهشّم الإطارَين الأسودَين، والعدستين المذهّبتين.

«هل ترين كيف يستجدي الناسُ هذا الجنديّ؟» قال الرجلُ الواقفُ خلفها. «أناسُنا باتوا معتادين كثيراً على الاستجداء أمام الجنود».

لم تقلْ شيئاً. لكنه ظلّ ملحّاً، أكثر فأكثر، على سلوكه الودود، على نقيضِ المرأة التي تقف أمامها، والتي كانت قد قالت لها، «أحاول أن أتحدث إليك، لكنك تكتفين بالنظر إليّ، وكأني بعبع»، ثم تجاهلتها تماماً. ربما كان يتساءلُ لماذا لا تشاركُ الآخرين أطراف الحديث، على غرار ما يفعل الجميعُ في الطابور. لأنهم جميعاً استيقظوا باكراً – أولئك الذين ناموا أصلاً- للوصول إلى السفارة الأمريكية قبل الفجر، ولأنهم

جميعاً عانوا للوقوف في طابور الفيزا، متحمّلين سياط الجنود، الذين يسوقونهم كالقطيع، ذهاباً وإياباً، قبل أن ينتظم الطابور، أخيراً؛ ولأنّهم جميعاً يخشون أن تعلن السفارة الأمريكية أنها لن تفتح بواباتها، اليوم، وبالتالي يتوجّب عليهم أن يعيدوا الكرّة، في اليوم ما بعد التالي، لأنّ السفارة لا تفتح أبوابها أيام الأربعاء، ولأنّ، ولأنّ، ... نشأتْ بين الواقفين صداقات شتّى. أصحاب الملابس الرسمية، من النساء والرجال، تبادلوا الجرائد، وكلمات الشجب الموجّهة ضدّ حكومة الجنرال أباتشا، بينما الشباب والشابات، الذين يرتدون ملابس الجينز، وينضحون فتوةً وحماسةً، فكانوا يتبادلون الجملَ التي ينبغي أن يقولوها أثناء مقابلة الفيزا الأميركية الخاصّة بالطلبة.

«انظري إلى وجهه. كلُّ ذاكَ النزف. السّوطُ جرحَ وجهَه» قال الرّجلُ الواقفُ خلفها.

لم تنظرْ، لأنها تعرف أن الدّم سيكون أحمرَ اللون، مثل زيت التمر الطّازج. عوضاً عن ذلك، راحت تنظر إلى «إلكي كريسنت»، وهو شارعٌ يعجّ بالسفارات، وبمساحات العشب الواسعة، وإلى حشود النّاس على جانبي الشارع. رصيفٌ لشمّ النسيم. وسوقٌ يخرجُ للحياة خلال ساعات افتتاح السفارة الأمريكية، ليعودَ ويختفي حين تغلقُ السفارة أبوابها. في البعيد محلٌّ لتأجير الكراسي، حيث الأكداس المتراصّة من كراسي البلاستيك البيضاء، التي تكلّف الواحدة مئة نيرا (ليرة) لقاء ساعة واحدة، تضاءل عددها بسرعة فائقة. وثمة أيضاً البسطات الخشبية، المرفوعة على كتل خراسانية، تعرضُ، بكلّ الألوان، الحلويات والمانغا والبرتقال. وثمة الشبان الذين وضعوا صواني مملوءة بالسجائر، فوق رؤوسهم، داخلِ لفائف مطوية من النسيج. وثمة المتسولون العميان، الذين يقودهم أطفالٌ صغار، يرددون الابتهالات بالإنكليزية، ويوروبا، وإغبو، وهاوسا، حين يقوم أحدهم بوضع النقودِ في صحونهم. وهناك، بالطبع، إستديو التصوير المتنقل. رجلٌ طويل القامة، يقف بالقرب من منصب ثلاثي

القوائم، ويحمل بيده لوحةً كُتب عليها بالطباشير الجمل التالية: صورٌ ممتازةٌ خلال ساعة واحدة، ونسخٌ صحيحة، مطابقةٌ لمواصفات الفيزا الأميركية. هناك أخذت صورتَها الملصقة على جواز سفرها، بعد أن جلست على كرسي صغير، متهالك، ولذلك لم تُصبها الدهشة حين ظهرت الصورة مهزوزةً، وبدت بشرةُ وجهِها أكثر بياضاً. لكنها لم تكن تملك خياراً آخر، وكان يصعب عليها التقاط الصورة في وقت أبكر.

منذ يومين فقط، دفنت ابنها في قبرٍ، قرب قطعة أرض، مزروعة بالخضروات، في مسقط رأسها، يوموناتشي، محاطة بمعزين لا تتذكّر أحداً منهم الآن. وقبل يوم من هذا، وضعت زوجها في طبّون سيارة تويوتا، وأوصلته إلى بيت أحد الأصدقاء، الذي قام، بدوره، بتهريبه إلى خارج البلاد. وقبل يوم واحدٍ من ذاك اليوم، لم تكن تحتاج لأخذ صورة تضعها على الجواز، لأنّ حياتها كانت طبيعية، بعد أن رافقت طفلها يوغونا إلى المدرسة، واشترت له لفافة حلوى، من محلّ السيد بيغز، وردّدتْ، مع ماجيك فاشيك، أغنيةً كانت تُذاع على راديو السيارة. لو أنّ قارئاً للكفّ قال لها إنها، في غضون بضعة أيام، لن يكون بمقدورها التعرّف إلى حياتها، لانفجرتْ ضحكاً. بل إنها كانت ستعطي قارئ الكفّ عشر نيرات (ليرات) إضافية لقاء مخيلته المجنونة.

«أحياناً أتساءلُ ما إذا كان موظفو السفارة الأمريكية ينظرون من نوافذهم، ويستمتعون بمشاهدة الجنود، وهم ينهالون بالضرب على النّاس»، الرجلُ الواقفُ خلفها قال. تمنّت لو أنه يخرس على الفور. حديثهُ كان السبب في أنها لم تستطع أن تحافظ على صفاء ذهنها، وخالياً من صور يوغانا. نظرتْ عبر الشارع من جديد. ابتعد الجندي، الآن، وكان بإمكانها أن تلمح، حتى من تلك المسافة، حملقةَ وجهه. حملقة شخصٍ ناضج يستطيع أن يرفسَ شخصاً ناضجاً آخر، متى شاء، وأينما شاء. مشيته المتبخترة متعجرفة، كتبخترِ أولئك الرّجال الذي اقتحموا منزلها، قبل أربعة ليالٍ، فقط.

«أين هو زوجك؟ أين هو؟» خلعوا خزائن الملابس في الغرفتين، وحتى الأدراج. كان يمكنها أن تقول لهم إن زوجها فارع الطول، ويبلغ ست أقدام، ولا يمكنه، بأي حال، أن يختبئ في درج. ثلاثة رجالٍ يرتدون بنطلونات فاحمة. تفوح منهم رائحة الكحول، وحساء الفلفل، ولاحقاً، وبينما كانت تحملُ جسدَ يوغونا الهامد، عرفت أنها لن تتذوّق، أبداً، حساءَ الفلفل، ثانيةً.

«أين ذهب زوجُك؟» أين؟» وضعوا السلاح في رأسها، وقالت، «لا أعلم، لقد غادر يوم البارحة.» كانت تقفُ ساكنةً، رغم أنّ البول الحارّ كان قد بدأ يسيلُ على ساقيها.

أحد هؤلاء يرتدي قميصاً أسودَ، ذا قلنسوة، تفوح منه رائحةُ الكحول، وعيناه تغطّيهما الدماء، على نحوٍ يثيرُ الذعرُ. عينان حمراوان جدّاً، لدرجة أنّهما يسبّبان الألم. كان الأكثر صراخاً بين الثلاثة، حتى أنه رفس بقدمه جهاز التلفزيون. «هل أنتِ على دراية بالقصّة التي كتبها زوجكِ في الصحيفة؟ تعرفين أنه كاذب؟ تعرفين أن أناساً على شاكلته ينبغي أن يكونوا خلف القضبان، لأنهم يسبّبون المشاكل، ولأنهم لا يريدون لنيجيريا أن تتطور، وتسيرَ قدماً؟»

جلس على الأريكة، حيث اعتاد زوجُها، دائماً، أن يجلس، لمشاهدة أخبار المساء، على محطة (NTA)، وسحبها باتجاهه، ما جعلها تجدُ نفسها، في حضنه، ومسدّسه يلكزُ خصرها. «حسناً، يا امرأة، لماذا تتزوجين من رجل يثير المشاكل؟» شعرتْ بقسوتِهِ المقزّزة، وشمت أنفاسَه التي تفوحُ منها رائحة الخمرة.

«اتركْها وشأنهَا،» قال الآخرُ، الذي معه. الآخرُ، صاحب الرأس الأصلع، البراق، كأنّما دهنه بالفازلين. «دعنا نخرج من هنا».

نفضتْ نفسَها عنه، ونهضتْ عن الأريكة، والرّجل صاحب القلنسوة، الذي كان ما يزال جالساً، صفعَها على مؤخّرتها. في تلك اللحظة بالذات بدأ يوغانا بالبكاء، والجري نحوها. الرّجل، الذي يرتدي قميص القلنسوة،

راح يضحكُ، قائلاً كم أنّ جسدَها ناعمٌ، وحرّكَ سلاحه باتجاهها. بدأ يوغانا يصرخُ، الآن. لم يسبقْ له أن صرخَ وهو يبكي، بل لم يكن من ذاك النّوع من الأطفال قطّ. عندئذٍ، خرجت الطلقةُ من المسدّس، وفجأةً ظهرت لطخةُ زيتِ التمرِ، على صدرِ يوغانا، حمراء، قانية.

«انظري، إنهم يبيعون البرتقال هنا»، الرّجلُ الواقفُ خلفها قال، وقدّمَ لها حقيبةً بلاستيكية، فيها ستّة كيلوغرامات من البرتقال المقشّر. لم تكن أصلاً انتبهتْ إلى أنه قد اشتراها.

هزّت رأسها، «شكراً».

«خذي واحدة. لاحظتُ أنّكِ لم تأكلي شيئاً منذ الصباح».

عندئذٍ، نظرتْ إليه، على نحوٍ مناسب، للمرة الأولى. وجهٌ لا يخلو من وسامة، بملامح سوداء، ناعمة، ونعومة غير معهودة في رجل. ثمة شيء طموح يحيط بقميصه المكوي السلس، وياقته الزرقاء، وبالطريقة المتأنية التي يتحدث بها الإنكليزية، وكأنه يخشى أن يرتكب غلطةً ما. ربّما كان يعملُ لمصلحة أحد بنوك الجيل الجديد، ويكسبُ دخلاً عالياً، لم يكن ليتخيّله أبداً.

«كلاّ، شكراً» قالت. المرأة الواقفة أمامها استدارت لتلقي نظرةً نحوها، ثم عادت لتكملَ حديثَها، مع بعض النّاس، عن خدمة تقوم بها كنيسة خاصّة، تُدعى «وزارةُ معجزة الفيزا الأميركية».

«ينبغي أن تأكلي شيئاً، هه» الرجل الواقف خلفها قال، رغم أنه لم يكن يحمل كيس البرتقال في يده هذه المرة.

هزّتْ رأسَها، من جديد، فالألمُ ما زال هناك، يترسّبُ، في نقطةٍ ما بينَ عينيها. وكأنّ القفز من فوق الشرفة قد تسبّب بخلخلة نتفٍ وأجزاء من رأسها، والآن تتحرّكُ مسبّبة الألم. لم يكن القفزُ خيارها الأول، وكان يمكنها، أيضاً، أن تتسلّق شجرة المانغا، التي تصل أغصانها الشرفة، وكان يمكنها أن تهرع، نازلةً الدَرَج. كان الرّجالُ يتجادلون بصوتٍ عالٍ، حتى

أنهم حجبوا بأصواتهم عالم الواقع، واعتقدت للحظة بأنّ ذاك الصوت الصارخ لم يكن المسدّس، بل هدير الرعد المفاجئ، الذي يسبق، عادةً، موسم الرياح الغبارية، وأنّ اللطخة الحمراء ليست سوى زيت التمر، وبأنّ يوغانا وصل، بطريقة ما، إلى القارورة، وبأنه يمازحها، ويلعبُ لعبة الإغماء معها، رغم أنها ليست اللعبة التي سبق له أن لعبها. «هل تظنّ أنها ستخبر الناس بأنه حادث عرضي؟ أهذا ما طلبه منّا أوغا أن نفعله؟ طفل صغير! يجب أن نصفّي الأم. لا، لا، تصبحُ المشكلة مضاعفة. نعم. لا هيا بنا، يا صديقي!».

عندئذٍ اندفعت باتجاه الشرفة، وصعدت حديدَ الدرج، وقفزت إلى الأسفل، من دون التفكير بعلوّ الطابقين، وزحفت على ركبتيها، واختبأت في حاوية الزبالة، قرب البوابة. وبعد أن سمعت هدير سيارتهم يختفي بعيداً، هرعتْ عائدةً إلى شقتها، تفوحُ من ثيابِها رائحةُ القشور النتنة، في الحاوية. حملت جسدَ يوغانا، ووضعت خدّها على صدره الهادئ، وأدركتْ أنها لم تشعرْ بالعار يوماً مثلما تشعر به الآن. لقد خيّبت أمله.

«أقلقة أنتِ بشأن مقابلة الفيزا، يا عزيزتي؟» سأل الرجل الواقف خلفها.

هزت كتفيها، خشية أن تؤذي ظهرها، وأجبرتْ نفسها على ابتسامةٍ خاوية.

«ينبغي أن تنظري مباشرةً إلى عينِ الشّخص الذي يُجري المقابلة، حين تُجيبين على الأسئلة. حتّى وإن ارتكبتِ خطأً ما، لا تصحّحي لنفسكِ، لأنّهم سوف يظنّون بأنك تكذبين. لدي العديد من الأصدقاء، ممن تم رفضهم، بسبب تفاصيل صغيرة، صغيرة جداً. بالنسبة لي، أتقدم للحصول على فيزا زيارة. شقيقي يعيشُ في تكساس، وأريدُ أن أقضي عطلتي هناك».

بدا صوته شبيهاً بتلك الأصوات التي كانت حولها، أناس ساعدوا زوجها على الهرب، وساعدوا في مراسيم جنازة يوغانا، وأتوا بها إلى

السفارة. لا تتلعثمي وأنتِ تجيبين على السؤال، قالت لها الأصواتُ. اذكري لهم كلّ التفاصيل عن يوغانا، عن حجمه وطوله، ولكن لا تبالغي، لأنّ الناس يكذبون أمامهم يومياً، من أجل الحصول على فيزا اللّجوء، وعن أقارب لهم ماتوا، ولم يولدوا أصلاً. اجعلي يوغانا حقيقياً. ابكي، ولكن لا تبكي كثيراً.

«لم يعودوا يمنحون ناسنا فيزا للهجرة، إلا إذا كان الشخص غنياً بالمعايير الأمريكية. لكنني سمعتُ أن الناس، من البلدان الأوروبية، ليست لديهم مشكلة في الحصول على الفيزا. هل تتقدّمين للحصول على فيزا للهجرة أم للزيارة؟» سأل الرجل.

«اللّجوء». لم تنظرْ إلى وجهه. لكنها شعرتْ بدهشتِهِ.

«اللجوء؟ سيكون من الصعب جدّاً إثبات ذلك».

تساءلت ما إذا كان قد قرأ (نيجيريا الجديدة)، أو سمع باسم زوجها. وربّما سمع به. كلّ شخصٍ يساند الصحافة التي تساند الديموقراطية يعرفُ زوجها، وبخاصة لأنه أوّل صحافي يسمّي مؤامرة الانقلاب بأنها مسرحية مدبّرة، ويكتب قصة يتهم فيها الجنرال أباتشا بابتداع انقلابٍ من أجل أن يقتل ويسجن خصومَه. كان الجنود قد أتوا إلى مكتب الصحيفة، وصادروا أعداداً كبيرةً من تلك الطبعة، ووضعوها في شاحنة سوداء، مع ذلك ظل الناس يتداولون نسخاً مصورة، فوتوكوبي، عن تلك المقالة، في كلّ أرجاء لاغوس- أحد الجيران رأى صورةً منها ملصقةً على حائط جسر، إلى جانب إعلانات تسوّق لحملات الكنيسة وللأفلام الجديدة. الجنودُ اعتقلوا زوجها لمدّة أسبوعين، وحطّموا الجلد على جبهته، تارِكين كدمةً على شكل حرف (L). الأصدقاء لمسوا الوشم برقة، حين تجمهروا في شقتهم، كي يحتفلوا بإطلاق سراحه، بعدما أحضروا معهم زجاجات الويسكي. تذكّرتْ أحدهم يقولُ له، «نيجيريا ستكون بخير بسببك»، وتذكرت تعابير الوجه لزوجها، ونظرة المسيح المثيرة في عينيه، بينما كان يتحدث عن الجندي الذي أعطاه سيجارة، بعد أن قام

بضربه، وظلّ يتأتئ، طوال الوقت الذي كان يضربه فيه، بالطريقة نفسها التي حافظ فيها على معنويات عالية. وطوال السنين كانت تلك التأتأة حميمةً جداً بالنسبة لها، ولكن ليس بعد اليوم.

«الكثير يتقدمون للحصول على فيزا اللّجوء، لكنهم يفشلون»، قال الرجل الواقف خلفها، بصوتٍ عالٍ. ربما كان قد بدأ حديثه منذ وقت طويل.

«هل تقرأ صحيفة نيجيريا الجديدة؟» سألتْهُ. لم تلتفتْ لتواجهَ الرّجل، بل راحت تنظرُ إلى زوجين، أمامها في الطابور، يشتريان علباً من البسكويت، والعلب تُصدرُ طقطقةً لدى فتحها.

«نعم. هل تريدين نسخةً منها؟ ربّما لا يزالُ لدى البائعين أعداداً منها».

«كلاّ. كنتُ فقط أسألُ».

«صحيفة جيّدة جدّاً. هذان المحرران هما ما تحتاجه نيجيريا. إنهما يخاطران بحياتهما كي يقولا لنا الحقيقة. إنّهما حقاً رجلان شجاعان. لو كان فقط لدينا المزيد من هؤلاء، مع ذاك النّوع من الشجاعة».

إنها ليست شجاعة، إنها ببساطة أنانية مبالغٌ فيها. قبل شهر مضى، حين نسي زوجها زفاف ابن خالته، رغم أنهما كانا قد اتفقا على أن يكونا مشرفين على الزفاف، قائلاً لها إنه لا يستطيع أن يلغي رحلته إلى كادونا، لأنّ مقابلته مع الصحافي المعتقل هناك هامة جداً، نظرت إليه كزوجٍ بعيدٍ، مطرودٍ، وقالتْ، «لستَ الشّخص الوحيد الذي يكره الحكومة.» وذهبتْ إلى الزفاف وحدها، وذهب هو إلى كادونا، وحين عاد، لم يقولا كثيراً بعضهما لبعض. الشطر الأعظم من حديثهما انصبّ حول يوغونا، في جميع الأحوال. لن تصدّق ماذا فعل الصبي اليوم، كانت تقول له، أثناء عودته من عمله، ثم تمضي لتصف، بالتفصيل، كيف أن يوغونا أخبرها بأنّ الفلفل موجودٌ في علبة رقائق القمح (كويكر أوتس)، وبالتالي لن يفكر بأكلها ثانيةً، أو كيف ساعدها في سحبِ الستائر.

«إذن، تعتقد أنّ ما يفعله هذان المحرران هو ضرب من الشجاعة.» التفتت لتواجه الرجل الواقف خلفها.

«نعم، بالطبع. ليس الكلّ يستطيع أن يفعل ذلك. هذه هي المشكلة الحقيقية بالنسبة لنا في هذه البلاد، ليس لدينا ما يكفي من الرجال الشجعان». نظر إليها نظرةً طويلة، لا تخلو من الارتياب، وكأنما كان يتساءلُ ما إذا كانت من مناصري الحكومة، الذين لا يكفّون عن اختلاق الأعذار لها، أو أولئك الذين ينتقدون الحركة المناصرة للديموقراطية، والذين يرون أن الحكومة العسكرية هي وحدها القادرة على حكم نيجيريا. في ظروف مختلفة، كان يمكن لها أن تخبره عن تجربتها مع الصحافة، بدءاً من الجامعة في زاريا، حين قامت بتنظيم تظاهرة طلابية، احتجاجاً على قرار حكومة بوهاري تخفيض المساعدات المالية للطلبة. وكان يمكن لها أن تحكي كيف أنها كانت تكتب لصحيفة أخبار المساء، هنا، في لاغوس، وكيف أعدّت قصةً عن محاولة قتل ناشر «الغارديان»، وكيف قدّمتْ استقالتَها، حين أصبحتْ حاملاً، لأنها، هي وزوجها، حاولا لأربع سنوات متتالية الإنجابَ، وبأنّ رحمها مملوءٌ بالأنسجة التالفة.

أشاحت بوجهها عن الرجل، وراحت تتأمل المتسولين الذين يتجولون بمحاذاة خطّ الطابور. رجالٌ ممشوقو القامة، بجلابيب طويلة، بالية، يجسّون حبّاتِ سبّحاتهم بأصابعِهم، ويقتبسون من القرآن، ونسوةٌ، بعيون صفراء، يحملن أطفالهنّ، فوق ظهورهنّ، مربوطين بخيوط القماش، وزوجان أعميان، تقودهما ابنتهما، تتدلّى من أعناقهما، تحت ياقات ممزقة، عتيقة، ميدالياتٌ زرقٌ للسيدة العذراء المباركة. بائع جرِائد اقترب منها، وأطلق صفّارته. لم ترَ جريدة نيجيريا الجديدة بين أكداس الجرائد المكوّمة فوق ساعده. ربما نفدتْ أعدادُها للتوّ. آخر قصة نشرها زوجها تحت عنوان «سنوات آباتشا حتى الآن: من 1993 إلى 1997» لم تقلقْها، في البدء، لأنه لم يكن يكتب عن أيّ جديدٍ، بل يشير إلى جرائم القتل المتراكمة، والعقود الفاشلة، والأموال المختفية.

ليس الأمر أنّ النيجيريين لم يكونوا على دراية بكلّ هذا. لم تتوقع أي مشاكل إضافية، أو لفتٍ للأنظار، ولكن بعد يوم واحدٍ فقط من صدور الصحيفة، بث راديو بي بي سي القصّة في الأخبار، وأجرى مقابلة مع بروفسور نيجيري، مختصّ بالعلوم السياسية، يعيش في المنفى، قال فيها إنّ زوجها يستحقّ جائزة حقوق الإنسان. إنه «يقاتل القمعَ بقلمه، ويمنحُ صوتاً لمن لا صوتَ له، ويجعلُ العالم يعرف.»

زوجها حاول أن يخفي عنها قلقَه. بعدئذ، وبعد أن تلقى اتصالاً من شخص مجهول - كان دائماً يتلقى اتصالات مجهولة المصدر، فهو من ذاك النمط من الصحافيين، ممن أحاط نفسه بشبكة صداقاتٍ عديدة- يقولُ إنّ رأس الدّولة غاضب جداً من مقالته، توقّف عن إخفاء مخاوفه، وجعلها ترى بأمّ عينها يديه المرتجفتين، المرتعشتين. الجنودُ في طريقهم إلى اعتقاله، قال المتّصلُ. وجاءه الخبر بأنّ هذا الاعتقال سيكون الأخير، بالنسبة له، ولن يرى النورَ ثانيةً. صعدَ إلى طبون سيارته، بعد دقائق من الاتصال، وبالتالي حين يأتي الجنود ويسألون عنه، فإنّ حارس البوابة سيخبرهم، صادقاً، بأنه لا يدري أين ذهب زوجها. أخذت ابنها يوغونها إلى شقة أحد الجيران، ورشت الطبّونَ سريعاً بالماء، رغم أنّ زوجها قال لها بأن تسرع، لكنها كانت تعتقد بأنّ طبوناً رطباً سيكون أكثر برودةً، وسيكون بمقدور زوجها أن يتنفّس بشكل أفضل. قادت السيارة إلى منزل زميله ومعاونه، المحرّر. في اليوم التالي، اتصل بها من جمهورية «بينين»، فمعاونه المحرّر، اتصل بأشخاص يعرفهم، تدبروا أمر عبوره الحدود. الفيزا التي يحملها إلى أمريكا، والتي كان قد حصل عليها عندما التحق ببرنامج للتدريب في ولاية أطلنطا، ما زالت صالحة، وسوف يتقدّمُ بطلبِ لجوءٍ، حالما يصل إلى نيويورك. طلبت منه ألا يقلق، وأنها ستكون بخير، مع طفلها يوغونا، وسوف تتقدّم إلى طلب الفيزا مع نهاية الفصل الدراسي، وتلتحق به في أمريكا. في تلك الليلة، ظلّ يوغونا مضطرباً، وسمحت له بأن يسهر، ويلعب بدميته، السيارة

الصغيرة، بينما كانت تقرأ كتاباً. حين رأت الرجال الثلاثة يقتحمون باب المطبخ، كرهت نفسها لأنها لم تصرّ على يوغونا بأن يذهب إلى النوم باكراً. لو أنها فقط-

«أوه، هذه الشّمس ليست لطيفة أبداً. أناس السفارة الأمريكية ينبغي أن يضعوا مظلّة طويلة لنا. يمكنهم أن يستخدموا بعض الأموال التي يجنونها من أقساط الفيزا»، الرّجل الواقف خلفها قال.

شخصٌ يقف وراءه قال إنّ الأمريكيين يجمعون المال لاستخدامه لأمورهم الخاصة. شخصٌ آخر قال إنّ هذا مقصودٌ كي يجعلوا أصحابَ الطلبات ينتظرون تحت هجيرِ الشّمسِ. شخصٌ آخر ضحكَ. تحركت باتجاه الزوجين الأعميين المتسوّلين، ودسّت يدها في حقيبتها، بحثاً عن قطعة ورقية من فئة العشرين نيرا (ليرة). حين وضعتها في الطاسة النحاسية، صاح كلاهما، «بارك الله بكِ، ورزقك بمال كثير، وزوجٍ صالح، وعملٍ مريح»، بإنكليزية محلية، أولاً، ومن ثمّ بلغة إغبو، وأخيراً لغة يوروبا. شاهدتهما يمشيان بعيداً. لم يقولا لها، «وتُرزقين بأطفالٍ صالحين». سمعتهما يقولان هذا للمرأة التي تقف أمامها.

فُتحت أبواب السفارة على مصراعيها، وصاح رجلٌ يرتدي بذة بنية اللّون، « أوّلُ خمسين شخصاً في الطّابور فقط، هيا، اقتربوا وجهّزوا الاستمارات. أما البقية فاحضروا في يومٍ آخر. تستطيع السفارة الوقوف على خمسين متقدّمٍ فقط».

«محظوظون نحن، يا عزيزتي؟» قال الرّجل الواقف خلفها.

شاهَدتِ المرأة التي ستجري معها مقابلة الفيزا، من خلف حاجزٍ زجاجي، وراقبتِ الطريقة التي يلمسُ فيها شعرها الكستنائي رقبتَها الممدودة، والطريقة التي تتفحّصُ فيها العينان الخضراوان أوراقَها، من فوق الإطارات الفضّية، وكأنّ النظّارات لا ضرورةَ لها.

«هل تعيدين سردَ قصّتكِ، يا مدام؟ لم تقدّمي أي تفاصيل»، قالت المرأة التي تُجري المقابلةَ، راسمةً ابتسامةَ تشجيع على وجهِها. عرفتْ أنّ هذه فرصة لكي تتحدّث عن يوغونا.

نظرتْ إلى النافذة المجاورة، للحظةٍ خاطفةٍ، إلى رجلٍ ببذّةٍ سوداء، ينحني ملتصقاً بالحاجز الزجاجي، بكثيرٍ من التبجيل، كأنّه يصلّي أمام من يُجري معه مقابلةَ الفيزا. أدركت أنها تفضّل أن تموت، سعيدةً، على يدِ ذلك الرّجل، بقميص القلنسوة الأسود، أو على يدِ صاحب الرأس الأصلع المشعّ، قبل أن تقول كلمةً واحدةً عن يوغونا لهذه المرأة التي تُجري المقابلة، أو لأي شخصٍ آخر في السفارة الأمريكية: قبل أن تجعل من يوغونا فخّاً للحصولِ على الفيزا، وضمان السلامة.

ابنها قُتل، هذا كلّ ما ستقولُه. قُتل. لا شيء عن كيف كانت ضحكتُه تبدأ من فوق رأسِه، عاليةً، رنّانةً، وكيف كان يسمّي البسكويتَ والحلويات، «خبزة-خبزة»، وكيف كان يضع ذراعيه حول عنقها، حين تحتضنه، وكيف كان زوجها يقولُ إنه سوف يصبح فناناً لأنه لم يكن يحاول أن يبني شيئاً بمربّعات البلاستيك، بل يرتّبها، جنباً إلى جنب، مبدلاً الألوان فحسب. لا يستحقّون أن يعرفوا.

«مدام؟ تقولين إنها الحكومة؟» سألتْها المرأةُ التي تُجري مقابلة الفيزا.

كلمة «حكومة» شعارٌ عريضٌ، تجعلك تتحرر من عبء ما، وتعطي الناس فضاءً للمناورة، واختلاق الأعذار، وتوجيه اللوم. ثلاثة رجال. ثلاثة رجال مثل زوجها، أو أخيها، أو الرّجل الواقف خلفها على طابور الفيزا. ثلاثة رجال.

«نعم، إنهم عملاء للحكومة».

«هل تستطيعين أن تثبتي ذلك؟ هل لديك أي براهين توضّح ذلك؟».

«نعم. لكنني دفنتُها البارحةَ. جثة ابني».

«مدام، يؤسفني ما حدث لابنكِ»، قالت موظّفة الفيزا. «لكنني أحتاج بعض الأدلة بأنّ الحكومة ضالعةٌ بما جرى. ثمة اقتتال يجري بين مجموعات عرقية عدة، وحالات اغتيالٍ خاصّة تقعُ باستمرار. أحتاجُ دليلاً واحداً عن تورّط الحكومة، ودليلاً بأنّ حياتكِ في خطر، إذا بقيتِ هنا في نيجيريا».

نظرتْ إلى شفتيها، والصباغ القرمزي الخافت فوقهما، تفتران، وتُظهِران أسناناً صغيرةً. صباغٌ قرمزيٌ خافت على وجهٍ حيادي، منمّش. كانت لديها الشجاعةُ بأن تسألَ موظّفة السفارة إن كانت القصص المنشورة في صحيفة نيجيريا الجديدة تستحقّ أن يموتَ من أجلها طفل. لكنّها لم تفعل. شكّتْ أصلاً إن كانت الموظفة على دراية بالصحف المناصرة للديموقراطية، أو بالطوابير الطويلة المتعبة التي تنتظرُ خارج بوابات السفارة، في منطقة أمنية معزولة، حيث لا ظلّ يستظل به أحدٌ من الشمس الحارقة، التي تسببتْ بصداقاتٍ، ويأسٍ، وأوجاعِ رأسٍ.

«مدام، الولايات المتحدة توفّرُ حياةً جديدةً لضحايا القمع السياسي، لكنني أحتاجُ إلى دليلٍ كي ....»

حياة جديدة. يوغونا منحَها حياةً جديدةً. وأدهشها كيف استطاعَ أن يحوّلها، سريعاً، إلى هويتها الجديدة، وجعلَ منها إنسانة جديدةً. «أنا أمّ يوغونا»، كانت تقولُ في مدرسة الحضانة، للمعلمين، ولآباء وأمهات الأطفال الآخرين. في جنازته، في يومانتشي، ولأنّ أصدقاءها وعائلتها كانوا يرتدون ملابسَ موحّدة، سألها أحدهم «من هي الأمّ؟» ما جعلها تنظرُ إلى الأعلى، في لحظة صحوٍ مفاجئة، وتقول، «أنا أمّ يوغونا». أرادتْ أن تعودَ إلى مسقط رأسها، وتزرع أزهارَ البنفسج، التي كانت تمَصُّ سويقاتِها الإبريةَ النحيلةَ، حين كانت طفلةً. شتلةٌ واحدةٌ تكفي، فمساحةُ قبرهِ صغيرةٌ جداً. حين تتبرعمُ، وتبدأ الأزهارُ باستقبالِ أفواجِ النّحلِ، سوف تقطفُها، وتمصّ سويقاتها النحيلة، بينما تجلسُ فوقَ التراب. بعدئذٍ، سوف ترتّب الزهراتِ الممصوصةَ، جنباً إلى جنب،

مثلما كان يفعل يوغونا مع مربّعات البلاستيك. تلك، كما أدركتْ، هي الحياة الجديدة التي تريدها.

على النافذة المجاورة، كان موظّف الفيزا يتحدّثُ بصوت عالٍ، من خلف ميكروفونه. «لن أقبل أكاذيبك، يا سيّد!».

طالبُ الفيزا النيجيري، ببذته السوداء، بدأ يصيحُ ويحرّك يديه، ملوحاً بمصنّف البلاستيك الشفّاف، المحشوّ بالوثائق. «هذا خطأ! كيف يمكنكم أن تعاملوا الناس بهذه الطريقة؟ سوف أنقلُ هذا إلى واشنطن!» قبل أن يأتي حرسُ السفارة، ويجبروه على الخروج.

«مدام! مدام!»

هل كانت تتخيل هذا، أم أنّ التعاطف جفّ نهائياً من وجهِ موظفة الفيزا. لاحظت الطريقة السريعة التي رفعت فيها شعرها الأحمرَ الذهبي، رغم أنه لم يكن يضايقها، فقد كان ينسدلُ ناعماً، حول رقبتها، كاشفاً عن وجهٍ شاحب داخل الإطار. مستقبلها يتوقّف على هذا الوجه. وجه شخصٍ لم يكن يفهمها، ولم يسبق، على الأرجح، أن طبخ شيئاً بزيت التمر، أو يعرف بأنّ زيت التمر يكون أحمر اللّون، بهيّاً، بهيّاً، حين يكون طازجاً، وحين لا يكون طازجاً، يصيرُ أرجوانياً، متخثّراً.

استدارتْ ببطء، وتوجّهت نحو باب الخروج.

«مدام؟» سمعتْ صوتَ الموظّفة ينادي من خلف ظهرها.

لم تلتفتْ. خرجتْ من مبنى السّفارة الأمريكية، ومرّت بمحاذاة المتسوّلين، الذين كانوا ما زالوا يمدّون طاساتهم المزخرفة نحو الأمام، واستقلّتْ سيارتَها، ومضتْ.

الارتجاف

في اليوم الذي تحطّمتْ فيه الطّائرةُ في نيجيريا، وهو اليوم نفسه الذي توفّيت فيه السيّدة النيجيرية الأولى، طرق أحدهم بابَ يوكاماكا طرقاتٍ قويةً، في برينستون. أصابتها الطَرقاتُ بالدّهشة، إذ لم يسبق لأحدٍ أن أتى إلى بابها، من دون أن يعلنَ عن اسمه - هذه، على كلّ حال، هي أمريكا، حيث يتّصل الناسُ بالنّاس، قبل أن يقوموا بزياراتهم- ما عدا موظّف البريد السّريع، الذي لم يكن يطرق الباب بتلك القوّة، وهذا ما جعلها مضطربة، لأنها، منذ الصباح، أمضتْ وقتها على الإنترنت، تقرأ الأخبار النيجيرية، وتجدّدُ الصفحات الإلكترونية ، بين الفينة والأخرى، وتتصل بأهلها، وأصدقائها في نيجيريا، وتحضّرُ فنجاناً إثر آخر، من شاي «إيرل غراي»، التي يُسمح لها باحتسائها باردة. قامت بتصغير الصور الأولى من موقعِ الحطام. وفي كلّ مرة، كانت تنظر إليه، كانت تزيدُ من سطوع شاشةِ حاسوبها المحمول، متفحّصةً ما كانت وكالاتُ الأنباء تصفُهُ «بالحُطام»، وهو كومة سوداء تتخلّلها نقاطٌ بيض، مبعثرة كقصاصات ورق ممزقِة، وكومة هامدة من الفحم، كانت ذات يوم، طائرة مليئة بالنّاس - أناسٌ ربطوا أحزمة مقاعدهم حول خصورهم، وصلّوا؛ أناسٌ فتحوا جرائدهم وراحوا يقرأون؛ وأناسٌ انتظروا المضيفةَ، لتأتي بعربةٍ صغيرةٍ، وتسألَ، «سندويش أم كاتو؟» وأحدُ هؤلاء الناس قد يكون صديقها السابق، يودينا.

صوتُ الطَرْق على الباب عاد من جديد، أكثر قوّةً. نظرتْ من ثقب العين الساحرة للباب: رجلٌ، قصيرٌ وبدينٌ، أسود البشرة، بدا مألوفاً

بالنسبة لها، بشكلٍ غامض، لكنّها لم تستطعْ أن تتذكّر أين رأتْه من قبل. ربّما في المكتبة، أو في باص جامعة برينستون. فتحت الباب. ابتسم نصفَ ابتسامة، وتكلّم، من دون أن ينظر إلى عينيها. «أنا نيجيري. أسكنُ الطابق الثالث. أتيتُ لكي نصلّي معاً على ما يحدثُ في بلادنا».

دُهشتْ لأنه يعرف أنها هي أيضاً نيجيرية، ويعرف في أيّ طابق تقعُ شقّتها، وأنه أتى ليطرق بابَها. حتى تلك اللحظة، لم تتذكّرْ أين رأته من قبل.

«هل يمكنني الدخول؟» سأل.

دعتْه يدخل. سمحتْ لغريبٍ بأن يدخلَ شقّتها، مرتدياً كنزةَ جامعة برينستون، وقد أتى ليصلّي بسببِ ما كان يحدثُ في نيجيريا، وحين مدّ يده، تردّدتْ قليلاً، قبل أن تعطيه يديها. صلّيا معاً. صلّى بتلك الطريقة النيجيرية الأرثوذكسية، المألوفة في عيد العنصرة، والتي لم تشعرْها بالراحة: (الربّ) غطّى الأشياءَ بدمِ يسوع، وأحكمَ وثاقَ الشّياطين في البحر، وحاربَ الأرواحَ الشّريرةَ. أرادت أن تقاطعه، وتقول له كم أنّ هذا ليس ضرورياً، هذا الدّم وهذا التطاحنُ، وتحويلُ الإيمان إلى تمرينٍ في الملاكمة، وتقول له إنّ الحياة جهادٌ ضدّ أنفسنا، أكثر مما هي ضدّ شيطانٍ مسلّحٍ بالرّماح، وأنّ المعتقد أو الإيمان خيارٌ مرتبطٌ بضميرنا، وينبغي صقلُه باستمرار. لكنها لم تقل هذه الكلمات، لأنها قد تبدو تظاهراً بالورع، ولأنها كلمات آتية منها، فهي لا تستطيع أن تعطي تلك المفردات وضوحَ وجفاف المغزى، الأقرب إلى الحقيقة، التي يمتلك ناصيتَها الأب باتريك وحده.

«يا يهوه الربّ! كلّ أحابيل الشّيطان لن تنجحَ، وكلّ الأسلحة المَصوبة نحونا لن تصيبنا، باسم يسوع! أبانا الربّ، إننا نحمي كلّ الطائرات في نيجيريا بالدم الغالي ليسوع؛ أبانا الربّ، نحمي الهواء بالدم الغالي ليسوع، وندمّر كلّ أعوان الشيطان ...» كان صوته يعلو، أكثر فأكثر، ورأسه يهتزُّ. أرادتْ أن تتبوّل. شعرتْ بالغباء لأنّ يديها مشبوكتان

بيديه، حيث بدت أصابعه دافئة وحازمة، وكان عدم شعورها بالارتياح سبباً بأن تقول، في أوّل توقّف له بعد مقطعٍ يقطعُ الأنفاسَ، «آمين!» ظناً منها أنّ الأمر قد انتهى، لكنه لم ينتهِ، فأغلقَتْ عينيها، على عجلٍ، ثانيةً، وراح، هو، يكملُ تضرّعاته. صلّى، وصلّى، عاصراً يديها في كلّ مرةٍ كان يقولُ فيها، «أبانا الربّ!» أو «باسمِ يسوع!»

ثم شعرت بأنها بدأت ترتجف. ارتجافٌ لاإراديٌ يسري في أنحاء جسدها. أهو الربّ؟ ذات مرة، في سنّ المراهقة، حيث اعتادتْ أن تقرأ، بدقّة متناهية، صلاةَ السبحة، كلّ صباح، وتردد كلمات لم تكن تفهمها، كلمات انبجستْ من فمها، حين ركعتْ أمام الإطار الخشبيّ الخشن لسريرها. استمرت حالةُ النطق بكلمات غير مفهومة، للحظات فقط، وسط صلاة «سلامٌ لكِ يا مريم»، لكنّها أحسّتْ، حقاً، بعد انتهاء تلك الصلاة، بالذّعر، وتيقنّتْ بأن شعور البرودة الأبيض، الذي غلّفها، كان مصدرهُ الربّ. يودينا هو الشخصُ الوحيدُ الذي أخبرتهُ بذلك، وقال لها إنّها اختلقت التجربةَ اختلاقاً. ولكن كيف يمكنني أن أختلقها؟ سألتهُ. كيف يمكنني أن أختلق أمراً، لا أريدهُ أصلاً. مع ذلك، في النهاية، اتفقت معه، كما كانت تفعل دائماً، وتتفقُ معه، في كلّ الأمور تقريباً، وقالت لا بدّ أنّها، حقّاً، تخيّلتْ كلّ هذا.

الآن، توقّف الارتجافُ، بالسرعة نفسها الذي ابتدأ فيه، والرّجلُ النيجري أنهى صلاته. «باسم يسوع، الأزليّ، القدير!».

«آمين!» قالت.

سحبتْ يدها من يديه، قائلةً، «المعذرة»، وهرعتْ إلى المرحاض. حين خرجتْ، كان الرجل ما يزال يقف قرب الباب، في المطبخ. ولاحظت شيئاً غريباً في ملامحه، وبخاصة الطريقة التي يقف بها، مع ذراعين مبسوطتين، جعلتها تفكّر بكلمة «متواضع».

«اسمي تشايندو» قال.

«أنا يوكاماكا» قالت.

تصافحا، وهذا ما أثار فضولها أكثر، لأنهما كانا للتوّ يشبكان أياديهما في الصلاة.

«تحطم هذه الطائرة شيءٌ مرعبٌ» قال، «مرعبٌ جداً».

«نعم». لم تقل له إنّ يودينا يمكن أن يكون بين ضحايا التحطّم. وتمنت لو أنه يغادر، طالما أنهما انتهيا من الصلاة، لكنه انتقل إلى غرفة الجلوس، وجلس على الأريكة، وبدأ يتحدّث كيف سمع بخبر تحطّم الطائرة، وكأنها طلبتْ منه أن يبقى، وكأنها كانت بحاجة لسماع تفاصيل طقوسه الصباحية، وكيف يستمع لهيئة الإذاعة البريطانية، بي بي سي، من خلال البث المباشر على النت، إذ لا محتوىً ملموساً في الأخبار الأمريكية. قال لها إنه لم يكن يدري أن ثمة حدثين منفصلين- السيدة الأولى ماتت في أسبانيا، بعد عملية جراحية لتصغير المعدة، استعداداً لحفلة عيد ميلادها الستين، بينما وقع حادث الطائرة، في لاغوس، بعد دقائق من مغادرتها أبوجا.

«نعم»، وجلست قبالة حاسوبها المحمول. «في البداية، ظننتُ أنها ماتت أيضاً في حادث تحطم الطائرة» قالت.

كان مازال يهزّ جسدَه قليلاً، ويبسطُ ذراعيه على وسعهما، «هذا التلازمُ بين الحدثين أمرٌ جللٌ. كأن الله يريدُ أن يقول لنا شيئاً. وحده الله يمكنه أن ينقذ بلادنا».

نحن. بلادنا. هذه الكلمات وحّدتهما في فقدانٍ مشترك، وللحظة، شعرت أنها قريبة منه. ثم ضغطت على زرّ تجديد الصفحات، في الشبكة العنكبوتية. ما زالت لم تصل أي أخبارٍ عن ناجين محتملين.

«الربّ يجب أن يفرض رعايته على نيجيريا»، استمرّ في القول. «قالوا إنّ حكومةً مدنيةً ستكون أفضل من الإدارات العسكرية، ولكن انظري ماذا يفعل أوباسانجو. إنه يدمّر بلدنا بشكل خطير».

هزت برأسها، متسائلة ما هي الطريقة الأكثر تهذيباً لأن تطلب منه

المغادرة، لكنها ما زالت تفكّر على مضض، لأنّ وجوده منحها الأمل بأن يكون يودينا على قيد الحياة، بطريقة لا يمكن تفسيرها.

«هل رأيتِ صور عائلات الضحايا؟ هناك امرأة مزّقتْ ثيابَها، وبدأتْ تركضُ بملابسها الدّاخلية. قالت إن ابنتها كانت على متن الطائرة، وأنّ ابنتها كانت متوجهة إلى أبوجا، لتشتري القماش له. آه!» تشاندو زفرَ زفرة التأوّه الطويل الدالة على الحزن. «الصديق الوحيد الذي أعرف، والذي يمكن أن يكون على متن تلك الطائرة، أرسلَ لي رسالة على بريدي الإلكتروني يقول إنه بخير، شكراً لله. لا يمكن أن يكون أحد من أفراد عائلتي على متنها، وبالتالي لن أشعر بالقلق حيالهم، على الأقلّ. لا يملكون عشرة آلاف نيرا (ليرة) يبعثرونها على بطاقة طائرة!» ثم ضحك ضحكةً في غير أوانها.

«أعرف شخصاً كان على متن الطائرة،» قالت. «أو من الممكن أنه كان على متن الطائرة.»

«يا يهوه الربّ!»

«صديقي يودينا. عشيقي السّابق، في الواقع. إنه يحضّر أطروحة (MBA) في جامعة وارتون، وقد ذهب إلى نيجيريا، الأسبوع الماضي، لحضور زفاف ابن خالته». ثم أدركت، بعد أن انتهت من كلامها، أنها استخدمت الفعل الماضي.

«لم تسمعي أيّ خبرٍ، بالتأكيد؟» سأل تشاندو.

«كلاّ، ليس لديه هاتف خليوي في نيجيريا، ولم أستطع التواصل مع شقيقته، على هاتفها. ربما كانت ترافقه. حفل الزفاف مقرر له أن يُقام غداً في أبوجا».

جلسا بصمت، ولاحظتْ أنّ يديّ تشاندو انكمشتا في شكلِ قبضتين، وأنه لم يعدْ يهزّ جذعَه.

«ما هي المرة الأخيرة التي تحدثتِ فيها معه؟» سأل.

«الأسبوع الماضي. اتصل بي قبل أن يغادر إلى نيجيريا».

«رؤوفٌ هو الربّ. رؤوفٌ هو الربّ». رفع تشايندو صوته بالتسبيح. «رؤوفٌ هو الربّ. هل سمعتني؟».

أصاب يوكاماكا ذعرٌ خفيفٌ، لكنّها قالت، «نعم».

رنّ الهاتفُ. حملقتْ يوكاماكا بالهاتف النقّال الأسود اللون، الذي وضعته قرب حاسوبها المحمول، خائفةً بأن ترفع السمّاعة. نهض تشايندو ومدّ يده نحو الهاتف، ثم قال، «لا!» ثم أخذه وذهب به بعيداً، صوب النافذة. «ألو؟ ألو؟» أرادت أن تسمع أيّ صوتٍ، لا على التعيين، يخبرها بكلِّ شيءٍ على الفور، دون مقدمات وشروحات. إنّها أمّها على الخطّ.

«حبيبتي، إنّ يودينا بخير. تشيكاوديلي اتصلتْ بي منذ لحظات لتقول إنّهما تأخّرا عن موعد الطّائرة. هو بخير. كان من المفترض أن يكونا على متن تلك الطائرة، لكنّهما تأخّرا عن موعد الاقلاع، شكراً لله».

وضعت يوكاماكا سمّاعة الهاتف على حافة النافذة وبدأت تبكي. أمسك تشايندو بكتفيها، أولاً، ثم احتضنها بين ذراعيه. بعد أن هدأتْ نوبةُ البكاء، أخبرته بأنّ يودينا بخير، ثم عادت إلى عناقه، مندهشةً للراحة التي أحسّت بها معه، وكانت متأكدة بأنه، غريزياً، فهم بكاءها من خلال الطمأنينة التي أعقبت ذاك الذي لم يحدث، ومن خلال الشعور بالكآبة لما كان يمكن أن يحدث، ومن الغضب الذي، ظلّ راسباً، من أمورٍ لم تُحسم بعد، منذ أن أخبرها، يودينا، في محلّ بيع البوظة، في شارع ناسو، بأنّ العلاقة بينهما قد انتهتْ.

«عرفتُ أنّ الربّ سيلبي الدعاء! كنتُ أصلّي في قلبي كي يحفظَه الربّ»، قال تشايندو، ماسحاً بكفّهِ على ظهرها.

فيما بعد، وبعد أن سألت تشايندو كي يمكث للغداء، وبينما كانت تسخّن بعض اليخنة، في الميكروويف، سألته، «حين تقول إنّ الله أبقى

يودينا سالماً، فإنّ الله أيضاً مسؤول عن الناس الذين ماتوا، لأنه كان يستطيع أن ينقذهم، أيضاً. هل هذا يعني أنّ الله يفضل بعض الناس على بعض؟».

«مآرب الله تختلف عن مآربنا». خلع تشايندو حذاءه الرياضي، ووضعه فوق رفّ الكتب.

«لا معنى لكلّ هذا».

«أفعالُ الله دائماً ذات معنى، لكن ليس بالمعنى الإنساني للكلمة»، قال تشايندو، ناظراً إلى صورها فوق رفّ الكتب. إنه السّؤال نفسه الذي وجّهته للأب باتريك، مع أنّ الأب باتريك وافقها على أنّ ما يفعله الله قد لا يكون مفهوماً، دائماً، بعد هزّةٍ مألوفةٍ من كتفيه، مثلما فعل في أوّلِ مرة التقيا بها، في ذاكَ النّهار المتأخر من الصيف، حين أخبرها صديقها، يودينا، أن علاقتهما قد انتهت. هي ويودينا كانا داخل مطعم ثوماس سويت، يشربان عصير الفريز والموز، وتلك كانت من طقوسهما، معاً، في كلّ يوم أحد يخرجان فيه، بعد جولة التبضّع في محلات السمانة. كان يودينا قد شرب كأسه، بضجيجٍ غير معهود، قبل أن يقول لها إنّ علاقتهما انتهتْ، منذ أمدٍ بعيد، وأنّهما معاً، الآن، بحكم العادة فقط، وقد نظرت إليه، وانتظرت منه ضحكةً، رغم أنه ليس من عاداته أن يمزحَ بتلك الطريقة. «راكدة» هي الكلمة التي كان قد استخدمها. لا أحد آخر في حياته، لكن علاقتهما أضحت راكدةً. راكدة، مع أنها كانت تنظّم حياتها، وفقاً لمسار حياته، على مدى ثلاث سنوات متواصلة. راكدة، مع أنّها كانت قد بدأت تزعج عمّها، السناتور، لضرورة تأمين عملٍ لها في العاصمة أبوجا، بعد تخرجها، لأنّ يودينا أرادَ أن يعودَ إلى نيجيريا بعد الانتهاء من دراسته العليا، ويبدأ بتكوين ما وصفه بـ «رأس المال السياسي» قبل أن يخوض انتخابات محافظ ولاية أنامبرا. راكدة، مع أنها تطهو مرق يخْنتها بالبهارات الحادّة، الآن، وبالطريقة التي يحبُّها. راكدة، مع أنهما تحدثا مراراً عن عدد الأطفال الذين يودّان إنجابهم، وتحديداً

صبياً وبنتاً، وأمرُ تكوّنهما في رحمها، من البديهيات بالنسبة لها، فالبنت سوف يسمّيانها يولاري، والصبي يودوكّا، وينبغي أن يبدأ الحرفُ الأوّلُ من اسمهما بحرف (U). غادرت مطعم ثوماس سويت، وبدأت تمشي على غير هدىً، في شارع ناسو، ذهاباً وإياباً، حتى مرّتْ بكنيسة الحجر الرمادية، وتسكّعت نحو الداخل، وقالت للرّجل الذي يرتدي قبّةً بيضاء، قبل أن يصعدَ إلى سيارته، من موديل سوبارو، إنّ الحياة لا معنى لها. قال لها إنّ اسمه الأب باتريك، وأنّ الحياة لا معنى لها، لكن علينا جميعاً أن نتسلّح بالإيمان. كوني مؤمنة. لكنّ عبارة «كوني مؤمنة،» تشبه القول كوني طويلة ورشيقة. أرادت أن تكون طويلة ورشيقة، لكنها بالطبع ليست كذلك. قامتها قصيرة، ومؤخرتها مسطّحة، وتلك المنطقة الناعمة في أسفل بطنها نافرة، حتى عندما ترتدي الملابس الضيّقة، من ماركة سبانكس، بقماشها الخاصّ الذي يخفي العيوب. حين قالت هذا، ضحك الأب باتريك.

«كوني مؤمنة، لا تشبه، حقّاً، القول كوني طويلة ورشيقة. هي أقرب إلى القول تأقلمي مع البدانة، ومع حقيقة ارتدائك ملابس سبانكس الضيقة»، قال. وقد ضحكت، مندهشةً أن هذا الرجل الأبيض البدين، بشعره الفضّي، كان يعرف ماذا تعني كلمة سبانكس.

وضعت يوكوماكا مرقَ اليخنةِ قرب الأرزّ السّاخن في صحن تشاياندو. «إذا كان الله يفضّل بعض الناس على بعض، فلا معنى أن يكون يودينا هو الذي يستحقّ أن ينجو. لا يمكن أن يكون يودينا ألطف وأحسن شخصٍ حجزَ مقعداً على تلك الطائرة،» قالت.

«لا تستطيعين أن تطبقي العقْلنة البشرية على الله،» رفعَ تشاياندو الشّوكةَ، التي كانت قد وضعتها فوق صحنه. «من فضلكِ أعطني ملعقة».

ناولته ملعقة. أشخاص مثل تشاياندو، يثيرون فضول يودينا، إذ من غير المألوف أن يأكل المرءُ الأرزّ بالملعقة بالطريقة التي يستخدمها تشاياندو، ممسكاً بالملعقة بأصابعه الخمس كلّها- يودينا، بقدرته على

ملاحظة سلوك الناس، وإدراكه، من خلال هيئتهم، وأحذيتهم، أي نوعٍ من الطفولة أمضاها هؤلاء.

«هذا هو يودينا، أليس كذلك؟» قال تشايندو، مشيراً إلى صورة داخل إطارٍ من الخيزران، وفيها تظهر يدُ يودينا تحيطُ بخصرها، ووجه كلّ منهما مشرقٌ ومبتسمٌ. الصورة التقطتها لهما امرأة غريبة في مطعم، في فلادلفيا، غريبة، قالت لهما، «إنكما ثنائيٌ رائعٌ، هل أنتما متزوجان؟» ويودينا أجابها، «ليس بعد» بتلك الابتسامة المائلة، اللّعوب، التي يظهرها دائماً أمام نساء غريباتٍ، لا يعرفهنّ.

«أجل، هذا هو يودينا العظيم». أظهرت يوكاماكا استياءً خفياً، بعد أن جلست خلف طاولة الطعام، حاملةً صحنها. «دائماً أنسى أن أزيحَ تلك الصورة»، هذه كذبة. إذ لطالما حدّقت بها ملياً خلال الشهر الماضي، وأحياناً على مضض، دائماً خائفة من إحساس النهاية المرافق لإزاحة الصّورة. وشعرت أنّ تشايندو عرف أنها كذبة أيضاً.

«هل التقيتما في نيجيريا؟» سأل.

«كلاّ. التقينا، قبل ثلاث سنوات، خلال حفل تخرج شقيقتي، في نيوهيفن. كان قد دعاه أحد أصدقائها، ممن يعملون في وول ستريت، وأنا كنت طالبة أكمل دراستي العليا، هنا، لكننا نعرف أشخاصاً مشتركين لنا في فيلادلفيا. أكمل دراسته في جامعة بنسلفانيا، وأنا أكملتها في براين ماور. من الطريف أننا نشترك في كثير من الخصال، لكننا، لسبب ما، لم نلتقِ إلاّ في تلك الآونة. كلانا أتى إلى الولايات المتحدة لإكمال دراسته في الجامعة، تقريباً في الفترة ذاتها. واتضح لاحقاً أننا تقدّمنا إلى فحص الجهوزية الأكاديمية (SAT) في المركز نفسه، في لاغوس، وفي اليوم ذاته».

«يبدو طويلَ القامة»، تشايندو قال، بينما كان لا يزال يقف قبالة خزانة الكتب، موازناً صحنَه في يدِهِ.

«طول قامته 6,4 أقدام» سمعتْ نبرةَ الفخرِ في إيقاع صوتِها. «هذه ليست أفضل صوره. إنّه يشبهُ كثيراً ثوماس سانكارا. وقَعتُ في غرام

ذاك الرّجل، وأنا في سنّ المراهقة. تعلم أنّ رئيسَ بوركينا فاسو، الرئيس صاحب الشعبية الكبيرة، الرئيس الذي قتلوه-»

«بالطبع أعرف ثوماس سانكارا». نظر تشايندو ملياً إلى الصورة للحظة، كأنه يبحث عن آثار وسامة سانكارا الذّائعة الصيت. بعدئذٍ قال، «رأيتكما معاً، مرة، خارج موقف السيارات، وعرفتُ أنكِ من نيجيريا. أردتُ أن أقترب، وأعرّف عن نفسي، لكنني كنتُ في عجلة للحاق بباص الجامعة».

فرحتْ يوكاماكا لسماعها هذا، إذ إنّ رؤيته لهما معاً، جعل العلاقة ملموسةً أكثر. السنوات الثلاث الأخيرة، من النوم مع يودينا، وربط خططها بخططه، وطهي الطعام مع الفلفل، لم تكن أبداً في مخيلتها. أحجمت عن سؤال تشايندو ماذا يتذكّر أيضاً. هل رأى يدَ يودينا غائبة في يدها، خلف أسفل ظهرها؟ هل رأى يودينا يهمسُ لها بأشياء موحية، مع وجهيهما قريبين جدّاً من بعضهما.

«متى رأيتنا؟» سألتْ.

«منذ شهرين. كنتِ تمشين باتجاهِ سيّارتكِ».

«كيف عرفتَ أنّنا من نيجيريا؟».

«أستطيع دائماً أن أعرف». جلسَ قبالتها. «لكنني هذا الصباح نظرتُ إلى أسماء علب البريد لأعرف في أي شقة تقطنين».

«أتذكر الآن أنني رأيتكَ مرة في باص الجامعة. عرفتُ أنك أفريقي، لكنني ظننتُ أنكَ من غانا. بدوتَ لطيفاً جدّاً، فاستبعدتُ أن تكونَ من نيجيريا».

ضَحك تشايندو. «من قال إنني لطيف؟» ونفخَ صدره ساخراً، فيما فمه مملوءٌ بالأرزّ. لو كان يودينا حاضراً، كان أشار إلى جبهة تشايندو، وقال لا حاجة للمرء بأن يصغي للكنة تشايندو كي يعرف بأنه تلقّى تعليمه الثانوي في مدرسة حكومية، في قريته النائية، وتعلّم الإنكليزية، من خلال

قراءة القاموس، على ضوء الشمعة، لأنّ المرء يستطيع أن يتكهّن بهذا، على الفور، من خلال النظر إلى جبهته النّافرة، المخطّطة بالعروق. وهذا ما كان يودينا قد قاله عن الطالب النيجيري، في جامعة وارتون، وحاول تجنّب صداقته، أو الردّ على رسائله الإلكترونية. الطالبُ، من خلال جبهته المنتفخة، وأساليبه الجامحة، لم يوافق، ببساطة، نموذجَه الجاهز. «النموذج الجاهز»، عبارة لطالما استعملها يودينا، وفي البدء، ظنّت أنها صبيانية، لكنها، بدأت، بعد مرور عامٍ فقط، تستعملُها، هي الأخرى.

«هل مرقة اليخنة حادّة بالفلفل أكثر مما يجب؟» سألتْ، بعد أن لاحظت أنه كان بطيئاً في طريقة أكله.

«الطعام جيّد. أنا معتادٌ على تناول الفلفل. لقد ترعرعتُ في لاغوس».

«لم أكن أحبُّ الأكل الحادّ حتى التقيتُ يودينا. لستُ متأكدة أنني أحبه الآن».

«لكن ما زلتِ تستخدمين الفلفل في الطهي».

لم تحبّ قوله ذاك، ولم تحبّ أنّ وجهه مغلق، وتعابيره غير مقروءة، بينما كان ينقّلُ بصره بين صحنه وبينها. قالت، «حسناً، أظن أنني اعتدتُ على هذا الآن».

«هلاّ اطّلعتِ على آخر الأخبار؟».

ضغطتْ على الزرّ فوق حاسوبها المحمول، وجدّدت الصفحة الإلكترونية. «الجميعُ قضى في حادث تحطّم الطائرة النيجيرية». الحكومة أكدت أن جميع الركاب، البالغ عددهم مئة وسبعة عشر شخصاً، على متن الطائرة، لاقوا حتفهم.

«لا يوجد ناجون،» قالتْ.

«سترك، يا أبتاه،» قال تشايندو، مطلقاً تنهداتٍ مسموعةٍ. أتى وجلس بجانبها، وبدأ يقرأ من حاسوبها المحمول، جسداهما ملتصقان، ورائحة مرقتها مع الفلفل تفوح من أنفاسه. وصلت المزيد من الصور عن موقع

التحطّم. يوكاماكا حدّقت بأحد الرجال، عراة الصّدر، ممن يحملون قطعة من الحديد، بدت كإطار سريرٍ معجونٍ، لكنها لم تستطعْ أن تتكهّنَ أي جزءٍ من الطائرة قد يكون هذا.

«ثمة الكثير من الجور في بلدنا» قال تشاياندو، ناهضاً من مكانه. «والكثير من الفساد. الكثير الكثير ما يستحقّ أن نصلّي من أجله».

«هل تريدُ أن تقول إنّ تحطّم الطائرة هو بمنزلة عقوبة من الله؟».

«عقوبة، ونداءُ يقظة». كان تشاياندو يأكل آخر حبّة أرزّ من صحنه. وقد وجدت اصطدام الملعقة بأسنانه سبباً لقطع سلسلة أفكارها.

«اعتدتُ الذّهابَ إلى الكنيسة، كلّ يوم، في سنوات الصبا. القدّاس الصباحي يبدأ في السّادسة. كنتُ أقيمه بنفسي. أهلي يذهبون إلى الكنيسة فقط من الأحد إلى الأحد»، قالت. «ثم ذات يومٍ توقفتُ عن الذهاب».

«لم تكن أزمة إيمان. الكنيسة أصبحت، فجأةً، مثل بابا نويل، شيء لا يمكن أن يكون موضع شك لدى الطفل، ولكن حين يصل مرحلة الرشد، يدرك أنّ الرّجل الذي يرتدي ملابس بابا نويل هو، في الواقع، جاره الذي يسكنُ أسفلَ الشّارع».

هزّ تشاياندو كتفيه، باشمئزاز، كأنّه لا يملك الكثير من الصبر، حيال هذا التدهور، أو حيال هذا التردّد من قبلها. «هل انتهى الأرزّ؟».

«ما زال هناك المزيد.» أخذت صحنه لتسخّن فيه المزيدَ من المرق والأرز. حين ناولته إياه، قالت «لا أعلم ماذا كان يمكن أن أفعل لو أنّ يودينا مات. لا أعلم حتى ماذا يمكن أن يكون شعوري».

«عليكِ فقط أن تكوني ممتنة للربّ».

ذهبتْ إلى النافذة وعدّلتْ الأباجورات. الوقت بداية الخريف. في الخارج، ترى الأشجار على طولِ شارع لورانس درايف، تتماوجُ ألوانُها خليطاً من النحاسيّ والأخضر.

«لم يقل يودينا لي يوماً أنا أحبّكِ، لأنه كان يظنّ أنّ هذا العبارة جاهزة.

مرةً قلتُ له يؤسفني أنه شعر بالانزعاج تجاه شيء ما، فما كان منه أن بدأ يصيحُ، وقال لا ينبغي أن أستعمل تعبيراً من مثل-آسفة لأنك تشعرُ بتلك الطريقة- لأنّ الجملة تفتقرُ للأصالة. اعتاد أن يجعلني أشعر بأنّ كلّ ما أقوله ليس ذكياً، بما يكفي، أو ساخراً بما يكفي، أو ألمعياً بما يكفي. كان دائماً يسعى لأن يكون مختلفاً، حتى تجاه الأمور الثانوية. كأنما كانّ يمثّلُ حياته كدورٍ، ولا يعيشُها كحقيقة».

تشايندو لم يقل شيئاً. راح يكمل طعامَه، ويستخدمُ إصبعَه أحياناً لوضع المزيد من الأرزّ في ملعقته.

«كان يعرف أنني أحبّ وجودي هنا، لكنه كان دائماً يقول لي إن برينستون مكان مضجر، وإنها منفصلة عن الواقع. إذا وجدَ أنني سعيدة، بسبب شيء غير مرتبط به مباشرة، كان يجد دائماً طريقةً للحطّ من شأنه. كيف يمكن أن تحبّ شخصاً، وفي الوقت ذاته تقيس مدى السّعادة المسموح بها؟».

أومأ تشايندو برأسه، فقد فهمها ووافقها الرأي، ولم يكن صعباً، بالنسبة لها، أن تلاحظ ذلك. في الأسابيع التالية، يصير الطقس أكثر برودةً، ويصير بوسعها أن ترتدي جزمتها الجلدية، طويلة السّاق، وتركب الباص إلى الجامعة، لتقوم بالبحث في المكتبة عن مراجع متعلقة بأطروحتها، وتلتقي أستاذها المشرف، وتقوم بتدريس مادة الإنشاء للطلبة في الصفوف الجامعية الأولى، أو تقابلُ طلابها، ممن يطلبون الإذن بأن يقدموا حلقات بحثهم، في وقت متأخّر، ثم تعودُ إلى مكان سكنها في المساء، وتنتظر زيارةً من تشايندو، كي تقدم له الأرز أو البيتزا أو المعكرونة، وبالتالي تستطيع أن تتحدّث عن صديقها السابق، يودينا. كانت تقول لتشايندو أشياء لم تكن تريد أن تقولها للأب باتريك. أحبّت كثيراً ميلَ تشايندو لقول القليل، ولم يكن فقط يصغي إليها، بل يفكّر عميقاً بما كانت تقوله. مرةً فكرت، جزافاً، بأن تقيم معه علاقة غرامية، وتجرب الانغماس في التعويض العاطفي، لكن ثمة ما يشي بافتقاره

للميل الجنسي. ثمة شيء ما يحيط بشخصيته جعلها لا تفكّر أبداً بوضعِ المساحيقِ، تحت عينيها، كي تخفي الدوائر السّودَ هناك.

البناء الذي تسكنُ فيه، يعجّ بالأجانب الآخرين. كانت هي ويودينا يمزحان بأنّ الغموض الذي يكتنف المحيط العام الجديد جعل هؤلاء الأجانب يطورون موقفاً نفسياً قوامه عدم الاكتراث، بعضهم تجاه بعض. لم يكونوا يتبادلون التحية في الممرّات، أو في المصاعد، أو ينظر أحدهم إلى عين الآخر، خلال رحلة الباص القصيرة، إلى الجامعة، التي لا تستغرق أكثر من خمس دقائق، هؤلاء النجوم المثقفون، من كينيا والصين وروسيا، هؤلاء الخريجون والزملاء الذين سينطلقون، غداً، ليقودوا العالم، ويشفوا البشرية من أمراضِها. وبالتالي، أصابتها الدهشة، حين ذات يوم، كانت تمشي، مع تشايندو، باتجاه موقف السيارات الخاص، حين لوّح بيده لأحدهم، وقالَ مرحباً لآخر. أخبرها عن الياباني، الطبيب المتخرج، الذي يكمل دراساته العليا، وكيف أنه أوصله بسيارته أكثر من مرة إلى المتجر الكبير، أو عن طالب الدكتوراه الألماني، الذي كانت طفلته، ابنة العامين، تناديه تشيندل.

«هل تعرفهم من خلال برنامج المحاضرات؟» سألتْهُ، ثم أضافتْ «ما هو الفرع الذي تدرسُهُ؟».

ذات مرة، ذكر أمامها شيئاً له علاقة بالكيمياء، فافترضت أنّه يقوم بإعداد أطروحة دكتوراه في الكيمياء. قد يكون هذا هو السبب الذي جعلها لا تراه أبداً في حرم الجامعة، فمختبرات العلوم بعيدة جداً، بل ونائية أيضاً.

«كلاّ. التقيتُ بهم حين أتيت إلى هنا».

«منذ متى وأنت تقيم هنا؟».

«منذ وقت ليس بالطّويل. منذ الربيع».

«حين وصلتُ إلى هنا، لم أكن، في البدء، متأكدة أنني أريدُ أن أعيشَ في منزل خاص بالطلاب والزملاء الخريجين، لكنني أحبّ هذا الآن. المرة الأولى التي زارني فيها يودينا، قال إنّ هذا البناء المربّع بشعٌ جداً، ويخلو من الجاذبية. هل سبق لك أن أقمتَ في سكن للخريجين؟».

«كلاّ»، صمت تشايندو، ثم أشاح بوجهه. «كنتُ أعرف أنّ عليّ أن أبذل مجهوداً مضاعفاً كي أجد أصدقاء في هذا المبنى. وإلاّ كيف لي أن أذهب إلى المتجرِ، أو إلى الكنيسة؟ شكراً لله لأنك تملكين سيّارة» قال.

أحبّت قوله، «شكراً لله لأنك تملكين سيارة». لأنها تعبّر عن حالة من الصداقة، والرغبة بالقيام بأعمال مشتركة، لاحقاً، وفرحت لوجود شخصٍ يصغي إليها حين تريدُ أن تتكلّم عن يودينا.

في أيام الآحاد، كانت تأخذُ تشايندو إلى كنيستِهِ الأرثوذكسية، في لورانسفيل، قبل التوجّه إلى الكنيسة الكاثوليكية، الكائنة في ناسو ستريت، وحين كانت تعودُ لاصطحابه في سيارتها، بعد انتهاء الصلاة، كانا يذهبان معاً لشراء حاجيات منزلية من متجر ماكفري. أثار انتباهها الكمية القليلة من الأشياء التي يشتريها، وتفحّصه الدائم لتنزيلات الشراء، وذاك أمر لطالما كان يتجاهله يودينا.

حين توقفّا عند متجر وايلد أوتس، حيث اعتادت، مع يودينا، شراء الخضروات العضوية، هزّ تشايندو رأسّه مستغرباً، إذ لم يكن يستوعبُ لماذا يدفعُ المرءُ أموالاً أكثر لقاء شراء الخضروات نفسها، فقط لأنها زُرعت بدون استخدام المواد الكيماوية. مضى يعاين القمح المعروض في علب بلاستيكية ضخمة، بينما توجهتْ هي لانتقاء القرنبيط الأخضر، ووضعِهِ في سلّتها.

«هذا خال من الكيماويات، وذاك خال من الكيماويات. الناس تهدرُ أموالها مقابل لا شيء. أليست الأدوية التي يتناولونها، كي يبقوا على قيد الحياة، نوعاً من الكيماويات، أيضاً؟».

«أنت تعلم أنّ الأمرَ مختلفٌ، يا تشايندو».

«لا أرى أيّ اختلاف».

ضحكت يوكاماكا. «لا يهمّني الأمر، في الحقيقة، في كلتا الحالتين، لكنّ يودينا أرادنا دائماً أن نشتري فواكه وخضروات عضوية. أظنّ أنه قرأ، في مكان ما، أنّ هذا ما ينبغي على شخصٍ مثله أن يشتريه».

نظر إليها تشايندو، من جديد، بتلك التعابير، المغلقة، وغير المفهومة. هل كان يطلق حكماً عليها؟ أكان يحاول أن يحزم أمره بخصوص أمرٍ يتعلق بالتفكير بها؟

قالت، بينما كانت تفتح طبون السيارة الخلفي، وتضعُ حقيبة المشتريات في الداخل، «أنا أتضور جوعاً. هل نذهب ونأكل السندويتش، في مكان ما؟».

«لستُ جائعاً».

«أنا سأدفع. أم أنك تفضّل الطعام الصيني؟».

«أنا صائم»، قال بهدوء.

«أوه». في سنوات صباها، جربت الصيام هي أيضاً، إذ كانت تشرب الماء فقط من الصباح حتّى المساء، ولمدة أسبوع كامل، وتناشد الربّ على أن يساعدها في الحصول على أعلى الدرجات، في امتحانات الشهادة الثانوية. وقد حصلت على ثالث أعلى علامة.

«لا غرابة أنكَ لم تتناول الأرزّ البارحة»، قالت. «هل تجلس معي وتنتظرني حتى أنهي طعامي، إذن؟».

«بالتأكيد».

«هل تصوم دائماً، أم أنّ هذه بمنزلة صلاة خاصّة تقوم بها؟ أم أنّ المِوضوعَ شخصيٌ جدّاً، ولا ينبغي أن أسألَ؟».

«الموضوع شخصيٌّ جدّاً، بالنسبةِ لكِ، بمجرّد أنكِ تسأليني»، قال تشايندو، برزانةٍ لا تخلو من سخرية.

أنزلتْ زجاج السيارة، أثناء خروجها من متجر وايلد أوتس، ثم توقفت فجأةً لتسمح لامرأتين، بلا سترات، كي تعبرا الشارع، وكل واحدة منهما

ترتدي جينزاً ضيقاً. شعرهما الأشقر تذروهُ الرّيحُ إلى الخلف. كان نهاراً دافئاً، بغرابة شديدة، في يوم من أيامِ أواخرِ الخريف.

«يذكّرني الخريف، أحياناً، بأيام رياح الغبار الصّحراوية» قال تشايندو.

«أعرف» قالت يوكوما. «أحبُّ موسم الرياح الصحراوية. أظن أن هذا مرتبط بعيد الميلاد. أحبّ جفاف وغبار عيد الميلاد. في السنة الماضية، عدنا، أنا ويودينا معاً، لقضاء عطلة الميلاد، وأمضى سهرة رأس السنة مع أهلي، في نيمو، وظلّ عمي يمطره بوابل من الأسئلة. كان يقول له: أيها الشابّ، متى ستُحضرُ عائلتك، وتطرق بابنا للزيارة؟ وما هو الفرع الذي تدرسه في الجامعة؟» قلّدت يوكوماكا صوته الأجش، وضحك تشايندو.

«هل عدْتَ للزيارة، منذ أن أتيتَ إلى هنا؟» سألت يوكوماكا، وما إن نطقت بهذه الكلمات، حتى تمنتْ لو أنها لم تسألْ قطّ. بالطبع، ليس بمقدوره أن يدفع ثمن البطاقة لزيارة الوطن.

«كلاّ»، قالها بنبرة مسطّحة.

«كنتُ أخطط للعودة بعد التخرج، وأعمل في إحدى مؤسسات المجتمع المدني في لاغوس، لكنّ يودينا أحبّ أن يختار السياسة، ولذلك بدأت أخطّطُ للعيش في أبوجا، عوضاً عن ذلك. هل تنوي العودة بعد أن تنتهي من الدراسة؟ يمكنني أن أتخيل الأموال الطائلة التي سوف تجنيها من العمل في إحدى شركات النفط، في دلتا النيجر، بفضل شهادة الدكتوراه التي تحملها». كانت تعلم أنها تتحدّث بسرعة كبيرة، وأحياناً تغمغم، حقاً، في محاولة للتغطية على شعورها بعدم الارتياح الذي انتابها منذ وهلة.

«لا أعلم». هزّ تشايندو كتفيه. «هل يمكن أن أبدّلَ محطة الراديو؟».

«بالطبع». شعرت بتبدل مزاجه، من الطريقة التي أبقى فيها نظراته مثبتة على زجاج النافذة، بعد أن بدّل محطّة الإذاعة من NPR، إلى محطّة إف إم، تبثّ موسيقى صاخبة.

«أظن أني سأتناول أكلتك المفضّلة، السوشي، عوضاً عن السندويتش»، قالت هذا بنبرةٍ مداعبة. ذات مرة سألته إن كان يحب السوشي، فقال لها «معاذ الله. أنا رجل أفريقي. آكل فقط الأكل المطبوخ». لكنها عادت وسألته «عليك أن تجرب السوشي، ذات يوم. كيف يمكن أن تعيش في برينستون، ولا تأكل السوشي؟».

بالكاد افترّ ثغرهُ عن ابتسامة. قـادتْ سيارتها ببطء إلى محلّ السندويتش، تتمايل بجسدها على وقع الموسيقى الآتية من جهاز الراديو، مستمتعة بها مثله تماماً.

«سوف أشتري السندويتش، وأعود حالاً» قالت، وقال لها سوف ينتظرها في السيارة. نكهة الثوم المنبعثة من سندويتش الدجاج الملفوفة بورق السلوفان، ملأت السيارة، حين عادت أدراجها.

«رنّ تلفونك»، قال تشايندو.

أمسكت تلفونها الخليوي، الموضوع فوق علبة السرعة، ونظرت إليه. إنها راشيل، صديقة من قسمها، وهي تتصل بها، ربّما، لتعرف ما إذا كانت ستذهب إلى محاضرة الأخلاق والرواية في إيست باين، في اليوم التالي.

«أكاد لا أصدق أن يودينا لم يتصل بي»، قالت، وأدارت محرك السيّارة. أرسل لها رسالة إلكترونية ليشكرها على قلقها تجاهه أثناء إقامته في نيجيريا. حذف اسمَها من قائمة الأصدقاء المقربّين على الماسينجر، وبالتالي لم تعدْ تعرف متى يكونُ على الخطّ. فضلاً أنه لم يتصل بها.

«ربّما من الأفضل له ألا يتصل»، قال تشايندو. «وبالتالي تستطيعين أن تَمضي قدماً».

«ليس الأمرُ بهذه البساطة»، قالتْ، منزعجة، قليلاً، لأنها كانت تريد من يودينا أن يتّصل، ولأنّ الصورة ما زالت معلّقة في غرفتها، ولأنّ تشايندو يظنّ أنّه الوحيد الذي يعرف مصلحتَها. انتظرت حتّى وصلت

إلى مبنى شقّتها، وأخذ تشايندو حقائبه، وصعد بها إلى شقته، وعاد أدراجه، وعندئذٍ قالت، «هل تعلم، ليس الأمر بالبساطة التي تظنّها. ليس لديك فكرة ماذا يعني أن يقع المرءُ في الحبّ».

«بل أعرف».

نظرت إليه، يرتدي الملابس نفسها التي كان يرتديها ظهيرة ذاك اليوم الذي طرق فيه بابها، لأول مرّة: بنطلون جينز، وكنزة عتيقة، ذات قبة دائرية مهترئة، وكلمة «برينستون» مطبوعة باللّون الأرجواني على الصّدر.

«لم تقل أبداً حرفاً واحداً عن هذا الأمر»، قالتْ.

«لم تسأليني مطلقاً».

وضعت سندويشتها على الصحن، وجلستْ وراء طاولة العشاء الصغيرة. «لم أكنْ أعلمُ أنّ ثمّة شيئاً يمكن أن أسألَ عنه. ظننتُ أنكَ سوف تتكلّم من تلقاء نفسك».

لم يقلْ تشايندو شيئاً.

«قل لي إذاً. حدثني عن هذا الحبّ. هل هو هنا أم في نيجيريا؟».

«في نيجيريا. استمرت علاقتي معه لمدّة عامين».

كانت اللّحظةُ هادئةً. سحبت منديلاً ورقياً، وأدركت أنّها عرفت ذلك، بغريزتها، ربّما منذ اللحظات الأولى، لكنّها قالت، بعد أن ظنت أنها يريدها أن تُظهر بعض الدهشة، «أوه، أنتَ مثليّ الجنس».

«إحداهنّ قالت لي مرّة أنني أكثر الأشخاص المثليين، الذين يبدون أسوياء جدّاً، ممن عرفتهم في حياتها، وكرهتُ نفسي لأنني أحببتُ ما قالتهُ لي». ابتسم، وبدت عليه ملامح الرّاحة.

«أخبرني عن هذا الحبّ».

اسم الرجل أبيديمي. شيء ما متعلق بالطريقة التي لفظ تشايندو فيها اسم الرّجل، أبيديمي، جعلها تفكر بالضغط، بلطف، على عضلةٍ مؤلمةٍ، وتحصل على ذاك النّوع من الألم الذّاتي الذي يسبّبُ الرّضا.

تكلّم ببطءٍ، مستعرضاً تفاصيل ظنّت أنها لا قيمةَ لها-أكان يوم أربعاء أم خميس، حين أخذه أبيديمي لأول مرة إلى نادٍ للمثليين، وصافحوا، باليد، أحدَ رؤساء الجمهورية السابقين؟- وظنّت أن تلك قصة لا يخبرها، غالباً، بالكامل، وربّما لم يسبقْ أن أخبرها لأحدٍ من قبل. راح يتكلّم، بينما كانت تنهي سندويشتها، وجلست بالقرب منه، على الأريكة، وشعرت بحنين غريب لمزيد من التفاصيل عن أبيديمي: كان يشربُ الجنّ المركّز، ويرسل سائقه لشراء اللحم المشوي من باعة الطرقات، ويرتادُ المنزلَ القريب من الكنيسة الأرثوذكسية، ويحبّ الكباب اللبناني، في مطعم دبل فور، ويمارسُ رياضة البولو.

أبيديمي يعملُ موظفاً في مصرف، وهو ابن لأحد الرجال الكبار، وقد أكمل دراسته في لندن، وهو من ذاك النوع من الشبّان الذين يرتدون حزاماً جلدياً عريضاً، له بكْلةٌ مزخرفة عريضة، ملوّنة وباذخة. وكان يرتدي واحداً منها، حين أتى إلى مكتب لاغوس للتلفونات المحمولة، حيث كان تشاينڈو يعملُ موظفاً في قسم خدمة الزبائن. قدّم نفسه بفظاظة تقريباً، طالباً الحديث إلى أحد كبار الموظفين، لكنّ تشايندو لم يضيّع فرصة تبادل النظرات معه، والإثارة الفائقة التي شعر بها، منذ أول علاقة له مع أحد مدرّبي الرياضة، في المدرسة الثانوية. أعطاهُ، أبيديمي، بطاقته، وقال له، «اتصل بي». حدّثها عن الطريقة التي أدار فيها أبيديمي العلاقة، على مدى عامين متتالين، وكيف كان يتسقّطُ أخبارَ تشايندو، وأين يذهب، وماذا يفعل، وكيف اشترى له سيارة، من دون أن يستشيره، وبالتالي وجد نفسه في موقف محرجٍ، لا يعرف كيف يشرح لعائلته ولأصدقائه من أين له أن يشتري، فجأة، سيارة هوندا، وكيف كان يطلبُ منه الذهاب في رحلات مباغتة إلى كالبار وكادونا، قبل يومٍ واحدٍ فقط من إعلامه، وكيف كان يبعث له برسائل هاتفية لئيمة، حين لم يكن تشايندو يجد سبيلاً للردّ على مكالماته. مع ذلك، أحبّ تشايندو حسّ التملّك ذاك، وحيوية العلاقة التي استهلكتْ مشاعرهما كليهما. حتى جاء ذاك اليوم، وقال أبيديمي

إنّه عازم على الزواج. كان اسمُ خطيبته، كيمي، وأهله يعرفون أهلها منذ وقت طويل. حتمية الزواج كانت دائماً مفهومة من قبلهما معاً. لم يتحدّثا بها قطّ، لكنّها كانت دائماً مفهومة، وربّما لم يكن سيتغيّر شيء لو لم يلتقِ تشايندو بكيمي، خلال مناسبة إحياء حفلِ زفاف والديّ أبيديمي. لم يكن يريدُ الذهاب إلى الحفلة - كان يفضّل الابتعاد عن كلّ ما له صلة بعائلة أبيديمي - لكنّ أبيديمي أصرَّ عليه بالمجيء، قائلاً له، لا يمكنُ أن يتحمّلَ قضاءَ مساءٍ طويلٍ إن لم يكن تشايندو موجوداً. أبيديمي تكلّم بصوتٍ يمتزج فيه خيطٌ رفيعٌ من الضّحك حين قدّم تشايندو لخطيبته، كيمي، بقوله، «صديقي العزيز جدّاً».

«تشايندو يشرب أكثر منّي بكثير»، كان أبيديمي قد قال لكيمي، التي كانت ترتدي فستانها الهفهاف، الطّويل، أصفرَ اللّون. كانت تجلسُ بالقرب من أبيديمي، وتمدُّ يدَها، بين الحين والحين، لتنفضَ شيئاً عن قميصه، أو لتملأ له كأسه، أو لتضع يداً على ركبته، وخلال كلّ تلك الجلسة، كان جسدها منسجماً، ومتآلفاً مع جسده، وكأنّها على استعدادٍ لأن تقفزَ من مكانها وتفعل كلّ ما يلزم، من أجل إسعاده. «قلتِ إنّني سأربّي كرشاً بسبب البيرة، يا عزيزتي؟» أبيديمي قال، واضعاً يده على فخذها. «دعيني أقولُ لكِ، هذا الرّجل سيربّي كرشاً، قبلي بكثير».

ابتسم تشايندو، ممتعضاً، وبدأ يشعرُ بالصداع، وبدأ حنقَه من أبيديمي يكبرُ ويزداد. وبينما كان يخبر يوكاماكا بكلّ هذا، وكيف أنّ غضب تلك الليلة «مزّق رأسَه»، لاحظت أن ملامحه تبدّلتْ، وبدا أكثر اضطراباً.

«كنتَ تتمنى ألا تلتقي بزوجته»، قالت يوكوماكا.

«كلاّ. كنتُ أتمنى أن يعيشَ صراعاً ما».

«لا بدّ أنه كان يشعرُ بذلك».

«لم يكن يشعر بشيء. راقبْتهُ طوال ذاك اليوم، وكيف كان يتعاملُ معنا كلينا، ويشرب بنهم، ويستمتعُ بالمزاح عليّ، لإرضائها، وبالمزاح عليها لإرضائي، وكنتُ أعلمُ أنه سيذهب إلى الفراش، وينام نوماً عميقاً في

تلك الليلة. لو أن علاقتنا استمرّت، كان سيأتي إليّ، ثم يعودُ إليها، إلى المنزل، وينامُ نوماً عميقاً كلّ ليلة. كنتُ أتمناه ألا ينام جيداً، في بعض الأحيان».

«وأنهيتَ العلاقة؟».

«كان غاضباً. لم يكن يفهم لماذا لا أفعلُ ما كان يطلبهُ منّي».

«كيف يمكن لشخصٍ أن يدّعي أنه يحبّكَ، ومعَ ذلك يريدك أن تقومَ بأشياءَ تناسبهُ هو وحده فقط؟ يودينا كان كذلك».

عصَرَ تشايندو الوسادة الصغيرة في حضنه. «يوكوماكا، ليس كلّ شيء عن يودينا».

«كنتُ فقط أقول إنّ سلوك أبيديمي يبدو شبيهاً، نوعاً ما، بسلوك يودينا. أظنّ أنني لا أفهمُ ذاكَ النوع من الحبّ».

«ربّما لم يكن حبّاً»، قال تشايندو، ناهضاً، بغتةً، عن الأريكة. «يودينا فعلَ هذا بكِ، ويودينا فعلَ ذاكَ بكِ، ولكن لماذا سمحتِ له؟ هل فكّرتِ يوماً بأنّ هذا قد لا يكون حبّاً، البتة؟».

كانت نبرته باردة، على نحوٍ بربري، حتى أن يوكوماكا شعرتْ بالذعر، ثم شعرتْ بالغضب، ومن ثمّ طلبتْ منه الخروج فوراً من شقّتها.

كانت قد بدأت، قبل هذا اليوم، تلحظُ أشياء غريبة على تشايندو. لم يدعوها قط إلى منزله، ولو مرةً واحدةً، وبعد أن دلّها أين تقع شقته، نظرتْ إلى علبة البريد، وأصابتها الدهشة لأنها لم ترَ اسمه الأخير مطبوعاً فوقها. المشرف على البناية صارمٌ جداً فيما يتعلق بأسماء المستأجرين، ويحرص دوماً على أن تظهر أسماؤهم على علبِ بريدهم. لا، بل لم يكنَ، أي تشايندو، يبدو مهتماً بحضور دروسه، أو يذهب إلى الجامعة؛ المرة الوحيدة التي سألته فيها لماذا، قال شيئاً يكتنفه الغموض عن قصد، مضيفاً أنه لا يحبّذ الحديثَ عنه، وتناست الأمر، عندئذ، لأن بعضِ الشكوك انتابتها بأنه، ربما كان يواجه بعض المشاكل الدراسية، ويتصارع

مع أطروحته، التي يبدو أنها لا تؤدّي به إلى أي نتيجة. وبالتالي، وبعد مرور أسبوعٍ من طلبها منه أن يغادرَ شقتها، وبعد أسبوع من عدم الحديث معه، صعدتّ إليه، وطرقتْ باب شقته، وحين فتحه، ونظر إليها، بدا على وجهه إعياءٌ ظاهرٌ، وسألتْ، «هل تعمل على أطروحتك؟».

«أنا مشغول» قال، بعد فترة وجيزة، ثم أوصد الباب في وجهها.

وقفتْ هناك لوهلة قصيرة، قبل أن تقرر العودة إلى شقتها. لن تكلّمه ثانيةً، أبداً، قالت لنفسها. إنه شخصٌ فظٌّ وجلفٌ، آتٍ من الغابة. لكنّ نهار الأحد أتى، وكانت قد اعتادت اصطحابه بسيارتها، إلى الكنيسة، في لورانسفيل، قبل أن تذهب إلى كنيستها في ناسو ستريت. تمنّتْ لو يطرقُ بابَها، مع أنها في قرارة نفسها، تعرف أنه لن يفعل. شعرت بخوف مفاجئ بأن يطلب من شخصٍ آخر، في الطابق الذي يسكن فيه، أن يقوم بإيصاله إلى الكنيسة، ولأنها شعرت بأنّ خوفها بدأ يتحوّل إلى ذعر، صعدت إليه، وطرقتْ بابه. استغرق الأمرُ وقتاً أطول، قبل أن يفتح الباب. بدا منهكاً، ومنطوياً على نفسه. وجهُهُ بلون الرّماد، ويعتريه الكرى.

«أنا آسفة» قالت. «سؤالي عمّا إذا كنتَ تعمل على أطروحة لم يكن سوى طريقتي الغبية في القول أنا آسفة».

«في المرة القادمة، إذا كنتِ تريدين أن تقولي إنكِ آسفة، قولي إنّكِ آسفة، وكفى».

«هل تريدني أن أوصلكَ إلى الكنيسة؟».

«كلاّ». أشار إليها بالدخول. شقّته تكاد تكون خالية منَ الأثاث، ما عدا أريكة صغيرة، وطاولة، وجهاز تلفزيون، أمّا الكتب فمكدسة بعضها فوق بعض على طول الجدران.

«انظري، يوكوماكا، يجب أن أخبركِ بما يحدث. هيا اجلسي».

جلستْ. على شاشة التلفزيون عرضٌ لفيلم كرتون للأطفال، وعلى الطّاولة، كتابٌ إنجيل مفتوحٌ، موضوعٌ رأساً على عقب، وثمة فنجان قهوة، بالقرب منه، أو ما بدا أنه فنجان قهوة.

«أنا تجاوزتُ وضعي القانوني. الفيزا التي أحملها فقدتْ صلاحيتها منذ ثلاث سنوات. هذه الشقة تعودُ إلى صديقٍ لي. ذهب إلى البيرو لقضاء فصلٍ دراسيٍ هناك، وقال يجب أن أحضر وأمكثَ هنا إلى حين أن أستطيع أن أتدبّر أموري».

« أنتَ لا تدرس في برينستون؟».

«لم أقل قط إنني أدرس». أشاح بوجهه، وأغلق كتاب الإنجيل. «سأتلقّى من إدارة الهجرة بلاغاً بالترحيل في أي لحظةِ الآن. لا أحدَ من الأهل في نيجيريا يعرف وضعي الحقيقي. لم أستطع أن أرسل لهم الكثير منذ أن فقدتُ عملي في شركة للبناء. مرؤوسي شخصٌ طيب، وكان يدفع لي من تحت الطاولة، لكنّه قال إنه بغنىً عن المشاكل، بعد أن سمع أنهم يفتّشون أمكنة العمل».

«هل حاولتَ الاتصالَ بمحامٍ؟» سألتْ.

«محامٍ من أجل ماذا؟ لا توجد قضية ضدّي». كان يعضّ شفتَه السفلى، ولم يسبق لها أن رأته فاقد الجاذبية، كما يبدو الآن، ببشرة وجهه المتقشّرة، وعينيه المنتفختين. لم تشأ أن تسأله عن المزيد من التفاصيل، لأنها تعرف إنه لا يريدُ أن يبوحَ بالمزيد.

«تبدو في هيئة مرعبة. لم تأكل الكثير منذ أن رأيتكَ لآخر مرّة»، قالت، وهي تفكّر بكلّ تلك الأسابيع، التي كانت تتحدّث فيها عن يودينا، بينما تشايندو يمزقه القلق حيال احتمال ترحيله.

«أنا صائم».

«هل أنت متأكّد أنّكَ لا تريدني أن أوصلكَ إلى الكنيسة؟».

«تأخّر الوقتُ، في كلّ الأحوال».

«تعال معي إلى كنيستي، إذاً».

«تعرفين أنّني لا أحبّ الكنيسة الكاثوليكية، ولا كلّ ذاك الركوع، والنهوض، وعبادة الأصنام».

«هذه المرّة فقط، ولتكن الأخيرة. سوف أذهبُ معك إلى كنيستك الأسبوع القادم».

أخيراً نهض وغسل وجهه، وارتدى كنزةً نظيفةً. مشيا صامتين باتجاه السيارة. لم يخطر ببالها قطّ أن تخبره عن الارتجاف، حينما كانا يصلّيان معاً في ذاك اليوم الأوّل الذي التقتْه به، لكنها، ولأنها تصبو إلى أي إشارة مهمّة تُظهِر له أنه ليس وحيداً، وأنّها تعرفُ ماذا يعني أن يشعرَ المرءُ بالحيرة تجاه ما سيأتي، والقليلِ القليلِ الذي نمتلكه للسيطرة على المستقبل - ولأنها بالفعل لا تعرفُ شيئاً آخرَ تقوله له - أخبرتْه عن حالة الارتجاف التي انتابتها.

«كان أمراً غريباً» قالت. «ربّما كان ذلك مجرّد قلق مكبوت تجاه يودينا».

«إنها إشارة من الله»، قال تشايندو بحزم.

«ولماذا شعوري بالارتجاف علامة من الله؟».

«ينبغي أن تتوقّفي عن التفكير بالله كشخص. الله هو الله».

«إيمانُك يشبهُ تقريباً خوضَ المعارك»، ونظرت إليه.

«لماذا لا يبوح الله بأسرارِ ذاتِهِ، بطريقةٍ لا لبْس فيها، ويوضّح الأشياءَ، مرّة واحدةً وإلى الأبد؟ ما الغاية في أن يكون الله أحجية؟».

«لأنّ تلك هي طبيعة الله. إذا فهمتِ الفكرةَ الرئيسيةَ بأنّ طبيعة الله مختلفة عن طبيعة الإنسان، عندئذٍ سيصبحُ لكلّ شيءٍ معنىً» قال تشايندو، فاتحاً باب السيارة استعداداً للخروج. أيّ بذخٍ هذا أن يكون للشّخص إيمانٌ من هذا النّوع، قالت يوكوماكا لنفسها، إيمانٌ غير منتقدٍ، ولا إكراه فيه، ومتعجّل. مع ذلك، ثمة هشاشة بالغة الشدة، تحيط به من دون ريب. كأنّ تشايندو لا يمكنه أن يتصوّرَ الإيمانَ إلاّ في أقصى حالات الراديكالية، وكأنّ الاعتراف بأوسط الأمور يعني خطر خسارة كل شيء.

«أرى ما تريدُ قوله»، قالت، مع أنها لم تر قطّ شيئاً، لكنّ إجابات من

هذا النوع، قبل عدة سنوات مضت، كانت سبباً في جعلها تقرر عدم الذهاب إلى الكنيسة، وأبقتها بعيدة عنها، حتى جاء ذاك اليوم، وقال فيه يودينا كلمته «راكدة» في إحدى صباحات الأحد، في محلّ بيع البوظة، في ناسو ستريت.

خارج المبنى الرمادي للكنيسة، كان الأب باتريك يلقي التحية على الناس. شعره الفضّي يتلألأُ في الضّوء الصباحيّ المتأخّر.

«أتيتُ بشخصٍ جديدٍ إلى قبو الكاثوليكية، أيها الأب، باتريك،» قالت يوكوماكا.

«ثمة دائماً متّسع في القبو، للقادمين الجدد» قال الأب باتريك، مصافحاً بحرارة يوكوماكا، ومرحّباً بها.

الكنيسةُ خافتةُ الإضاءة، وتضجّ بالأصداء والأسرار، وبالرائحة البعيدة للشموع. جلسا جنباً إلى جنب، في الصف الأوسط، بالقرب من امرأة تحملُ طفلاً.

«هل أحببْتهُ ؟» همستْ يوكوماكا.

«القسّ؟ يبدو شخصاً طيّباً».

«أقصد، أحببْت، أحببْتهُ.»

«آه، يا يهوه الرّب، بالطبع لا».

جعلتْه يبتسم. «لن يقومَ أحدٌ بترحيلكَ، يا تشايندو. سنتدبّر الأمر. سنجد طريقة ما». عصرتْ يده، مدركةً أنه أحبّ ضمير الجمع «نحن» في جملتها.

التصق بها قليلاً. «هل تدرين؟ وقعتُ أنا أيضاً، في غرام ثوماس سانكارا».

«كلاّ». بدأت موجة الضحك تتحرّك في صدرها.

«لم أكن أعلم بوجود بلدٍ اسمه بوركينا فاسو، في غرب أفريقيا، حتى تحدّث معلّمي في المدرسة الثانوية عنه، وجلب معه صورةً إلى الصفّ. لا أنسى أبداً الحبّ الجنوني الذي شعرتُ به تجاه الصورة في الجريدة.

«لا تقل لي إنّ أبيديمي يشبهه بشكل أو بآخر».

«في الواقع ثمة شبه بينهما».

في البدء حاولا أن يكبحا ضحكهما، لكنّهما فشلا، ومال أحدهما باتجاه الآخر، بينما المرأة التي تحملُ طفلاً، راحت تنظرُ إليهما.

بدأت الجوقة بالغناء. إنه يوم من أيام الآحاد تلك، حين يقوم القسُّ بتبريك الحضور بالماء المقدّس، في بداية العظة، وراح الأب باتريك، ينزل ويصعد، ويرشّ الماء على النّاس، بواسطة شيءٍ يشبهُ حنجورَ الملح. كانت يوكوماكا تراقبُه، وتقول في نفسها، كم هي العظات الكاثوليكية في أمريكا خافتة الإيقاع؛ وكيف أنّ رش الماء في نيجيريا يكون بواسطة غصن أخضر غضّ، مقطوع من شجرة مانغا، يرمي به القسّ في دلو الماء المقدس، الذي يحمله خادمُ العظة، العجولُ، وهو يتصبّب عرقاً، وكيف أنّه يدوسُ الأرض، صعوداً وهبوطاً، ويمطر الحضور بالماء المقدس، وكيف أنّ الناس يخرجون مبلّلين، فرحين، وهم يرسمون شارات الصّليب، بعدما باركتهم المياهُ المقدّسة.

مدبّرو الزّواج

حمل زوجي الجديد الحقيبة، خارج سيارة التاكسي، وشق طريقه نحو المنزل، المكسوّ بالآجرّ الأحمر، وصعد طابقاً واحداً، ثم مشى في ردهة بلا هواء، مفروشةٍ بسجّادٍ مجعّد، وتوقف خلف باب، ملصق فوقه الرقم (2B)، المصاغ، عشوائياً، من معدن أصفر اللّون.

«ها نحن هنا»، قال. سابقاً استخدم كلمة «منزل»، حين أخبرني عن بيتنا. كنت قد تخيّلتُ مدخلَ سيارات فخماً، يتلوّى بين مروجٍ خضرٍ، غضّة كالخيار، وباباً يؤدّي إلى ردهةٍ واسعة، وجدراناً مطليةً بألوانٍ هادئة. منزلٌ يشبهُ منزلَ العرسانِ الجددِ في الأفلام الأميركية، التي كانت تبثها قناة NTA، في كلّ ليلِ سبت.

أضاء اللمبة في غرفة الجلوس، حيث أريكة أرجوانية، تقبع وحيدة في المنتصف، مائلة إلى اليمين قليلاً، وكأنما رُميت، هناك، بمحض الصدفة. الغرفةُ حارّةٌ، وثمة روائح قديمة، عفنة، تعْلق ثقيلةً في الهواء.

«دعيني أُريكِ أرجاء البيت».

في غرفة النوم الصغرى، فراشٌ عارٍ، موضوعٌ في إحدى الزوايا. في غرفة النّوم الكبرى، سريرٌ، وشرشفٌ للزّينة، وتلفونٌ فوق الأرض، المغطّاةِ بالسجّاد. مع هذا، الغرفتان ينقصهما الشعورُ بالرّحابة، وكأن الجدران ضجرتْ بعضها من بعض، مع وجود مساحة قليلة تفصلُ بينها.

«الآن، بما أنكِ أصبحتِ هنا، صار بإمكاننا شراء المزيد من الأثاث. لم أكنْ أحتاج لأكثر من هذا، حين كنتُ وحيداً»، قال.

«حسناً» قلتُ. شعرتُ بدوارٍ خفيف. رحلةُ العشر ساعات من لاغوس إلى نيويورك، والانتظار الممضّ، بينما تقوم موظفة الجمارك الأمريكية، بتفتيش حقيبتي، جعلتني أشعرُ بالغثيان، وبأنّ رأسي محشوٌ بالقطن تماماً. فحَصَت الموظّفةُ بعض الموادّ الغذائية التي أحملها، كأنها تلمسُ العناكبَ، إذ راحت أصابعها، المحمية بالقفّازات، تتلمّس الأكياس المضادّة للماء، التي تحوي جذوراً أرضيةً مجففة، وأوراقَ نارنج جافة، وبذورَ دوار الشّمس، المحلّية. هنا توقفتْ ملياً، وبدأتْ تتفحص البذور بعناية، وكأنها كانت تخشى بأن أقوم بزراعتها في التربة الأمريكية. ليس مهماً أن البذور جُففت في حرارة الشمس، لعدة أسابيع، وأنها قاسية صلدة، كخوذ الدراجات.

«أنا متعبة حقاً» قلتُ، ووضعتُ حقيبة يدي فوق أرضية غرفة النوم.

«وأنا مرهقٌ أيضاً» قال. «يجب أن نذهب إلى النوم».

في السرير، مع الشراشف التي بدت ناعمةً، تكوّرتُ، بحزم، مثل قبضة عمّي، إيكي، حين يكون غاضباً. يحدوني الأملُ بأنه لا واجبات زوجية تنتظرني، ينبغي القيام بها. وشعرتُ بالارتياح، بعد لحظات فقط، حين سمعتُ زوجي الجديد يغطّ في نومٍ عميقٍ، مع شخيرٍ منتظمِ الإيقاع. الشخيرُ بدأ كحشرجة من حنجرته، ثم انتهى كنغم صاخبٍ، يشبهُ الصفيرَ الخليعَ. لم يحذّروكِ من شيءٍ كهذا، حين دبّروا لكِ هذا الزّواج. لم يذكر أحدٌ، أبداً، الشخير المزعج، ولا البيوت التي اتضح أنها غرف عارية، مكسوّة بالقليل من الأثاث.

استيقظ زوجي، ثم وضع جسده الثقيل فوقي. صدرُهُ عصرَ ثدييّ عصْراً.

«صباح الخير» قلتُ، وأنا أحاول أن أفتح جفنيّ المثقلين بالكرى. أصدر صوتاً يشبه النخيرَ، قد يكون بمنزلة الردّ على تحيتي، أو جزءاً من طقسٍ يمارسُه. وثبَ ناهضاً، وبدأ يرفع فستان نومي إلى ما فوق خصري.

«انتظرْ-» قلتُ، كي أعطي نفسي الفرصة لأخلع الفستان، وبالتالي لا

يبدو الأمرُ بتلك السرعة الفائقة. لكنه كان قد أطبق فمَه على فمي. هذا شيءٌ آخر فشلَ مدبّرو الزواج بذكره - أفواهٌ تروي قصّة نوم بدا دبقاً كعلكة قديمةٍ، وله رائحةُ أكوام الزّبالة في السّوق القديم لساحة أوغبيت. أنفاسه تتصاعدُ كلما تحرك، وكأنّ منخريه ضيّقان لا يتّسعان لهواء الغرفة. حين توقف أخيراً، وهمد أنينه، أراح كامل بدنه فوق جسدي، بما في ذلك ثقل ساقيه. لم أحرك ساكناً، حتى بادر هو، وقفز من فوقي، ذاهباً إلى الحمّام. أنزلتُ فستانَ نومي، ومسّدتُ زواياه عند الخصر.

«صباح الخير، يا حبيبتي،» قال، عائداً إلى الغرفة.

ناولني التلفون. «علينا أن نتّصل بعمّكِ وعمّتكِ، ونخبرهما بأننا وصلنا سالمين. نتكلّم لبضع دقائق فقط، فالدقيقة إلى نيجيريا تكلّف دولاراً واحداً تقريباً. اطلبي أولاً الرقم (011) ومن ثم (234)، ثم الرّقم النهائي».

«كلّ هذه الأرقام!».

«نعم، أولاً نداء الرّقم الدولي، ومن ثم نداء نيجيريا».

«أوه» قلتُ. عزفتُ أربعة عشر رقماً. الدَبقُ بين ساقيّ بدأ يسبّب لي الحكّة.

وبدأ خطّ الهاتف يفرقعُ، عابراً المحيط الأطلسي. أعرف أن عمي، إيكي، وعمتي، آدا، سيكونان في غاية الدفء، ويسألان ماذا أكلتُ، وما هو حال الطقس في أمريكا. لكنّ لا أحد منهما سوف يكترث لإجاباتي: إنهما يسألان لمجرد أنّهما يسألان. عمي إيكي، ربمّا، سوف يبتسم على الهاتف، تلك الابتسامة نفسها التي أرخت عضلات وجهه، حين أخبرني أن الزّوج المثالي قد تم اختياره لي. إنها الابتسامة التي رأيتها على محياه، قبل عدّة أشهر، حين فاز فريق «النسور» بالميدالية الذهبية في أولمبياد أطلنطا.

«طبيب في أمريكا،» جاء يقولُ مشرقاً. «هل ثمة ما هو أفضل من

هذا؟ والدة أوفوديل تبحث عن زوجة له، ويساورها القلق بأن يتزوج من امرأة أمريكية. لم يزرْ نيجيريا منذ أحد عشر عاماً. أعطيتُها صورة فوتوغرافية لكِ. مرّ وقتٌ لا بأس به، ولم تتصلْ بي، وظننتُ أنها عثرت على إحداهنّ. ولكن ...» هنا ترك عمّي إيكي صوته يسرحُ على مهلٍ، وسمح لإشراقة وجهه بأن تستمرّ وقتاً أطول.

«نعم، يا عمّي».

«سوف يأتي في زيارة إلى هنا، أوائل حزيران» قالت عمّتي، آدا. «أمامكما متّسعٌ من الوقت لتتعرّفا بعضكما على بعض قبل حفل الزّفاف».

«نعم، يا عمّتي». ما كانت تقصدُهُ بـ «متّسع من الوقت» لم يكن سوى أسبوعين اثنين فقط.

«ما الذي لم نفعله من أجلكِ؟ ربّيناكِ كأنّك ابنة لنا، ثم وجدنا لك زوجاً صالحاً! طبيباً في أمريكا! كأننا ربحنا جائزة اليانصيب، من أجلك!» قالت عمّتي، آدا. فوق ذقنها شعيرات ناعمة صغيرة، ظلّت تلمسُ إحداها أثناء حديثها.

شكرتهما كليهما على كلّ ما فعلاه من أجلي- وجدا لي زوجاً، وأخذاني إلى منزلهما، وكانا يشتريان لي حذاءً جديداً، مرّة واحدة كلَّ عامين. لم أذكّرهما بأنّني أريدُ أن أتقدّم إلى امتحان (JAMP) مرة أخرى، وأحاول الالتحاق بالجامعة، أو أنني بعتُ خبزاً في فرن عمّتي، آدا، خلال مرحلة دراستي الثانوية، ما يفوقُ كلّ ما باعته الأفرانُ في إنوغو، مجتمعةً، وأنّ أثاثَ المنزل، وأرضية الغرف، تلمعُ بسببي.

«هل تمَّ الاتصال؟» قال زوجي الجديد.

«إنّه منهمك»، وأشحتُ ببصري، بعيداً، كي لا يرى علامات السّرور عَلى وجهي.

«مشغول. الأمريكيون يقولون مشغول، وليس منهمكاً،» قال. «سوف نحاولُ لاحقاً. دعينا نحضّر الفطور».

من أجلِ الفطور، سحب فطيرتين متجمّدتين من كيس أصفر لامع.

راقبتُ أزرار المايكروويف الأبيض، حين راح يضغطُ عليها، وحاولتُ حفظَها عن ظهرِ قلب.

«اغلي بعض الماء للشّاي» قال.

«هل لديك بعض الحليب المجفّف؟» سألتهُ، بعدما أخذتُ الركوةَ إلى المغسلة. كان الصدأ يعلو زواياها مثل طلاءٍ رماديّ متقشّر.

«الأمريكيون لا يحتسون الشاي بالحليب والسكر».

«وأنت؟ ألا تشرب الشاي بالحليب والسكر؟».

«كلاّ، تعوّدتُ، منذ وقت طويل، أن أقوم بالأشياء التي يقومون بها، هنا. وسوف تتعودين أنت أيضاً، يا عزيزتي».

جلستُ قبالة فطائري الرّخوة - إنها أرقّ بكثير من الشّطائر اللّذيذة التي كنتُ أحضّرها في البيت - والشّاي الخفيف الذي خشيتُ من أنني لن أستطيع ابتلاعَه. رنّ جرسُ الباب، فنهض ليرى من القادم. مشى ويداه تتأرجحان خلف ظهره، وأنا لم ألحظْ ذلكَ من قبل، ولم يكن لديّ الوقتُ كي ألحظَ شيئاً.

«سمعتُ أنّك عُدتَ، في اللّيلة الماضية». كان الصوتُ أمريكياً، فالكلمات خرجتْ سريعاً، واصطدمتْ بعضها ببعض. صوتٌ فائق الخفّة. عمّتي، إيفي، تصفُهُ بالسّريع-السّريع. «حين تعودين إلى زيارتنا، سوف تتحدّثين بلكنةٍ سريعةٍ، سريعةٍ، تماماً كما يفعل الأمريكيون»، قالت.

«مرحباً، شيرلي. شكراً جزيلاً لكِ لأنّكِ احتفظتِ برسائلي». قال.

«لا مشكلة على الإطلاق. كيف كان حفل زفافك؟ هل زوجتكَ هنا؟».

«نعم، تعالي، وسلّمي عليها».

امرأةٌ، ذاتُ شعرٍ بلون المعدن، دخلتْ إلى غرفة الجلوس. جسدُها ملفوفٌ بروبٍ ورديٍ، مزخرفٍ على الخصر. وإذا قدّرنا عمرها، بالنظرِ إلى التجاعيد التي تخدّدُ وجهها، فإنها قد تكون بين الستّين والثمانين عاماً. والحقيقة أنني لم أرَ الكثير من البشر البيض سابقاً كي أستطيع تحديدَ أعمارهم بدقة.

«اسمي شيرلي، وأسكنُ الشقة (3A). يسعدني اللقاءُ بكِ»، قالتْ، مصافحةً يدي. صوتُها يخرجُ من أنفها مثل شخصٍ مصابٍ بالزكام.

«أهلاً وسهلاً» قلتُ.

صمتتْ شيرلي، قليلاً، كأنّما أصابتْها الدّهشةُ. «حسناً، سوف أترككما تكملان فطوركما»، قالت. «سوف أنزل ثانيةً، وأزوركما حين تستقرّان أكثر».

خرجتْ شيرلي. زوجي الجديد أوصدَ البابَ وراءها. كانت إحدى أرجل طاولة العشاء أقصر من الأخريات، ما جعلَها تهتزُّ كالأرجوحة، حين مال بجذعه نحوها، وقال، «يجب أن تقولي (مرحباً) للنّاس هنا، وليس (أهلاً وسهلاً)».

«ليس عمرها من عمري».

«الأمورُ لا تسيرُ بهذه الطريقة هنا. الجميع يقولُ: مرحباً».

«فهمت. حسناً».

«بالمناسبة، ليس اسمي هنا أوفوديل. الناسُ ينادونني ديف»، قال ناظراً إلى كومة مغلّفات الرسال التي أحضرتها له شيرلي. العديد منها كتب فوقه كلمات عدّة، فوق العنوان نفسه، وكأنّ المرسل تذكّر أن يضيف شيئاً ما، بعد إغلاق المظروف بالصمغ.

«ديف؟» كنتُ أعرف أنه لا يملك اسماً إنكليزياً. بطاقات الدعوة إلى حفل زفافنا تُظهِرُ اسمه، أوفوديل إيميكا يودينا، واسمي، تشينازا آغاثا أوكافور.

«الاسم الأخير، الذي أستخدمه هنا، مختلف أيضاً. يجد الأمريكيون صعوبةً في نطقِ يودينا، فاستبدلته».

«ما هو؟» كنتُ ما أزال أحاول الاعتيادَ على يودينا، الاسم الذي لم أعرفْه إلا منذ أسابيع.

«إنه بيل».

«بيل!» كنتُ قد سمعتُ أن أسماء من مثل واتروتشا يتبدّل إلى

واتورو، في أمريكا، واسم تشيكيلوغو يتبدّل إلى نسخة أمريكية، أكثر ودّاً، هي تْشيكِل، ولكن أن يكون التبديلِ من اسم، يودينا، إلى اسم بيل؟»
ولكن لا تشابه قطّ بين يودينا وبيل»، قلتُ.

نهض واقفاً. «لا تفهمين كيف تسير الأمور في هذه البلاد. إذا كان يجب أن تتحركي إلى أيّ مكان، ينبغي أن تمشي مع التيار، قدر المستطاع، وإلاّ ستُرمين على قارعة الطريق. ينبغي أن تستخدمي اسمكِ الإنكليزي هنا».

«لم يسبق أن كان لي اسم أبداً، فاسمي الإنكليزي مكتوبٌ فقط على شهادة ميلادي. الناس ينادونني تشينازا أوكافور، طوال حياتي».

«سوف تعتادين عليه، يا حبيبتي»، قال، مادّاً يديه يداعب خدّي.
«سترين».

حين ملأ استمارة رقم الضّمان الاجتماعي، في اليوم التالي، كان الاسم الذي كتبه، بأحرف كبيرة، هو آغاثا بيل.

حيّنا الذي نسكن فيه يُسمّى فلاتبوش، قال لي زوجي الجديد، بعد أن خرجنا نمشي في الحرّ الشديد، نتصبّبُ عرقاً، عبر الشارع الصاخب، الذي تفوح منه رائحة سمكٍ ظلّ فترة طويلة خارج الثلاجة. أراد أن يدلّني كيف أقومُ بشراء الحاجيات، وكيف أستقلُّ الباصّ.

«انظري حولكِ، ولا تُخفضي عيناكِ بهذه الطريقة. انظري حولكِ. تألفينَ الأشياء أسرع بهذه الطريقة»، قال.

أدرتُ رأسي من جانبٍ إلى جانبٍ، لكي يرى أنني أطبّقُ نصائحَه. في البعيد، نوافذ داكنة لمطعمٍ يعدُ الزبائنَ «بأفضل أنواع الطعام الأمريكي والكاريبي»، مكتوبة بطباعة مائلة، وثمة مغسل للسيارات يعلنُ «ثلاثة دولارات ونصف»، لغسيل السيارة، وهي عبارة مطبوعة بطباشير بيضاء، على لوحٍ خشبي، بين علب الكولا، وقصاصات الورق. وثمة حوافُّ الرّصيفِ المتآكلة، مثل شيء قديمٍ قضمتهُ الفئران.

داخل الباص، المبرّد بأجهزة التكييف، دلّني أين أضعُ القطعَ المعدنية، وكيف أضغطُ الشّريطَ، على الحائط، لإعلامِ السائق بموقفِ نزولي.

«هنا تختلف الأمور عنها في نيجيريا، حيث يمكن أن تنادي على السّائق، كي يتوقّف»، قال، مستاءً، كأنّما هو بالذّات من اخترع النظام الأمريكي المتفوّق.

داخل متجرِ «كي فود» الضخم، تجوّلنا، ببطءٍ، من صفٍّ إلى صفٍّ، ومن رفّ إلى آخر. شعرتُ بالاضطراب حين وضع علبةً من لحم البقر في عربةِ التسوّق. وودتُ لو كان بإمكاني أن ألمسَ قطعةَ اللّحم، وأتفحّصَ احمرارها، مثلما كنتُ أفعل في سوق أوغبيت، في نيجيريا، حين يرفعُ الجزّارُ بيده عالياً، شريحةَ اللّحم الغضّة، المبهرجةِ بالذباب.

«هل يمكننا أن نشتري بعض البسكويت؟» سألتُ. العلبُ الزرقُ من بسكويت شاي بورتون الفاخر مألوفة، وأنا، لم أكن أريدُ أن آكل البسكويت، بقدر ما كنتُ أرغبُ برؤية شيءٍ مألوفٍ في عربة المشتريات.

«اسمها كوكيز. الأمريكيون يسمّونها كوكيز، وليس بسكويت»، قال.

مددتُ يدي وتناولتُ علبةَ البسكويت أو (الكوكيز).

«خذي ماركة المتجر. إنهّا أرخص، مع أنّها النّوع ذاته»، قال، مشيراً إلى علبةٍ بيضاء.

«أوكّي» قلتُ. فقدتُ رغبتي بالبسكويت، لكنني، مع ذلك، وضعتُ العلبة التي تحملُ ماركة المتجر في العربة، ورحتُ أحدّق، ملياً، بالعلبة الزرقاء على الرفّ، وعلى شعار القمحِ المألوف، فوق علبة بورتون، حتى غادرنا هذا الجانب من المتجر.

«حين أصبحُ طبيباً ممارساً سوف نتوقف عن شراء ماركات المتجر، لكننا الآن مضطرون لذلك. هذه الأشياء تبدو رخيصة، لكنّها تتراكمُ في المدى البعيد، ونجد أننا نقتصدُ حقاً».

«متى تصبحُ طبيباً مستشاراً؟»،

«نعم، لكنّهم يقولون، ممارساً - طبيباً ممارساً داخل عيادة».

مدبّرو الزواج قالوا لكِ فقط إنّ الأطباء يجنون الكثيرَ من المال، في أمريكا. لم يضيفوا أنّ الأطباء، وقبل أن يبدأوا جني أموال طائلة، يترتّب عليهم أولاً أن يخضعوا لفترة تمرين، ويلتحقوا ببرنامج الطبيب المقيم، الذي لم يكملْه زوجي الجديدُ، بعدُ. لقد أخبرني بهذه المعلومات خلال محادثة مقتضبة، على متن الطائرة، بعد وقت قصيرٍ من إقلاعها، من لاغوس، وقبل أن يغطّ في نومٍ عميق.

«المتمرنون يتقاضون ثمانية وعشرين ألف دولار في السنة، لكنهم يعملون حوالي الثماني ساعات في الأسبوع. أي ما يعادل ثلاثة دولارات فقط للساعة الواحدة»، قال. «هل تصدّقين؟ ثلاثة دولارات في الساعة الواحدة!».

لم أكن أعرف أنّ ثلاثة دولارات في الساعة شيءٌ جيدٌ أم سيئ - كنتُ أصغي إليه فحسب- حتى أضاف أنّ طلاب المدرسة الثانوية الذين يعملون، جزءاً من وقتهم، يجنون أكثر بكثير.

«وحين أصبحُ طبيباً ممارساً، لن نعيش في حيٍ متهالكٍ كهذا»، زوجي الجديدُ قال. توقف بغتةً ليسمح لامرأةٍ، مع طفلها المتمسّك بعربة التسوّق، تعبرُ أمامنا. «هل ترين القضبان التي تمنعكِ من أخذِ عربةِ المشتريات خارجاً؟ في الأحياء الراقية، لا توجد هذه القضبان. تستطيعين أن تأخذي عربة المشتريات إلى طبونِ سيّارتكِ».

«أوه» قلتُ. ماذا يهمّ أنكَ تستطيعُ أو لا تستطيعُ، أخذَ عربتكَ خارجَ المتجر؟ المهمّ في الأمر أنّ عربات التسوّق موجودة.

«انظري إلى الناس الذين يتسوّقون هنا. إنهم أولئك الذين هاجروا وظلوا يتصرفون وكأنهم ما زالوا في بلدانهم». أشار، منتقداً، بيده إلى امرأة، مع طفليها، تتحدث الأسبانية. «لن يتقدّموا خطوة واحدة إلى الأمام ما لم يقتدوا بأمريكا. سيظل قدرهم هكذا، يرتادون، أبداً، هذه المحال الكبرى».

تمتمتُ بشيٍ غير مفهومٍ لأظهر له أنّني أصغي إلى كلامه. فكّرتُ بالسوق المفتوح في إنوغو، والبائعين بكلامهم المعسول وهم يغوونك بالتوقّف والدخول إلى خيمهم المسقوفة بألواح الزنك، المستعدين للجدال، طوال النهار، من أجل أن يضيفوا ليرة واحدة على السعر. يلفّونَ ما تشتريه في أكياسٍ بلاستيكية، إذا كانوا يملكونها، وإذا لم يكونوا يملكونها، يضحكون، ويقدّمون لك جرائد بالية.

زوجي الجديد أخذني إلى المول. كان يريدني أن أرى كلّ ما بوسعه أن يريني إياه، قبل أن يبدأ عملَهُ، يومَ الإثنين. كانت سيارته تهتزّ وتتأرجح، أثناء القيادة، وكأن ثمة مجموعة من القطعِ انفصلت بعضها عن بعض - صوتٌ شبيهٌ بهزِّ علبةٍ نحاسيةٍ مملوءةٍ بالمسامير. كانت تحرنُ عند إشارات المرور، وتنطفئ من تلقائها، فيديرُ المفتاحَ في قفلها، مرات عديدة قبل أن تنطلق من جديد.

«سوف أشتري سيارة جديدة، بعد انتهاء برنامج الطبيب المقيم»، قال.

داخل المول، يلمعُ الرخامُ بقوّة، ناعماً كمثل مكعبات الجليد، والسقف الشاهق كالسماء يتلألأ بأضواء أثيرية دقيقة. شعرتُ كأنني في عالمٍ حسّي مختلف، على كوكبٍ آخر. الناسُ الذين اصطدموا بنا، حتى السّود منهم، يضعون وشمَ الأجنبي، أو الآخرَ، على جباهِهم.

«سنشتري البيتزا، أولاً»، قال. «إنه الشّيءُ الأوّلُ الذي ينبغي أن تحبّيه في أمريكا».

صَعدنا باتجاه زاوية البيتزا، إلى الرّجل الذي يضع حلقة في أنفه، ويرتدي قبّعةً بيضاء طويلة.

«شطيرتا ببيروني، وواحدة نقانق. أهذا أفضل جازٍ عندكم؟» سأل زوجي الجديد. بدا شخصاً مختلفاً حين يتحدّثُ إلى الأمريكيين: حرف

الراء لديه مضخّم، بشكلٍ مبالغٍ فيه، وحرف التاء، على النقيض، يكادُ يكون مختفياً. على محياه تلك الابتسامة المتلهّفة التي تدعو الآخرين إلى أن يستسيغوا حضوره.

أكلنا البيتزا، ونحن جالسون حول طاولة مستديرة صغيرة، داخل ما أسماهُ «باحةُ الطعام». بحرٌ من البشر يجلسون حول طاولاتٍ حلزونية، منكبّين فوق صحونٍ ورقية، مملوءة بالطعام المدهن. يمكن لعمّي، إنكي، أن يُصاب بالذعر لمجرّد التفكير بتناول الطعام هنا، فهو رجل صاحبُ مرتبةٍ، ولا يأكلُ حتى في الأعراس، إلا إذا قام أحدٌ على خدمته، وجلب الطعام له، إلى غرفة خاصّة. ثمة إهانة كبيرة في تلك العَلَنية الفاضحة، شيء تنقصُهُ الكرامةُ في هذا الفضاء العامّ، هذا الفضاء المفتوح على الطاولات الكثيرة والطعام الكثير.

«هل أعجبتكِ البيتزا؟» سأل زوجي الجديد. صحنه الورقي فارغٌ تماماً.

«البندورة غير مطبوخة جيداً».

«نبالغُ في طهي الطعام في منازلنا، ما يجعله يفقدُ الكثير من عناصره الغذائية. الأمريكيون يطبخون الأشياء على أصولها. ألا ترين كيف يبدو الجميع بصحّة جيدة؟».

أومأتُ برأسي، وأنا أنظرُ حولي. على الطّاولة المجاورة امرأةٌ سوداء، جسدها عريضٌ كوسادة، نظرتْ إليّ وابتسمتْ. ابتسمتُ في وجهها، وأخذتُ عضّة بيتزا أخرى من صحني، أشدّ معدتي شدّاً كي لا تتقيأ أيّ شيءٍ.

ذهبنا إلى متجر ميسي، بعد ذلك. مشى زوجي الجديدُ أمامي، يقودُ الطريق، باتجاه درجٍ متحرك. حركته مطاطية، ناعمة، وأدركتُ أنني سوف أتعثر في اللحظة التي تطأ فيها قدمي أوّل درجة.

«أليس لديهم مقطورة هنا؟» سألتُ. على الأقلّ سبق أن استخدمتُ

واحدةً متهالكةً في إحدى المكاتب الحكومية المحلية، حيث ترتجف المقطورة، وتهتزّ لمدّة دقيقة كاملة، قبل أن تفتح أبوابها.

«تكلّمي الإنكليزية. ثمة أناسٌ خلفنا»، همسَ، ساحباً إياي بعيداً، باتجاه طاولة براقة مليئة بالمجوهرات. «إنه مصعد، وليس مقطورة. الأمريكيون يسمّونه المصعد».

«أوكّي».

قادني من يدي إلى المقطورة (المصعد) وصعدنا إلى القسم الأعلى، حيث صف المعاطف الباهظة الأثمان. اشترى لي معطفاً بلون السماء المكفهرّة، منتفخاً بأشياء تشبه الإسفنج داخل خطوطه. بدا المعطفُ فضفاضاً جداً، ويتّسع لامرأتين اثنتين من حجمي.

«الشتاءُ على الأبواب،» قال. «سوف تشعرين أنّك داخل برّاد حقيقي، وبالتالي تحتاجين معطفاً دافئاً».

«شكراً لك».

«التسوّقُ يكون أفضل دائماً حين توجدُ تنزيلات. أحياناً تحصلين على القطعة ذاتها بأقلّ من نصف السعر. وهذه من عجائب أمريكا».

«يا عجبي» قلتُ بلغةِ نيجيريا المحلية، ثم استدركتُ، وأضفتُ، «حقّاً؟».

«دعينا نتجول قليلاً داخل المول. سترين عجائب أمريكية أخرى هنا».

مشينا ننظرُ إلى المحال التي تبيع الملابس والأدوات والصحون والكتب والتلفونات، حتى بدأتْ مفاصلُ قدميّ تؤلمني.

وقبل أن نغادر، شقّ طريقه باتجاه مبنى ماكدونالد. المطعمُ يقبعُ خلف المول، تقريباً، وثمة حرف (M)، بالأصفر والأحمر، كبيرٌ بحجمِ سيّارة، ينتصب أمام المدخل. لم ينظر زوجي إلى قائمة الطعام، الموضوعة أعلى الرفّ، حين طلبَ وجبتين اثنتين، من الحجم الكبير.

«يمكننا الذهاب إلى المنزل، وأقوم أنا بالطبخ،» قلتُ. «لا تدعي

زوجَكِ يأكلُ الطعام خارجَ المنزل كثيراً»، قالت لها عمّتها، آدا، ذات يوم، «وإلاّ سوف تخسرينه، ويقعُ في أحضان امرأةٍ أخرى، تجيدُ الطّهي جيِّداً. دائماً احرسي زوجَكِ، مثلما تُحرَسُ بيضةُ طيرِ الحبَش».

«أحبُّ أن آكلَ هنا، بين الحين والآخر» قال. أمسكَ بسندويشة الهمبرغر بكلتا يديه، وبدأ يمضغُ بتركيزٍ عالٍ، ما جعل حاجباه ينعقدان، وفكّاه يشتدّان، وبدا متوحّشاً أكثر من ذي قبل.

حضّرتُ أرزّ جوزِ الهند، كي أعوّضَ عن الأكلِ خارجاً. أردتُ أن أحضّر الحساء بالفلفل، وبخاصّة ذاك النّوع الذي قالت عنه عمتي، آدا، إنه يجعل قلبَ الرّجلِ رقيقاً. لكنني كنتُ أحتاجُ البهارات المحلّية، التي صادرتْها موظفةُ الجمارك، فحساءُ الفلفل ليس حساء الفلفل من دونها. اشتريتُ جوز الهند من متجر جامايكي، أسفل الشارع، وأمضيتُ ساعةً كاملة أقطّعها إلى نثرات صغيرة، لأنه لا يوجد مبشرة في المنزل، ثم نقعتها بالماء السّاخن، كي أستخلص العصير. كنتُ قد انتهيتُ من الطهي حين عاد زوجي إلى البيت. كان يرتدي ما بدا لي لباساً رسمياً: صدريةٌ نسائيةٌ، زرقاء اللون، فوق بنطلونٍ أزرق اللّون، مشدود على الخصر.

«أهلاً» قلتُ. «هل كان عملكَ على ما يرام؟».

«ينبغي أن تتحدّثي الإنكليزية في البيت أيضاً، يا عزيزتي، وبالتالي تتعوّدي على اللّغة، شيئاً فشيئاً». ضغطَ شفتاهُ على خدّي، حين رنَّ جرسُ الباب. إنّها شيرلي، مرتديةً الثوب الورديّ نفسه، وتلفّ زنّاراً حول خصرها.

«تلك الرائحة،» قالت، بصوتِها المثخن بالحشرجة. «إنها في كلّ مكان. رائحةٌ تملأ البناية بأسرها. ماذا تطبخين؟».

«أرزّ جوز الهند»، قلتُ.

«هل الوصفة من بلادكم؟».

«نعم».

«إنها رائحة طيّبة حقّاً. المشكلة لدينا هنا أننا لا نملك ثقافة. لا ثقافة على الإطلاق». استدارتْ باتجاه زوجي الجديد، كأنما أرادت منه أن يوافق على رأيها، لكنّه اكتفى بابتسامة خفيفة.

«هل تأتي معي وتلقي نظرة على المكّيف، يا ديف؟» سألَتْ. «بدأ يضعفُ، والجوّ حارٌ جدّاً».

«بالتأكيد». قال زوجي الجديد.

قبل أن يغادرا، لوّحتْ لي شيرلي بيدها، «الرائحةُ طيبةٌ حقّاً»، وأردتُ أن أدعوها لتأكلَ بعض الأرزّ. زوجي الجديد عاد بعد نصف ساعة، والتهم الوجبة الشهية، التي وضعتها أمامه، بل راح يتلمّظ بشفتيه مثلما كان يفعل، أحياناً، عمّي، إيكي، كي يُظهرَ لعمّتي، آدا، أنه أحبَّ طهوَها. لكنّ زوجي، في اليوم التالي، عادَ، يحملُ كتاباً سميكاً، كالإنجيل، بعنوان (كتابُ الطهي الأمريكي).

«لا أريدُ أن يُذاعَ صيتُنا هنا بأننا أولئك الناس الذين يملؤون المبنى بروائح الأطعمة الأجنبية»، قال.

تناولتُ كتابَ الطّبخ، وسحبتُ يدي فوق الغلاف، وفوق صورة شيءٍ بدا لي كالزّهرة، لكنّه ربّما، كان نوعاً من الطعام.

«أعرفُ أنه لن يطول بك الوقتُ حتى تتعلمي الطهي الأمريكي»، قال، وشدّني بلطفٍ نحوه. في تلك اللّيلة، فكرتُ بكتابِ الطَّهي، بينما كان يعتلي جسدي، بكلِّ ثقله، يشخرُ وينخرُ. شيءٌ آخر لم يخبركِ به مدبّرو الزواج - الصراع لقلي اللّحمِ بالزيت، ورشّ الطحين فوق الدّجاج المسلوخِ الجِلد. لطالما طبختُ الدجاج بمرقه ودهونه، ذاك الدجاج الذي سلَقْتهُ بجلدِهِ، من دون مسٍّ به. في الأيام التالية، كانت تغمرني السعادة لأن زوجي يغادرُ المنزل إلى عمله في السادسة صباحاً، ولا يعودُ حتى الثّامنة مساءً، وبالتالي كان لديّ الوقتُ الكافي لأرمي قطعَ اللحم، الدبقة، نصف المطبوخة، بعيداً، وأبدأُ من جديد.

المرة الأولى التي رأيتُ فيها، نيا، المرأةَ التي تقطنُ في الطّابق (2D)، ظننتُ أنها من النساء اللّواتي لن تحبذهنّ عمتي، آدا. الاسم الذي ستطلقه عليها عمّتي هو «آشاو» أو المومس، بسبب البلوزة الشفافة التي ترتديها، والتي تظهرُ من خلالها سوتيانتُها، كظلٍّ نافرٍ، بلونها المختلف. أو ربّما سوف تستندُ عمتي في تقييمها هذا إلى أحمر الشفاه الذي تضعه نيا، بلونه الأرجواني البرّاق، وكحلِ العين - شبيه بلونِ أحمر الشفاه- العالق فوق جفنيها الثقيلين.

«مرحباً»، قالت حين نزلتُ لآخذَ البريد. «أنتِ زوجة ديف الجديدة. فكّرتُ بأن آتي وأزوركِ. اسمي نيا».

«شكراً. اسمي تشينازا ... آغاثا».

كانت نيا تراقبني عن كثب بعناية شديدة. «ما هو الشّيءُ الأوّلُ الذي قلتِه؟».

«اسمي النيجيري».

«اسم إغبو، أليس كذلك؟» ولفظت الاسم «إي-بو».

«أجل».

«وماذا يعني؟».

«الله يستجيبُ للصّلوات».

«اسمٌ جميل حقاً. هل تعرفين أن نيا اسمٌ سواحيليٌ. بدّلتُ اسمي حين كنتُ في الثامنة عشرة. أمضيت ثلاث سنوات في تانزانيا. كانت سنوات جميلة جداً».

«أوه»، قلتُ وهززتُ رأسي. هي، المرأة الأمريكية السّوداء، اختارت اسماً أفريقيا، في حين أنّ زوجي يريدني أن أغيّر اسمي الأفريقي إلى آخر إنكليزي.

«لا بدّ أن تشعري بمللٍ قاتل في تلك الشقّة؛ أعرفُ أن ديف يعودُ من العمل متأخّراً جداً»، قالتْ. «تعالي واحتسي الكوك معي».

تردّدتُ قليلاً، لكنّ نيا كانت تمشي أمامي على الدرج، ووجدتُ نفسي ألحقُ بها. غرفة الجلوس أنيقة باقتصادٍ شديد: أريكة حمراء، ونبتة نحيلة داخل أصيص، وقناع خشبي ضخم معلّق على الحائط. فتحتْ لي علبةَ دايت كوك، وسكبتها في كأس طويلة العنق، ووضعت معها قطع الجليد، وسألتني كيف أتكيّف مع الحياة في أمريكا، واقترحت أن تأخذني، في جولة في أنحاء مدينة بروكلين.

«نقوم بالجولة، يوم الإثنين»، قالتْ. «أنا لا أعمل أيام الإثنين».

«ما هو عملك؟».

«لديّ صالون حلاقة».

«شعرُكِ جميلٌ» قلتُ. وضعتْ يدَها على شعرها وقالتْ «أوه، هذا!» وكأنّما لم تكن تعيرهُ أدنى اهتمام. ليس شعرها فقط، المرفوع فوق قمة رأسها، بعلوّ أفريقي طبيعي، ما وجدته جميلاً فيها، بل بشرتها التي تبدو بلون لبّ الجوز، وعيناها الغرائبيتان، ذواتا الرموش الكثيفة، وشفتاها المرسومتان. كانت الموسيقى التي نستمع إليها عالية، وبالتالي توجّب علينا أن نرفع أصواتنا قليلاً أثناء الكلام.

«هل تعلمين أن اختي تعمل مديرة في محلات ميسي»، قالت. «إنهم يعينون موظّفين للعمل خلف صندوق البيع، من مستوى الدخول، في قسم النساء، وبالتالي إذا كان لديك أي اهتمام، أستطيع أن أكلّمها من أجلكِ، واضمنُ أنكِ سوف تُقبلين. إنّها مدينة لي بواحدة».

شيءٌ قفز في داخلي لمجرد التفكير، الفجائي والجديد، بكسب قوت يومي بنفسي. نقودي أنا.

«لم أحصل على إذن بالعمل بعد».

«لكن ديف تقدّم إليكِ بطلب؟».

«نعم».

«لا ينبغي أن يأخذ وقتاً طويلاً. على الأقل يجب أن تحصلي عليه

قبل الشتاء. لديّ صديقة، من هايتي، حصلت على إذن للتوّ. أتمنّى أن تخبريني في اللّحظة التي تحصلين فيها عليه».

«شكراً لكِ». أردتُ أن أعانق نيا. «شكراً لكِ».

في ذلك المساء أخبرتُ زوجي الجديد عن نيا. كانت عيناه غائرتين من التعب، بعد ساعات طويلة من العمل. قال «نيا؟» كأنما لم يفهم ما كنتُ أقصد، قبل أن يضيف، «فتاة لابأس بها، ولكن يجب أن تأخذي حذركِ، لأنها يمكن أن تمارس تأثيراً سلبياً».

بدأت نيا تزورني بعد انتهاء عملها، وتشربُ من علبة صودا دايت، تجلبها معها، وتشاهدني أطبخ. كنتُ أطفئ مكيّفَ الهواء، وأفتحُ النّافذة، لأسمح للهواء الساخن بالدخول، لكي تستطيع أن تدخّنَ سيجارتها. كانت تتحدّثُ عن النسوة اللواتي يزرنها في صالونها، والرّجال الذين تخرجُ معهم. وكانت تبهّرُ حديثَها اليوميَّ بكلماتٍ داعرة من مثل الاسم «بظر» والفعل «ناك». كنتُ أحبّ الاستماع إليها. وأحبُّ الطريقةَ التي تبتسم بها لكي تظهر سنّاً منحوتاً بأناقة، ومثلثاً كاملاً، مفقوداً على الحافّة. كانت دائماً تغادرُ قبل أن يعودَ زوجي الجديد من عمله.

ثم زحف الشتاء على حين غرّة. ذات صباحٍ، فتحتُ الباب، وخرجتُ إلى الشارع، وبدأتُ ألهثُ. بدا الجوّ كأنّ الله يمزّق نتفاً من منديلٍ ورقي أبيض، ويرمي بها باتجاه الأسفل. وقفتُ أحدّقُ بالثلج الذي أراه للمرة الأولى، وبالندف المتلألئة، ومكثتُ لفترة طويلة، طويلة، قبل أن أقرّرَ العودةَ، والدخول إلى مبنى السكن. مسحتُ أرض المطبخِ من جديد، وقصصتُ بطاقات التوفير من فهرس «كي فود»، الخاصّة بخسومات التسوّقِ، التي أتتني بالبريد، ثم جلستُ خلف النافذة، أشاهدُ قصاصات الله البيضاء تهطلُ بشراسةٍ أكبر. ها قد أتى الشتاء، وأنا ما زلتُ بلا عمل. عندما عادَ زوجي إلى البيت، في المساء، وضعتُ وجبة البطاطا المقلية، والفروج المقلي أمامه، وقلتُ، «ظننتُ أنه آن الأوان لكي أحصل على إذن عمل».

تناول عدداً من قطع البطاطا المغطّسة بالزّيت، قبل أن يجيب. كنّا نتحدث الإنكليزية فقط. لم يكن يعلم أنني كنتُ أتكلّمُ إغبو مع نفسي، وأنا أطبخُ، وعلّمتُ، نيا، كيف تقول «أنا جائعة» و«نلتقي غداً» بلغة إغبو.

«المرأةُ الأمريكيةُ التي تزوّجتُها للحصولِ على غرين كارد بدأتْ تثيرُ المشاكلَ،» قال، ثم، ببطءٍ، قسَمَ قطعةَ الفرّوج إلى نصفين. المنطقة التي تحيطُ بعينيه بدتْ منتفخةً. «طلاقُنا بات بحكم المبرم تقريباً، لكنّه ليس كاملاً، قبل أن أتزوجكِ في نيجيريا. إنه أمرٌ ثانوي، لكنها عرفت به، والآن هي تهدّدُ بإخبار قسم الهجرة عنّي. إنها تريدُ المزيدَ من المال».

«كنتَ متزوجاً من قبل؟» أمسكتُ بأصابعي، لأنّها كانت قد بدأتْ ترتجف.

«هلاّ أعطيتني ذاك الابريقَ، من فضلك؟» سألني، مشيراً بيده إلى عصير الليمون الذي كنتُ قد حضّرْتُهُ من قبل.

«الإبريق؟».

«الجرّة. الأميركيون يسمّونه الجرّة، وليس الإبريق».

دفعتُ الإبريق (الجرة) باتجاهه. الهديرُ يعلو في رأسي، صاخباً، مالئاً أذني بسائلٍ حارّ. «كنتَ متزوّجاً من قبل؟».

«زواجٌ على الورق فحسب. الكثير من أهلنا يفعلون ذلك هنا. إنه شكل من أشكال التجارة. تدفعين مالاً للمرأة، وتوافق على إجراء معاملات التسجيل معك، وأحياناً لا تمشي الأمور على ما يرام، فإما أنها ترفض طلب الطلاق، أو تقرّرُ ابتزازك بالمزيد من المال».

سحبتُ بطاقات التوفير باتجاهي، وبدأتُ أقطّعها نصفين، نصفين، الواحدة تلو الأخرى. «أوفوديل، كان عليكَ أن تُعلمَني بذلك، قبل الآن».

هَزَّ كتفيه. «كنتُ سأخبركِ».

«أستحقُّ أن أعرفَ قبل أن نعقدَ زواجَنا». غطستُ في الكرسي، قبالته، ببطءٍ، وكأنّ الكرسيّ سوف يتصدّعُ، إذا لم أتصدّعْ أنا.

«حتّى لو عرفتِ، لن يحدث أيَّ اختلافٍ. عمُّكِ وعمّتكِ كانا قد

اتّخذا القرار. هل كنتِ ستقولين لا، للنّاس الذين سهروا على تربيتكِ، منذ أن توفي والدكِ؟».

حدّقتُ فيه بصمتٍ، وأنا أمزّقُ بطاقاتِ التّوفير، إلى قطع أصغر فأصغر. صورٌ ممزقةٌ خاصّة بمسحوق الغسيل، وعلب اللّحمة، والمناديل الورقية، سقطتْ، تباعاً، على الأرض.

«أضف إلى ذلك، إذا أخذنا بعين الاعتبار الوضع السيئ في بلادنا، ماذا كان بوسعكِ أن تفعلي؟» سأل. «أليسَ الطلاّب، من حملة شهادات الماجستير، بلا عمل، يجوبون الشّوارعَ على غير هدىً؟» نبرةُ صوته تبدّلتْ.

«لماذا تزوجتني؟» سألتُ.

«كنتُ أبحثُ عن زوجةٍ نيجيريةٍ، وأمّي قالت إنك فتاة طيبة، وهادئة. وقالتْ أيضاً إنك ما زلتِ عذراء، ربّما؟» قال مبتسماً. إنه يبدو مرهقاً أكثر حين يبتسم. «ينبغي، على الأرجح، أن أعلمها أنّها لم تكن على صواب».

رميتُ قصاصات أكثر على الأرض، ثم شبكتُ يديّ، معاً، وغرزتُ أظافري في جسدي.

«حين رأيتُ صورتَكِ، شعرتُ بالسّعادة»، قال، قاضماً شفتيه. «لون بشرتكِ فاتحٌ. وفكّرتُ كيف ستكون ملامح أطفالي. السودُ، من ذوي البشرة الفاتحة، أمامهم فرصة أكبر للنجاح في أمريكا».

راقبتهُ يأكلُ بقية الفروجِ، المطلي بالزبدة، ولاحظتُ أنه قبل أن ينهي المضغَ، كان يحتسي رشفةً من الماء.

في ذلك المساء، وبينما كان يستحمّ، وضعتُ فقط، داخل حقيبة الملابس، الأشياء التي لم يشترها لي: فستانان مزركشان، وقفطان واحدٌ، وجميعها ملابس عمّتي، آدا، التي لم تكنْ تلبسها، وذهبتُ إلى شقّة نيا.

أعدّت نيا لي الشّاي، بالحليب والسكّر، وجلستْ معي حول طاولة الأكل المستديرة، التي تحيطُ بها ثلاثة كراسٍ عاليةُ المقاعد.

«إذا أردتِ أن تتصلي بعائلتك في نيجيريا، يمكنك أن تتصلي بهم من هنا. يمكنك أن تتكلّمي ما شئتِ من الوقت. سوف أتدبّر خطّةً للدفعِ مع شركة بيل أتلانتيك».

«لا أحد هناك أتحدّثُ إليه،» قلتُ، وأنا أحدّق بوجه التمثال، الذي يشبهُ الخوخة، فوق الرفّ الخشبي. عيناه الخاويتان راحتا تبادلانني النظرات.

«ماذا عن عمتك؟» سألتْ نيا.

هززتُ برأسي. تركتِ زوجكِ؟ عمّتي، آدا، سوف تصرخُ. هل فقدتِ عقلكِ؟ هل يرمي المرءُ بيضَ طيرِ الحبش الذّهبي؟ هل تعلمين كم من النساء هناك، مستعدات لكي يعطين عيونهنّ إلى طبيبٍ في أمريكا؟ بل لأيّ زوجٍ على الإطلاق؟ وعمّي، إيكي، سوف يذكّرني بجحودي، وغبائي، عاقداً قبضتَه ووجهَه، قبل أن يغلق السماعة في وجهي.

«كان يجب أن يخبركِ عن زواجه، لكنه لم يكن زواجاً حقيقياً، تشينازا؟» قالت نيا. قرأتُ كتاباً يقول نحن لا نقع في الحب، بل نتسلّق إلى الحبّ. ربمّا لو أعطيته وقتاً-»

«لا علاقة للأمر بهذا».

«أعرف» قالت نيا متنهّدة. «أحاول أن أكون إيجابية، فحسب. هل كانت تربطك أي علاقة مع أحدهم في نيجيريا؟».

«أحببتُ واحداً، ذات مرة، لكنه كان صغير السنّ، ولا يملكُ أيّ مالٍ».

«يبدو أنه كان تعيساً حقاً».

حركتُ كأس الشاي، مع أنها لم تكن حقاً بحاجة إلى تحريك. «أستَغربُ لماذا أراد زوجي البحث عن زوجة في نيجيريا؟».

«لا تذكرين اسمه أبداً، لا تقولين ديف أبداً. هل هذا شيء طبيعي؟».

«كلاّ». نظرتُ إلى غطاء الطاولة، المصنوع من مادة مضادّة للماء. كنتُ أريدُ أن أقول إنني لا أعرفُ اسمَه، إنّني لا أعرفه.

«هل سبق أن قابلتِ المرأة التي تزوّجَها؟ وهل تعرفين أياً من صديقاتِه؟» سألتُ.

أشاحتْ، نيا، بوجهها بعيداً. تلك الاستدارة المسرحية للرأس الذي يحكي- وينوي أن يحكي- فيضاً من المعاني. امتدّ الصمتُ بيننا فترة ليست بالقصيرة.

«نيا؟» سألتُ أخيراً.

«نمتُ معه، قبل عامين تقريباً، بعيد سكناه هنا. نمتُ معه، وبعد أسبوع انتهى كلّ شيء. لم نخرج معاً ثانيةً. ولم أرهُ يخرجُ مع أحدٍ آخر أبداً».

«أوه» قلتُ، وأخذتُ رشفةً من الشّاي، بالحليب والسكّر.

«أردتُ أن أكون صادقةً معكِ، وأحكي لكِ عن كلّ شيء».

«نعم»، قلتُ. ونهضتُ لأنظرَ من النافذة. بدا العالمُ في الخارج، محنّطاً، في هيئةِ صفحةٍ من البياضِ المطلق. الأرصفةُ مغطّاة بأكوام الثلج، يصل ارتفاعها طول طفلٍ في السادسة من العمر.

«يمكن أن تنتظري حتى تحصلي على أوراقكِ ثم، عندئذ تفكرين بالمغادرة»، قالت نيا. «يمكنكِ أن تطلبي المعونة حتّى تتدبّري أمركِ، وتجدي عملاً، وتستأجري منزلاً، وتعيلي نفسكِ، وتنطلقي من جديد. إنّها الولايات المتحدة الأمريكية، بحقّ السماء».

اقتربت نيا، ووقفت قربي، خلف النافذة. كانت على حقّ. لا ينبغي أن أغادرَ الآن. عدتُ أدراجي، عبر الرّدهة ذاتها، في المساء التالي. ضغطتُ الجرسَ، وفتحَ، هو، لي البابَ، ووقف جانباً، وسمحَ لي بالمرور.

الغدُ بعيدٌ جدّاً

إنه الصّيف الأخير الذي أمضيتِهِ في نيجيريا، الصيف الذي سبق طلاقَ أبويكِ، قبل أن تُقسم أمّكِ، أنك لن تضعي قدماً في نيجيريا، ثانيةً، لرؤية أهلِ والدكِ، وبخاصّة جدّتكِ. تتذكّرين حرارة ذاك الصّيف بوضوح، حتى الآن، بعد مضي ثمانية عشر عاماً - كيف كانت باحة منزل جدّتك رطبةً وحارّة، باحة بأشجار كثيرة، حتى أنّ أسلاك الهاتف علقتْ بين الأوراق، والأغصانُ تشابكتْ، بعضُها ببعض، وثمر المانغا كان يظهر على شجر الجوافة، وثمر الجوّافة يظهرُ على شجر المانغا. كنتِ تشعرين بأنّ السجّادة السميكة من الأوراق المتعفّنة زلقةٌ تحت قدميكِ الحافيتين. في ساعات ما بعد الظهيرة، يطنُّ النحلُ، ببطونه الصفراء، حول رأسكِ، ورأسِ شقيقكِ نونسو، ورأس ابنِ عمّتكِ، دوزي، وفي الأماسي، كانت جدّتك تسمحُ فقط لشقيقك، نونسو، بالصعودِ إلى أعالي الشجر، كي يهزّ غصناً مثقلاً بالثمار، رغم أنكِ كنتِ أبرع منه في التسلّق. ثم تمطر الثمارُ فوق الرؤوس، الأفوكادو والكاجو والجوافة، وتقومين أنتِ، مع ابن عمّتكِ، دوزي، بملء الدلاء منها.

إنّه الصّيفُ الذي علّمتْ فيه جدّتك شقيقَك، نونسو، كيف يقطفُ جوزَ الهند. شجرُة جوز الهند صعبة التسلّق، فأغصانها طليقة، وجذعها باسقٌ، وجدّتكِ أعطت نونسو عصاً طويلةً، وشرحتْ له كيف ينتزعُ الثمارَ الصّلدةَ، ويُسقطها أرضاً. لكنّها لم تشرح لكِ شيئاً، لأنها قالت إنّ الفتيات لا يقطفْن جوز الهند أبداً. كانت جدّتي تكسرُ، بعناية، جوزة

الهند، عبر ضربها فوق صخرة قاسية، بحيث تُبقي السّائلَ الحليبي داخل القشرة السفلية، أو الفنجان الخشبي. كان الجميعُ يأخذ رشفةً من ذاك الحليب الحلو، المبرّدِ بالرّيح، حتى الأطفال، العابرون في الشارع، الذين أتوا ليلعبوا، وكانت جدّتكِ تشرفُ بنفسها على ذاك الطقس، من أجل أن تتأكّد أن نونسو هو الأوّل الذي ينالُ شرفَ الرّشفةِ الأولى.

إنه الصيف الذي سألتِ فيه جدّتكِ لماذا يجب أن يحظى نونسو بالرّشفة الأولى، رغم أنّ دوزي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، ويكبرُ نونسو بعامٍ واحد، وجدّتكِ قالت إنه ابنُ ابنِها الوحيد، والحفيد الذي سيحمل اسم عائلة نابويسي، في حين أنّ دوزي ليس كذلك، وهو ابن ابنتِها فحسب. إنه الصيف الذي عثرتِ فيه على جلدِ الأفعى بين العشب، غير مكسورٍ، وشفّافٍ، مثل جرابٍ رقيقٍ، وجدّتكِ قالت لكِ إنّ الأفعى اسمها «إتشي إيتيكا» ويعني «الغد بعيدٌ جدّاً». وقالت إن لدغةً واحدة، منها، تكفي لأن تنتهي الحياة بأقلّ من عشر دقائق.

لكنه لم يكن الصيف الذي وقعتِ فيه في غرام ابن عمّتكِ، دوزي، لأنّ هذا حدث قبل أكثر من صيفٍ مضى، حين كان عمره عشر سنوات، وعمرك سبعاً فقط، ووجدتما مساحة صغيرة، خلف كراج جدّتك، وحاول أن يُدخل ما كنتما قد أسميتماهُ معاً «قرطَ موزه» داخل ما أسميتماهُ معاً «حبّةَ بندورتِكِ»، لكنّكما لم تكونا متأكّدين أين هو الثقب الصّحيح. لكنه، في كلّ حال، كان الصيف الذي عانيتِ فيه من القمل، ورحتِ، أنتِ وابن عمّتك دوزي، تنبشان شعركِ الكثّ، بحثاً عن تلك الحشرات السوداء الناعمة، وتقتلينها بين ظفريكِ، وتضحكين، لدى سماع صوتِ انبجاس الدّم من بطونِها الصغيرة. إنه الصّيف الذي كبرَ فيه كَرهُكِ لشقيقكِ، نونسو، وشعرتِ أنه يضغطُ على أنفاسكِ، في حين أن حبّكِ لابن عمتكِ، دوزي، يحلّق عالياً كالبالون، ويتغلغل إلى مسامات جلدكِ.

إنه الصيف الذي شاهدتِ فيه شجرة المانغا، وهي تنقسم إلى نصفين،

متساويين تقريباً، خلال عاصفة رعديةٍ، حين رسم البرقُ خطوطاً مشتعلةً في كبدِ السماء.

إنه الصّيف، أيضاً، الذي مات فيه نونسو.

جدّتكِ لم تكنْ تسمّيهِ صيفاً. ولا أحدَ في نيجيريا يسمّيهِ كذلك. إنه شهر آب، المحاصر بين الفصلِ الماطر وموسم الرّياحِ الصحراوية، إذ يمكن للسماء أن تمطر طوال النهار، وتهطلُ حباتٌ فضيةٌ، تضربُ الشرفةَ، حيث كنتِ تطردين، مع نونسو، ودوزي، حشرات البرغش، وتأكلين الذرةَ المشويةَ. وقد تكون الشّمسُ في أوج توهّجها، حتى أنها قد تسبّبُ العمى، وتذهبين، أنتِ، للسباحة، في خزّان الماء الذي قسمته جدتك إلى نصفين، كي تشكّلَ بركةً اصطناعيةً. اليوم الذي مات فيه نونسو كان يوماً معتدلاً، حيث سقطَ رذاذٌ خفيفٌ في الصّباح، واشتدتْ حرارةُ الشّمسِ، بعد الظهرِ، وفي المساء، وقعَتْ حادثةُ نونسو. جدّتكِ صرختْ تناديه – تنادي جسدَهُ الهامدَ– قائلةً، «لقد غدرْت بي»، أو أنه خانَها، ولم يبق أحدٌ، الآن، ليحملَ اسمَ عائلة نابويسي، أو يحمي ذرية العائلة.

تدفق الجيرانُ إلى المنزل، حين سمعوا صراخَها. المرأةُ التي تقطن في البيتِ الذي يقع إلى جانب الطريق – المرأة التي يبحثُ كلبُها في حاويةِ جدّتكِ، كلَّ صباحٍ– هي المرأةُ التي انتزعت الرّقمَ الأمريكيّ من بين شفتيكِ المخدّرتين، واتّصلتْ بأمّكِ. إنها أيضاً تلك الجارة التي فكّت تشابكَ يديكِ عن يديّ دوزي، وجعلتْكما تجلسان، وأعطتْكما بعض الماء. الجارةُ أيضاً حاولت أن تضمّكِ إلى صدرها بقوّة، كي لا تسمعي صوتَ جدّتكِ وهي تتحدّثُ إلى والدتكِ على الهاتف، لكنّكِ نجحتِ بالإفلات من تلك المرأة، واقتربْتِ أكثر من الهاتف. جدّتكِ وأمّك كانتا تركّزان على جثّة نونسو، وليس على موتِهِ. أمّكِ تصرّ بأن يُنقل جثمانُ نونسو حالاً إلى أمريكا، وجدّتكِ تردّدُ كلامَ أمّكِ، وتهزّ برأسِها. كان الجنونُ جاثماً في عينيها.

كنتِ تعرفين أنّ جدّتكِ لم تحبّ، يوماً، أمَّكِ. (سمعتِ جدّتكِ تقول هذا منذ أكثر من صيفٍ مضى، إلى إحدى صديقاتها - تلك المرأة الأمريكية السوداء، وضعت الأغلال في يديّ ولدي، ووضع هو المفتاح في جيبها.) لكن، حين شاهدتِ جدّتكِ على الهاتف، فهمتِ أنّها ووالدتكِ متّحدتان. كنتِ متأكّدة أنّ في عيني أمّك ذاك الجنون الأحمر ذاته.

حين تحدّثتِ إلى أمّكِ، بدا صوتها على الهاتف مختلفاً، كما لم يبد قط من قبل، خلال كلّ تلك السنوات، منذ أن بدأتِ، أنتِ ونونسو، تمضيان عطلَ الصيف مع جدّتكِ. هل أنتِ بخير؟ ظلّت تسألكِ. هل أنتِ بخير؟ بدتْ خائفةً، وكأنّ الشكّ قد ساورها بأنّكِ على ما يرام، بالرّغم من موت نونسو. لعبتِ بسلك الهاتفِ، وقلتِ القليل. قالتْ إنها سوف تخبرُ والدكِ بالأمر، بالرّغم من أنّه موجودٌ في مكان ما، في الغابات، يحضرُ مهرجاناً للفنون السوداء، حيث لا هاتفَ ولا إذاعات. وأخيراً شهقت بالبكاء شهقةً تشبهُ نباح الكلب، قبل أن تقولَ لكِ إنّ كلّ شيءٍ سيكونُ على ما يُرام، وإنها ستقومُ بإجراءات نقلِ جثمان نونسو، وإعادته على متن الطّائرة. هذا جعلكِ تفكّرينَ بضحكتها، ضحكة «هوْ، هوْ، هوْ»، التي تبدأ عميقاً من بطنها، ولا تصير أكثر نعومةً، حين تخرجُ إلى العلن، ولا تناسبُ جسدَها الرشيق كالصفصاف أبداً. حين كانت تدخلُ إلى غرفة نونسو، وتتمنّى له ليلةً طيّبةً، ودائماً تخرجُ، وهي تضحكُ تلك الضحكة. في كثيرٍ من الأحيان، كنتِ تغلقين أذنيكِ بيديكِ، كيلا تسمعي ذاك الصوت، وتُبقي راحتيكِ فوق أذنيكِ حتى عندما كانت تدخلُ إلى غرفتكِ، لتقولَ لكِ ليلةً طيبةً، يا عزيزتي، ولتنامي نوماً هانئاً. لم تغادرْ غرفتكِ يوماً وهي تضحكُ الضحكةَ ذاتَها.

بعد تلك المكالمة، استلقتْ جدتي، على ظهرها، فوق رخام الغرفة. عيناها لا ترمشان، وتدوران من جانبٍ إلى جانبٍ، كأنّها كانت تلعبُ واحدةً من ألعابِها المسلّية. قالت من الخطأ نقل جثمان نونسو بالطائرة، وإعادته إلى أمريكا، وبأنّ روحه ستظلّ أبداً ترفرفُ هنا. إنه ينتمي إلى

هذه الأرضِ الكأداء، التي فشلتْ بامتصاصِ صدمةِ سقوطِهِ. إنه ينتمي للأشجار، هنا، فإحداها تركتْهُ يقعُ من أعلاها. جلستِ، ورحتِ تراقبينها، وفي البداية وددْتِ لو أنّها تنهضُ وتأخذكِ بين ذراعيها، ثم وددْتِ لو أنّها لا تفعلُ هذا البتّةَ.

ثماني عشرة سنة مضت، والأشجارُ في باحة بيت جدّتكِ لم تتغير. ظلّت أغصانها الفارعة تمتدّ، وتشتبكُ مع أغصانٍ أخرى، وظلّتْ تُرخي بظلالها فوق أرضية المنزل. بيدَ أنّ كلّ شيءٍ آخر بدا صغيراً: المنزلُ، والحديقةُ في الخلف، وخزان الماء المطلي بالنحاس منعاً للصدأ. حتى قبر جدّتي، في الباحة الخلفية، بدا أكثر صغراً، وتخيلتِ أنّ جسدها تقلّص وانكمشَ كي يحتويه تابوتٌ صغير. القبرُ مغطّى بطبقة رقيقة من الأسمنت، والتربة حوله محفورة، حديثاً، ووقفتِ بمحاذاته، وتصوّرتِ ماذا يمكن أن يؤول إليه حالُه بعد عشر سنواتٍ من الآن، وكيف أنّ الأعشاب البرية، الشعثاء، سوف تغطّي الأسمنتَ، وتخنقُ القبرَ.

ابنُ عمّتكِ، دوزي، يراقبُكِ. في المطار، عانقَكِ، بحذرٍ، وقال أهلاً وسهلاً، ويا لها من مفاجأة، أنك قررت العودة، وأنتِ حدّقتِ في وجهه، لوقت طويل، داخل المسار المزدحمِ، المتحرّك، حتى أشاح بوجهه. عيناه بنيتان، وحزينتان، مثل كلب صديقتِكِ. لم تكوني تحتاجي لتلك النظرة كي تعرفي أن السرّ عن كيف مات نونسو، كان دائماً في مأمنٍ مع دوزي. حين قاد السيارة، متجهاً إلى بيت جدتكِ، سألكِ عن أمّكِ، وقلت له إنها تعيش في كاليفورنيا، الآن. لم تذكري له أنها التحقتْ بتعاونية، مع أناسٍ حليقي الرؤوس، بأثداء مثقّبة بالحلق، أو أنك، حين تتصلُ بكِ، هاتفياً، تغلقين الخطّ في وجهها، بينما تكون في منتصف حديثها معك.

تنتقلين إلى شجرة الأفوكادو. ما يزال دوزي يراقبكِ، وأنتِ تنظرين إليه، وتحاولين أن تتذكّري الحبّ الذي ملأ حياتك، في ذاك الصيف، حين كنتِ ما زلتِ في العاشرة، وجعلكِ تتمسّكين بيده، في الظهيرة التي

تلتْ موتَ نونسو، حين اقتربت أمّ دوزي، عمتك، مغابي تشيبليجي، وسحبتهُ بعيداً. ثمة حزنٌ لطيفٌ في التجاعيد حول جبهته، وكآبة في الطريقة التي يقفُ بها، وذراعاه مبسوطتان على جنبيه. فجأةً تساءلتِ، في سرّكِ، إن كان قد اشتاق إليكِ، مثلما اشتقتِ إليه. لم تكن لديك أدنى فكرة عمّا يكمنُ خلف ابتسامته الهادئة، وخلف الأوقات التي كان يجلسُ فيها ساكناً، ويحطُّ ذباب الفواكه حول ذراعيه، وخلف الصّورِ التي أعطاكِ إياها، وخلف العصافير التي كان يربيها في أقفاصٍ خشبية، وظلّ يلاعبها حتى فارقت الحياة. وتساءلتِ، في سرّكِ، إن كان يشعرُ، هذا إذا شعرَ، بأنّه الحفيد الخاطئ، وذاك الوحيد الذي لا يحملُ اسمَ عائلةِ نابويسي.

تمدّين ذراعيكِ كي تلمسي شجرةَ الأفوكادو، في تلك اللحظة التي بدأ دوزي يقول شيئاً، وتشعرين بالفزع لأنك خشيتِ أنه يريدُ أن يفتحَ موضوع موتِ نونسو، لكنّه قال لكِ إنه لم يكن ليتخيل أنّكِ ستعودين، يوماً، وتودّعين جدتكِ، لأنه كان يعلم كم كنتِ تكرهينها. تلك الكلمة - كراهية- تعلقُ في الهواء، بينكما، مثل اتهام. تريدين أن تقولي إنه حين اتصل بكِ إلى نيويورك، وهي المرة الأولى التي تسمعين فيها صوته منذ ثمانية عشر عاماً، كي يخبركِ أن جدّتك ماتت- ظننتُ أنكِ ترغبين بمعرفة الخبر، كانت تلك كلماته - انحنيتِ فوق مقعدِ مكتبكِ، تشعرين بأن ساقيك تذوبان، وأنّ حياةً كاملةً من الصمتِ تتهاوى، وأنك لم تكوني تفكرين بجدتكِ، بل بشقيقك نونسو، وبه، دوزي، وبشجرة الأفوكادو، وبذاك الصيف الرطب في المملكة اللاأخلاقية لطفولتك، وبكلّ الأشياء التي لم تكوني تسمحين لنفسك بالتفكير بها، وبأنّك صرتِ رقيقةً كورقة على وشك أن تطير.

لكن، عوضاً عن ذلك، تضغطين بيديك، وبقوة، على الجذع القاسي للشّجرة. الألمُ يهدّئ من روعكِ. تتذكّرين كيف أكلتِ الأفوكادو. كنتِ تفضلينها مع الملح، ونونسو لم يكن يحبّ الملح، وكانت جدّتك

تضحكُ، دائماً، وتقولُ لكِ إنّك لا تعرفين ما هو الطيّب حين قلتِ إنّ الأفوكادو، من دون ملح، تجعلكِ تشعرين بالغثيان.

في جنازة نونسو، وداخل مقبرة باردة، في ولاية فيرجينا، حيث شواهد القبور تنظرُ إليكِ بفظاظة، كانت والدتكِ ترتدي الأسود الخافتَ، من رأسها حتى أخمص قدميها، بل وترتدي النقاب أيضاً، ما جعلَ بشرتها، التي بلون القرفة، تشعُّ وتتألّق. والدكِ وقف بعيداً عنكما، كليكما، ببذته المعتادة، والشال الأبيض النّاصع، ملفوفاً حول عنقه. لقد بدا كأنه ليس من أفراد العائلة، كأنه أحد الضيوف، يتنفّس بصوتٍ عالٍ، ولاحقاً، يسألُ والدتكِ، بصوتٍ مبحوح، أن تخبره كيف مات نونسو، على وجه الدقّة، وكيف سقط من أعلى تلك الشجرة التي اعتادَ أن يتسلّق أغصانهَا منذ كان طفلاً يحبو.

أمك لم تقل شيئاً لجميع الناس الذين طرحوا عليها الأسئلة. ولم تقل شيئاً لكِ، عن نونسو، حتى عندما نظّفتْ غرفته، وحزمتْ أمتعته.لم تسألكِ إنْ كنتِ تريدين الاحتفاظ بأي شيءٍ كتذكارٍ، وشعرتِ بالارتياح، جراء ذلك. لم تكوني تريدين أياً من كتبه، أو دفاتره المكتوبة بخطّ يده، الأكثر أناقةً من طباعة الآلة الكاتبة، كما كانت تقولُ أمكِ. لم تكوني تريدين الاحتفاظ بصوره الفوتوغرافية التي التقطها للحمَام في الحديقة العامّة، والتي تُظهِرُ، كما ترى أمُّكِ، موهبةً مبشّرةً لطفلٍ في مثلِ سنّهِ. لم تكوني تريدين الاحتفاظ برسوماته، التي هي نسخٌ طبَق الأصل عن رسومات ووالدك، ولكن بألوانٍ مختلفة. أو ثيابه. أو الطّوابع التي كان مغرماً بجمعها.

أخيراً، أثارتْ أمّكِ موضوع نونسو، بعد ثلاثة أشهرٍ من مراسيم الجنازة، حين أخبرتْكِ عن الطلاق من والدكِ. قالت إنّ الطلاق لا علاقة له بحادثة نونسو، بل إنها هي ووالدك، يزدادان نأياً عن بعضهما منذ وقتٍ طويلٍ.(والدكِ كان في زنجبار حينها، وقد غادر مباشرةً بعد حضور جنازةِ نونسو). ثم سألتكِ أمّكِ: كيف مات نونسو؟

ما زلتِ لا تعرفين كيف تهادتْ تلك الكلماتُ من فمكِ. ما زلتِ لا تدركين تلك الطفلة، ذات العينين الصافيتين، التي كانت أنتِ. ربما لأنها قالت إنّ الطلاق لا علاقة له بموت نونسو - وكأنّ نونسو هو الوحيد القادر على أن يكون سبباً، وكأنّكِ أنتِ خارج كلّ الحسابات. أو ربّما لأنّكِ، ببساطة، شعرتِ بتلك الرغبة الجامحة، التي ما زلتِ تشعرين بها أحياناً، تلك الحاجة لإخفاء التجاعيد، وتسوية الأشياء التي ترينها نافرةً أكثر من المعتاد. قلتِ لأمّكِ، بنبرةٍ متردّدةٍ، لكنها مناسبة جداً، إنّ جدّتكِ طلبت من نونسو أن يصعدَ إلى أعلى غصنٍ من شجرة الأفوكادو، لكي يُظهر لها أيّ نوعٍ من الرّجال هو. ثم قامتِ بإخافتِهِ - كانت مجرّد مزحة، أكّدتِ لوالدتكِ- حين قالت له ثمة أفعى، تلك التي يلقّبونها «إتشي إيتيكا» أو «الغدُ بعيدٌ جدّاً»، على الغصنِ الذي بقربه. طلبتْ منه ألا يتزحزح. لكنّه، بالطبع، تحرّكَ من مكانِهِ، وسقطَ عن الغصن، وحين لامسَ الأرض، كان صوتُ سقوطِهِ يشبهُ سقوطَ جمهرةٍ من الثمارِ دفعةً واحدةً. اصطدامٌ حياديُ، نهائيٌّ، بالأرض. وقفت جدّتي قربه، وراحت تحدّقُ به، ثم بدأت تصيحُ كيف أنه حفيدها الوحيد، وأنّه خانَ نسلَ العائلة بموتِهِ، وكيف أنّ الأجدادَ سينزعجون في قبورهم. كان ما يزالُ يتنفّسُ، قلتِ لأمّكِ. كان ما يزالُ يتنفّس حين سقط، لكنّ جدّتكِ وقفتْ هناك، وظلت تصرخُ فوق جسدِهِ المحطّمِ حتى مات.

وبدأتْ أمُّكِ تصرخُ. وتساءلتِ إن كان الناسُ عادةً يصرخون بتلك الحدّة حين يريدون أن يرفضوا الحقيقة. كانت أمّكِ تعرفُ جيّداً أنّ رأسَ نونسو اصطدم بصخرة، ومات على الفور - لقد رأت جثّته، ورأتْ رأسَه المهشّمَ. لكنها اختارت أن تعتقد بأنّ نونسو كان على قيد الحياة، حتى بعد سقوطِهِ. صرخت، وبكت، ولعنت اليومَ الذي وقع فيه بصرُها على والدكِ، خلال أوّل معرضٍ للرّسم كان يقيمُهُ. ثمّ اتصلتْ به، وسمعتِها تصرخُ في وجهه على الهاتف: أمّكَ هي المسؤولةُ! أخافتْهُ وجعلتْهُ

يسقطُ! وكان بإمكانها أن تفعل شيئاً ما لإنقاذه، لكنها اختارت أن تقفَ هناك، مثل صنمٍ أفريقي معتوهٍ، وتركَتْهُ يموت!

تحدّث أبوكِ معكِ، لاحقاً، وقال إنه يفهم كم كان الأمر صعباً بالنسبة إليكِ، ولكن كان عليكِ أن تكوني أكثر حذراً كي لا تتسبّبي بالمزيد من الألم. وفكّرتِ كثيراً بكلماتِهِ - كوني حذرةً في ما تقولين - وتساءلتِ في سرّكِ إن كان يدري أنّك كنتِ تكذبين.

ذاك الصيف، قبل ثمانية عشر عاماً، كان صيفُ إدراككِ لذاتكِ، لأوّل مرة. الصيف الذي عرفتِ فيه أنّ شيئاً ما ينبغي أن يحدثَ لشقيقكِ، نونسو، كي تحقّقي، أنتِ، النجاة. حتى في سنّ العاشرة، كنتِ تدركين أن بعض الناس يحتلّون حجماً كبيراً، بمجرّد أن يكونوا موجودين، وبمحض هذا الوجود، بعضُ النّاسِ يمكن أن يخنقوا أناساً آخرين. إنّ فكرةَ إخافةِ نونسو بأفعى «إتشي، إيتيكا» أو «الغد بعيدٌ جداً» كانت فكرتكِ وحدكِ. لكنّكِ قمتِ بشرحها لابن عمتكِ، دوزي، وكان كلاكما يريدُ إيقاع الأذى بنونسو- ربّما إعطابه، أو كسر ساقيه. كنتِ تريدين أن تشوّهي كمالَ جسدِهِ الرّشيق، وتجعلي حبّ الآخرين له أقلّ سطوةً، وأن يكون، هو، أقلّ قدرةً على فعلِ كلّ ما كان يفعلُهُ، وأقلّ قدرةً على احتلالِ فضائكِ. دوزي لم يقلْ شيئاً، بل رسمَ صورةً لكِ، وأظهرَ عينيكِ في شكلِ نجمتين.

كانت جدّتكِ في الدّاخل، مشغولةً بالطَهي، ودوزي يقفُ صامتاً بجانبكِ، كتفه يلامسُ كتفكِ، حين اقترحتِ أن يتسلّقَ نونسو أعلى شجرة الأفوكادو. كان من السّهلِ جعلهُ يفعلُ ذلك. إذ يكفي فقط أن تذكّريهِ بأنّكِ أفضل منه في التسلّق. وأنتِ، حقّاً، متسلّقةٌ أكثر براعةً منه، وكان بإمكانك أن تتسلّقي الشّجرةَ، أي شجرةٍ، خلال ثوانٍ معدودةٍ فقط - كنتِ الأفضلَ في الأشياء التي لا تحتاجُ إلى تعليم، تلك الأشياء التي لا تستطيعُ جدّتكِ أنْ تعلّمه إياها. طلبتِ منه أن يصعدَ أولاً، لتري إن

كان قادراً أن يصل إلى أعلى غصنٍ في شجرة الأفوكادو، قبل أن تلحقي به. الأغصانُ ضعيفةٌ، ونونسو أكثرَ ثقلاً منكِ. أكثر ثقلاً بسبب كلِّ ذاك الطّعام الذي كانت تقدّمهُ له جدّتكِ. لتأكلْ، ولو قليلاً بعد، كانت، غالباً، تقولُ له. لمن تظنُّ أنني حضّرتُ الطّعام؟ وكأنكِ لم تكوني موجودة. في بعض الأحيان، كانت تربّت على ظهركِ، وتقول لكِ بلغة إغبو، من الجيّد أنكِ تتعلّمين، يا أمّي، فبهذه الطريقةِ سوف تعتنين بزوجكِ، ذات يوم.

صعدَ نونسو إلى الشجرة. تسلّقَ أعلى فأعلى. انتظرتِ حتّى وصلَ تقريباً إلى أعلى قمة في الشجرة، حين جاءت تلك اللحظة التي ارتعشت فيه ساقاه، قبل أن يصعدَ أعلى بقليل. انتظرتِ من أجل تلك اللّحظة الخاطفة، التي يكون فيها بين حركتين. لحظةٌ مفتوحةٌ، لحظةٌ رأيتِ من خلالها زرقةَ كلِّ شيءٍ، وزرقةَ الحياةِ نفسِها - تلك الزّرقة الصّافية التي رأيتها يوماً في إحدى لوحاتِ والدكِ. زرقةُ الفرصةِ. زرقةُ السّماءِ مغسولة بمطرٍ صباحيٍ مبكّرٍ. ثم صرختِ. «أفعى! إنّها أفعى إيتشي إيتيكا! أفعى!» لم تكوني متأكّدة ما إذا كان يجب أن تقولي إنّ الأفعى على الغصن، قريبة منه، أو إنها تزحف على الجذع. لكن، لم يكن يهمّ، ففي تلك الثواني المعدودات، نظر نونسو باتجاهكِ، نحو الأسفل، وأفلت يداه، وانزلقت قدماه، وصارت ذراعاه طليقتين في الهواء. أو ربّما الشجرة ذاتها لفظتْ نونسو، وأسقطته عن كاهلها.

لا تتذكرين كم مرّ من الوقتِ مرّ وأنتِ تمكثين، هناك، تنظرين إلى نونسو، قبل أن تهرعي وتخبري جدّتكِ. أما دوزي فبقي طوال الوقتِ، صامتاً، بالقرب منكِ.

كلمةُ دوزي - «الكراهية»- تطفو في رأسكِ، الآنَ. كراهية. كراهية. كراهية. الكلمةُ تجعلُ التنفّسَ صعباً، مثلما كان صعباً أن تتنفّسي، وأنتِ تنتظرين كلّ تلك الأشهر، بعد موت نونسو، تنتظرين أمّكِ بأن تنتبهَ بأنّ لكِ صوتاً نقياً كالماء، وساقين رشيقتين كالهواء، وأن تنتهي زياراتُها إلى

حجرتكِ، وكلمات «طابتْ ليلتكِ»، مع تلك الضّحكة المصطنعة «هوْ، هوْ» التي كانت تُطلقها.

دوزي يتحدّثُ، الآنَ، ويخبركِ بأنّه بدأ يحلمُ بنونسو، منذ عدّة سنوات. يحلمُ أحلاماً يبدو فيها نونسو رجلاً أكبر سناً، وأطول قامةً، وتسمعين الثمارَ تقعُ من شجرةٍ قريبةٍ، وتسألينه، من دون أن تستديري برأسكِ، ماذا كنتَ تريدُ في ذلكَ الصيف، ماذا كنتَ تريدُ؟

لا تعرفين متى يتحرّكُ دوزي، ومتى يقفُ خلفكِ، ملتصقاً بكِ حتى أنك تشمّين رائحة الليمون تفوحُ منه، أو ربّما كان يقشّرُ برتقالةً، ونسي أن يغسلَ يديه، فيما بعد. يمسكُ بكِ، ويفتلكِ نحوه، وينظرُ إليكِ، وتنظرين إليه، وتلاحظين خطوطاً ناعمةً تخدّدُ جبهتَه، وقسوةً جديدةً في عينيه. قال لكِ لم يخطرْ ببالِهِ أن يريدَ شيئاً، لأنّ الأهمّ هو ما كنتِ تريدينه، أنتِ. ساد صمتٌ طويلٌ، بينما رحتِ تطاردين بنظراتكِ سربَ النملِ الأسود، يشقّ طريقه، فوق جذع الشجرة، وكلّ نملة تحملُ ذرةً من مسحوقٍ أبيض، راسمةً نسقاً متناغماً من الأبيض والأسود. سألكِ إن كنتِ قد رأيتِ أحلاماً كتلك التي رآها، وقلتِ، لا، بينما عيناك تتحاشيان النظر إلى عينيه، وها هو يشيحُ بوجههِ عنكِ. أردتِ أن تخبريه عن الألم في صدركِ، والخواء في أذنيكِ، والهواءِ العكر الذي أعقبَ مكالمتَه، وعن الأبواب التي تنفتحُ على مصاريعها، وعن الأشياء المسطّحة التي تنتفخُ، بغتةً، لكنّه كان يبتعدُ شيئاً فشيئاً. وأنتِ تبكين، وتنتحبين، وتقفين وحيدةً، تحت شجرة الأفوكادو.

المؤرّخة العنيدة

بعد سنواتٍ من موتِ زوجها، ظلّتْ نوامبغبا تطبقُ جفنيها، بين الفينةِ والفينةِ، وتسترجعُ زياراتِهِ اللّيليةِ إلى كوخِها، والصّباحات التي كانت تعقبُ ذلك، حين كانت تمشي إلى ساقية الماء، وتدندنُ بأغنيةٍ بعيدةٍ، وتفكّر بعبقِ عطرهِ، وثقلِ جسدِهِ القويِّ، وتلكَ الأسرار التي تخبّئها لنفسِها، وشعورها بأنّ الضَّوءَ يحيطُ بها من كلّ جانب. ذكرياتٌ أخرى عن أوبيريكا ظلّتْ واضحةً في خيالها - أصابعه القصيرة والسميكة، المضمومة حول مزماره، حين كان يعزفُ في المساءات، وسعادتُه الغامرة حين كانت تضعُ أمامه صحونَ الطعام، بعد أن يعودَ حاملاً سلالاً مملوءةً بالطّينِ الطريّ، من أجلِ أعمالها الخزفية، بينما وجهه يتصبب عرقاً. ومنذ اللّحظةِ الأولى، التي رأته فيها في مباراة للمصارعة، حيث راح كلاهما يحدّقُ بالآخر، مراراً وتكراراً، وكان كلاهما في ريعان الصبا، ولم يكن خصرها بعدُ، يرتدي زنّاراً، آمنتْ، بما لا يدعو للشكّ، وبعنادٍ هادئ، أنّ طاقةَ الحياة لديها، وطاقة الحياة لديه، جعلتا زواجهما قدراً محتوماً، وبالتالي حين أتى إلى والدها، بعد سنوات لاحقة، حاملاً أباريق فخّارية من نبيذ البلح، يرافقُهُ بعضُ أقاربه، قالت لأمّها هذا هو الرّجل الذي تودّ الزواج منه. أُصيبت أمّها بالصّدمة. ألا تعرف نوامبغبا أنّ أوبيريكا طفلٌ وحيدٌ، وأنّ والده الراحل، كان طفلاً وحيداً أيضاً، وأنّ جميعَ زوجاتِهِ أجهضْن، ودفنّ أطفالهنّ؟ ربّما ارتكبَ أحدٌ في عائلتِهِ الوزرَ الحرامَ، وباعَ ابنتَه للعبودية، وأنّ إلهَ الأرضِ، «آم»، يعاقبُ هؤلاء، بإرسال النّحس إلى ديارهم. لكنّ نوامبغبا تجاهلتْ كلامَ أمّها. ذهبتْ

إلى مصطبة والدها، وأخبرته بأنها سوف تهرب من منزل أيّ رجلٍ آخر، إذا لم يُسمح لها بالزواج من أوبيريكا. أبوها وجد ابنتَه مُرهِقةً للأعصاب، تلك الفتاة العنيدة، السليطة اللّسان، التي طرحتْ، يوماً، شقيقَها أرضاً. (بعد تلك الحادثة أطلق والدها تحذيراً للجميع بأن لا يُسمَح للأخبار بالانتشار، خارج أسوار مجمّع المنزلِ، بأنّ فتاةً طرحتْ صبيّاً أرضاً). والدها، أيضاً، ساورهُ القلق بخصوصِ العقمِ في عائلةِ أوبيريكا، لكنّها لم تكنْ عائلةً سيئةً: فوالدُ أوبيريكا، الراحل، حصل على لقب المعلّم الرّوحي. وأوبيريكا، نفسه، كان قد بدأ للتوّ بتوزيع بذار البطاطا الكبيرة، إلى المزارعين الأجراء. نوامبغبا لن ترتكبَ فعلاً سيئاً بالزّواجِ منه. أضفْ إلى ذلك أنه من الأفضل أن يتركها تذهبُ مع الرّجل الذي اختارتْه، إذ سوف يوفّرُ، على نفسه، سنواتٍ من المتاعب، حين ستظلُّ تتردّدُ إلى المنزل، بعد اصطدامها بأهل زوجها. وبالتالي، أعطى موافقتَه، ورسمتْ نوامبغبا ابتسامةً على شفتيها، ونادتْ والدها بلقبِ التشريفِ الذي يحبّهُ.

ومن أجل أن يدفعَ لها ثمن العروس، حضر أوبيريكا، مع اثنين من أولاد خالتِهِ، وهما أوكافو وأوكوي، اللّذان كانا بمنزلة أخوين بالنسبة له. نوامبغبا احتقرتهما من النظرة الأولى. رأت حسداً غائراً في عينيهما، في تلك الظهيرة التي احتسيا فيها نبيذ البلح، على مصطبة والدها، وفي السنوات التي أعقبت ذلك، أي السنوات التي شهدت حصول أوبيريكا على المزيد من الألقاب، حيث توسّعتْ مساحةُ المجمّع، وبدأ يبيعُ محصوله من البطاطا الكبيرة، إلى غرباء يأتون من أماكن بعيدة، رأتْ حسدهما يزدادُ قتامةً. لكنّها تحملت وجودهما، لأنهما يعنيان الكثير بالنَسبة لزوجها، أوبيريكا، إذ كان يتظاهرُ بأنه لا يلاحظُ أنّهما لا يعملان، بل يأتيان إليه، فقط، من أجل الحصول على البطاطا والدّجاج، ولأنه أيضاً أراد أن يتخيَّلَ أنهما بمنزلة الأخوين له. إنّهما هما اللذان شجّعاهُ على الزّواج من امرأةٍ أخرى، حين مرّتْ بإجهاضِها الثّالث. أوبيريكا

أخبرهما أنه سوف يدرسُ الموضوع، ولكن حين كان، هو ونوامبغبا، وحيدين، في كوخها، ليلاً، قال لها إنه متأكّد أنهما سوف يُرزقان بأطفالٍ كثر، وأنه لن يتزوج من امرأة أخرى، حتى يكبرا معاً، ويصيرا عجوزين، وبالتالي عندئذ، سوف يحتاجان، ربّما، إلى من يعتني بهما. ظنّت أنّ هذا التفكيرَ غريبٌ من قبله. رجلٌ ثريٌّ، مع امرأةٍ واحدة فقط. ساورها قلقٌ أكبر، أكثر منه بكثير، بخصوص عدم إنجاب الأطفال، وبخصوص الأغاني التي كان يغنّيها الناس، بكلمات ملحّنة، لئيمة، يقولُ بعضها: «لقد باعتْ رحمَها. لقد أكلتْ قضيبَه. هو يعزفُ على مزمارِهِ، وهي تقبضُ على ثروتِهِ».

ذات مرة، وأثناء جمهرةٍ في ضوء القمر، حيث كانت السّاحة العامّة تكتظ بالنساء اللّواتي يسردْن الحكايات، ويتعلّمْن رقصاتٍ جديدةً، مجموعة من الفتيات رأين نوامبغبا، وبدأْن يغنّين، وصدورهنّ العدوانية تشيرُ إليها. توقّفت وسألتْ، إذا كان بإمكانهنّ أن يغنّين بصوتٍ أعلى، وبالتالي تستطيع أن تسمع الكلمات، كي تبرهن لهنّ، من منهنّ السلحفاة الكبرى. فما كان منهنّ سوى أن توقّفن عن الغناء. وقد استمتعتْ بخوفهنّ، حين ابتعدْن عنها، لكنّها، عندئذٍ، قرّرتْ أن تبحثَ بنفسها لأوبيركي عن زوجة.

كانت نوامبغبا تحبّ الذّهابَ إلى ساقيةِ «أوي»، حيث تفكُّ دثارها المعقودَ حول خصرها، وتبدأ بالنزول فوق المنحدر، باتجاه التدفّق الفضّي للمياه، التي تنبجسُ من الصّخور. مياهُ ساقيةِ «أوي» أكثر عذوبةً من مياه السّاقية الأخرى، أوغالانيا، أو ربّما كانت نوامبغبا، تشعر بالرّاحة أكثر، هنا، لوجود معبدِ الربّة «أوي»، المبني في زاوية نائية. في صغرها علّموها أنّ «أوي» هي حامية النساء، والسبب الذي يمنعُ المتاجرة بهنّ، أو بيعهنّ للعبودية. أقرب صديقاتها إليها، واسمها آياجو، كانت قد سبقتْها إلى الساقية، وإذ همّتْ نوامبغبا بمساعدتها، لتضع الجرة على

رأسها، طلبتْ من آياجو أن تساعدها في أن تختار زوجةً ثانية صالحةً لزوجها أوبيريكا.

هي وآياجو تربّيا معاً، وتزوّجتا من رجلين من القبيلة نفسها. الفرق بينهما، مع ذلك، هو أنّ آياجو تنحدرُ من سلالة العبيد، فقد تم جلبُ والدها كعبدٍ، بعد الحرب. لم يكن يعني آياجو كثيراً أمرُ زوجها، أوكينوا، الذي يشبهُ الجرذَ، بل وله رائحة الجرذ أيضاً، لكنّ مواهبها أو خصائصها كزوجة، محدودة جداً، إذ لن يتقدّم إلى طلب يدها، أبداً، رجلٌ ينحدرُ من عائلةٍ ولدتْ حرّةً. جسدُ آياجو الرّشيق، الممشوق، وأطرافُها الطّويلة، تتحدّثُ عن رحلاتِ شراءٍ كثيرة. لقد سافرتْ حتى إلى ما وراء أونيتشا. إنها أوّل من أتى بحكايات عن موضات غريبة أتى بها تجّار إيغالا وإيدو، والأولى التي تحدثت عن رجالٍ بسحناتٍ بيض، وصلوا أونيتشا، يبيعون المرايا، والأقمشة، والأسلحة الكبيرة، التي لم يرَ المحليون مثيلاً لها من قبل. هذه المعرفة الكونية جعلتها تنال احترامَ الجميع، فقد كانت الشخص الوحيد، المتحدر من أصولِ العبيد، التي تتحدّثُ، جهراً، خلال اجتماعات مجلس النساء، والشّخص الوحيد الذي لديه أجوبة عن كلّ شيء.

وبالتالي اقترحتْ، على الفور، أن تكون الفتاةُ الصغيرةُ من عائلة أوكنكو، الزوجة القادمة، فالفتاةُ لها وركان واسعان جميلان، فضلاً عن أنها محترمة، على نقيض فتيات اليوم، برؤوسهنّ المحشوّة بالهراء. حين عادتا معاً من الساقية، قالت آياجو إنّ على نوامبغبا أن تفعل ما تفعله النساء الأخريات في مثل حالتها - تبحث عن عشيقٍ، تحبلُ منه، من أجل أن يستمرّ نسلُ أوبيريكا. كان ردّ نوامبغبا حادّاً لأن نبرة آياجو لم تعجبها، وتضمرُ بأنّ أوبيريكا عاجزٌ جنسياً، وكردٍّ على أفكارها تلك، شعرتْ بطعنةٍ غادرَة في الظهر، وعلمتْ أنّها حاملٌ، مرّةً أخرى، لكنها لم تقلْ شيئاً، لأنها كانت تعلم أيضاً أنها سوف تخسرُ الطفلَ من جديد.

حدَثَ الإجهاضُ، بعد مرور بضعة أسابيع، وجرى الدّمُ المتخثر فوق ساقيها. أرادَ أوبيريكا أن يطمئنها، واقترح أن يذهبا معاً إلى مرقدٍ مقدّس،

يقطنه رجلٌ حكيمٌ، اسمه كيسا، ولكن ليس قبل أن تتعافى، وتصبح قادرة على المشي، مسافة نصفِ نهارٍ بالكامل. بعد أن استشارَ الكاهنُ الرّجلَ الحكيمَ، انكمشتْ نوامبغبا، لمجرد التفكير بالتضحية ببقرة كاملة. لا شكّ أنّ لزوجها، أوبيريكا، أسلافاً جشعين. لكنّهما نفّذا شعائر النظافة والتّضحية، وحين اقترحتْ عليه أن يذهبَ ويرى عائلةَ أوكنكو ليطلب يد ابنتهم، أخّرَ الموضوع، ثم أخّره أكثر، حتى شقّ ظهرَها ألمٌ آخر، وبعد مضي عدّة أشهر، وجدت نفسها تستلقي فوق كومة من أوراق الموز، المغسولة، خلف كوخها، تشدُّ وتدفعُ، حتى خرجَ الطفلُ، مولودها الأول.

سمّياهُ آنيكوينوا: إلهُ الأرضِ، «آني»، حباهم أخيراً بطفل. كان طفلاً قاتماً، قويّ البنّية، يتحلّى بحبّ الفضولِ السعيد، الذي يميّزُ طبعَ والده، أوبيريكا. اصطحبه أوبيريكا معه ليجمعَ الأعشابَ الطبّيةَ، ويجلبَ الطينَ للأعمال الخزفية التي تقومُ بها نوامبغبا، وجعله ينكشُ حول شتلاتِ البطاطا الكبيرة في المزرعة. ابنا خالتِهِ، أوكافو وأوكوي، كانا يزورانه بانتظام. شعرا بالغبطة لدى رؤيتهما، آنيكوينوا، وهو يعزفُ على المزمار، وبخاصة سرعته في تعلّمِ مهنةِ الخزف، وحركاتِ المصارعةِ من والده، لكنّ نوامبغبا كانت ترى الشرّ المتأجّجَ، الذي لم تستطعْ ابتساماتُهما أن تخفيه. خافتْ على طفلها، وعلى زوجها، وحين ماتَ أوبيريكا - الرجلُ الودود الضحوك، بينما كان يحتسي نبيذَ البلح، قبل لحظاتٍ من سقوطِهِ- عرفتْ أنهما قتلاه بالدواء. تمسّكتْ بجثته، حتى قام أحدُ الجيران بصفعها كي يجبرها على تركها. ظلت راقدةً فوق الرّمادِ البارد لأيام عدّة. بعدئذ، مزّقت الخطوطَ المرسومة على شعرها. لقد تركها موتُ أوبيريكا فريسةً ليأسٍ لا ينتهي. وكمْ فكّرتْ بالمرأة التي ذهبت إلى الباحة الخلفية لمنزلها، بعد موتِ ابنِها العاشرِ، على التّوالي، وشنقتْ نفسها، تحت شجرة الكولا. لكنّها لن تفعل هذا، من أجل طفلها آنيكوينوا.

في وقتٍ لاحقٍ، تمنّتْ لو أنها أصرّت على أن يشربَ ابنا خالتِهِ من «ماء جثة» زوجها، أوبيريكا، أمام الرّجل الحكيم. لقد شهدتْ بأمّ عينها، هذا، مرةً، حين ماتَ رجلٌ ثريٌّ، وأصرّتْ عائلته على أن يشربَ خصمه من «ماء جثّتِهِ». كانت نوامبغبا قد شاهدت المرأة غير المتزوجة تقطفُ ورقةً كالفنجان، مملوءةً بالماء، وتجعلُها تلمسُ جسدَ الرّجلِ الميّتِ، وطوال الوقتِ، تتحدّثُ برزانةٍ، وتعطي الكأسَ للشّخص المتهم، الذي يقوم بشربها. الجميع كانوا ينظرون إليه كي يتأكّدوا أنه يبلعُ الماء، بينما صمتٌ رهيبٌ خيّمَ في الهواء، لأنهم يعرفون بأنه، إذا كان مذنباً، فسوف يموتُ، لامحالة. وقد فارق الحياةَ، بعد بضعة أيام، وأفراد عائلته نكّسوا رؤوسَهم، عاراً، ونوامبغبا شعرتْ بأنّ كيانَها اهتزّ، بغرابةٍ شديدة، جرّاء كلّ ما حدث. كان ينبغي أن تصرَّ على هذا، مع ابني خالة أوبيريكا، لكن الحزنَ أعمى بصيرتها، وأوبيريكا وُوري الثّرى، وقد فات الأوان.

ابنا خالته هذان، وخلال جنازته، أخذا نابَ العاج، زاعمَين بأنّ قلائدَ الألقاب تذهبُ للإخوة، وليس للأبناء. حدث هذا حين أفرغا مخزنَه من محصول البطاطا الكبيرة، وساقا قطيع الماعز من حظيرته، فقررت مواجهتهما، وبدأت تصرخُ، وحين قاما بدفعها جانباً، انتظرت حتى هبوط المساء، وبدأت تتجوّلُ في أرجاء العشيرة، تغنّي لتفضحَ شرّهما، وتتحدث عن الموبقات التي يرتكبانها، على أرض القبيلة، من خلال احتيالهما على أرملة، حتى طلب منهما العجائز، وكبار القوم، بتركها وشأنها. رفعتْ احتجاجَها إلى مجلس النساء، فذهبتْ، ليلاً، عشرون امرأة إلى منزل أوكافو وأوكوي، ملوّحاتٍ بمدقّاتهنّ، وطلبن منهما أن يتركا نوامبغبا وشأنَها. أعضاء في نادي أوبيريكا الرياضي، من العمر ذاته، طلبوا منهما أن يتركاها وشأنها. لكنّ نوامبغبا كانت تدركُ، في قرارة نفسها، أنّ هذين الشخصين الشجعين لن يتوقّفا، حقاً. وحلمتْ بقتلهما. بالتأكيد، يمكنها القيام بذلك - هذان الضعيفان، الخسيسان، اللذان كانا يعيشان على حساب أوبيريكا، عوضاً عن العمل- لكن بالطبع سوف يتمّ

طردها خارج العشيرة، ولن يعتني أحدٌ بابنها الوحيد. لهذا بدأتْ تخرج مع آنيكوينوا في نزهات مشي طويلة، وتخبره بأنّ الأرض، من شجرة البلح تلك إلى شجرة الموز هناك تعودُ لهم، وبأنّ جدّه ورّثها لوالده. كررت أمامه هذه الأشياء، مرّات ومرات، رغم أنه كان قد بدأ يشعرُ بالملل والارتباك، ولم تكن تسمح له بالخروج، واللّعب في ضوء القمر إلاّ إذا كان تحت مرمى نظرها.

عادتْ آياجو من رحلةِ تجارةٍ أخرى، لتروي قصّةً أخرى: النسوةُ في أونيتشا يتذمّرْن من الرّجال البيض. لقد رحّبن بالتجارةِ معهم، لكنّ الرّجال البيض بدأوا يقولون لهنّ كيف ينبغي أن يتاجرْن، وحين رفض كبار السنّ من آغويكي، وهي قبيلة في أونيتشا، بوضع بصماتهم على الأوراق، أتى البيض، تحت جنح الظلام، مع أعوانهم ومساعديهم، ومسحوا القرية عن بكرة أبيها. لم يبقَ فيها شيءٌ. لم تفهمْ نوامبغبا أي نوع من الأسلحة كان بحوزة هؤلاء البيض؟ ضحكت آياجو، وقالت إنّ أسلحتهم لا تشبه في شيء بنادق الصيد الصدئة التي كان يملكها زوجها. بعض الرجال البيض كانوا يزورون قبائل مختلفة، ويطلبون من الأهالي إرسال أطفالهم إلى المدرسة، وقد قرّرت إرسال آزوكا، الابن الأكثر كسلاً في المزرعة، إذ بالرغم من أنّها ثرية، ومحطّ احترام الجميع، فإنها مازالتْ من منبتِ العبيد، وأبناؤها محرومون من حمل الألقاب. أرادت أن يتعلّم آزوكا طرائق هؤلاء الأجانب، بما أن الناس يأتمرون على أناسٍ آخرين، ليس لأنهم الأفضل، بل لأنهم يمتلكون أسلحةً أقوى. على كل حال، ما كان لوالدها أن يُباع كعبد لو كانت عشيرته جيدة التسليح، كما هو حال عشيرة نوامبغبا. وبينما كانت نوامبغبا تصغي ملياً لحكايات صديقتها، راحتْ تحلمُ بقتل ابني خالةِ زوجها، أوبيريكا، بأسلحةِ الرجال البيض.

اليوم الذي زار فيه الرّجالُ البيضُ عشيرتها، تركتْ نوامبغبا الطنجرةَ،

التي كانت على وشك أن تضعها فوق نار المدفأة، وأخذت معها آنيكوينوا، ومجموعة من فتياتها المتدرّبات، وهرعت باتجاه الساحة الرئيسية. في البداية، أصابتها خيبةُ الأمل من المنظرِ العاديّ للشّخصين الأبيضين. ظهرا وديعين لا يؤذيان نملةً، أمهَقي اللّون، بأطرافٍ واهنةٍ ونحيلةٍ. مرافقوهما رجالٌ عاديون، لكنّ ثمة شيئاً أجنبياً، يكتنف سحناتهم، وكان بينهم واحدٌ فقط يتحدث لغة إغبو، بنبرةٍ مشدّدةٍ بغرابة. قال إنّه من إيليل. الرجال العاديون الآخرون أتوا من سيراليون، والرّجال البيض من فرنسا، التي تقع ما وراء البحار. جميعهم ينتمون لبعثةِ «الرّوح القدس» التبشيرية، وقد حطّ بهم الرحال في أونيتشا، عام 1885، وهم يبنون مدرستهم، وكنيستهم، هناك. نوامبغبا كانت أوّل من طرح سؤالاً: هل جلبوا أسلحتهم، معهم، تلك التي استخدموها لتدمير النّاسِ في آغويك، وهل بوسعها أن ترى قطعةً منها؟ الرجلُ قال، مستاءً، إنّ جنود الحكومة البريطانية، وتجّار شركة النيجر الملكية، هم الذين دمّروا القرى؛ أمّا هم فقد أتوا بأخبارٍ سارّة. تحدّثَ عن إلههم، الذي أتى إلى العالم، كي يموتَ، ولديه ابنٌ، ولكن لا زوجةَ، وهو أيضاً ثلاثة، مع أنه واحدٌ. العديدُ ممن كانوا يقفون حول نوامبغبا ضحكوا بصوتٍ عالٍ. البعضُ الآخرُ انصرفَ وشأنَه، لأنهم كانوا يعتقدون بأنّ الرجل الأبيض يفيض حكمةً. البعض الآخر لم يغادروا أمكنتهم، وقدّموا أباريق باردة من الماء للضيوف.

بعد بضعة أسابيع، أتت آياجو بقصة أخرى: الرجال البيض أنشأوا محكمة في أونيتشا، حيث يقومون بالبتّ في أمور النزاعات. لقد أتوا حقّاً كي يبقوا. لأوّل مرة، لم تصدّق نوامبغبا صديقتها. بالتأكيد، النّاسُ، في أونيتشا، لديهم محاكمهم الخاصة. العشيرة التي تجاورُ عشيرة نوامبَغبا، على سبيل المثال، تقيمُ محاكمَها فقط، خلال الاحتفالِ الجديد للبطاطا الكبيرة، ما يجعلُ حنقَ الناس يتعاظمُ، أثناء انتظارهم للمحاكمة. يا له من نظامٍ غبي، قالت نوامبغبا لنفسها، ولكن، بالتأكيد، لكل مجموعة بشرية محكمتُها. ضحكت آياجو وقالت لنوامبغبا، مرة أخرى، إنّ البشر

يحكمون غيرهم من البشر، حين يملكون أسلحةً أفضل. كان ابنها في طور الاطّلاع على هذه الطرائق الأجنبية، وربما ينبغي على آنيكوينوا أن يطّلع عليها أيضاً. لكنّ نوامبغبا رفضت الفكرة. أمرٌ يقعُ خارج مجال تفكيرها أن تسلّم ابنها الوحيد، وعينَها الوحيدة، إلى الرّجال البيض، بغضّ النّظرِ عن مدى تفوّق أسلحتِهِم.

أحداثٌ ثلاثة، خلال السنوات الآتية، جعلتْ نوامبغبا تغيّر رأيها. الأول يتعلق بأبناءِ خالة أوبيريكا، الذين أخذوا قطعةً كبيرةً من الأرضِ، وأخبروا كبار القبيلة بأنهم يزرعونها لصالحها هي، المرأة التي تسبّبتْ بإخصاءِ شقيقهم الميت، والآن رفضتْ أن تتزوّجَ من جديد، رغم أنّ العشّاق يأتون، وثدييها مازالا مدوّرين. كبار القبيلة وقفوا إلى جانبهم. الثاني هو أنّ آياجو أخبرتها قصة عن شخصين أخذا قضية استيلاء على أرض إلى محكمة الرّجال البيض. الرّجلُ الأوّلُ كذبَ، لكنّه كان يجيدُ لغةَ الرّجال البيض، بينما الرّجلُ الآخرُ، المالكُ الشّرعي للأرض، لم يكنْ يتكلّم لغتَهم، ما أدى إلى خسارتِهِ القضية، وتمّ الاعتداءُ عليه بالضّرب، وزُجّ به في السجن، وطُلب منه التخلّي عن الأرض. الثالث هو قصّة الصّبي، آيروغبونام، الذي فُقِدَ أثرُهُ،، منذ سنواتٍ طويلة، ثم فجأةً، عاد للظهور، شاباً يافعاً، وأمّه، الأرملة، أصابها الخرسُ من قصّته: جارٌ، لطالما كان يعنّفه، ويخرسه والدهُ، خلال الاجتماعات المحلية، قام باختطافه، حين كانت أمّه في السّوق، وأخذَهُ إلى تجّار العبيدِ، في آرو، الذين قاموا بمعاينتِهِ، واشتكوا بأنّ الجرحَ على ساقِهِ سوف يقلّلُ من سعره. قاموا بتقييدِ يديه، مع أيادي أناسٍ آخرين، ليشكّلوا رتلاً بشرياً طويلاً، وضربوه بالعصا، بعد أن طلبوا منه أن يمشي بخطوات أسرع. كانت بينهم امرأةٌ وحيدةٌ ، والباقي جميعهم من الذكور. ظلت المرأةُ تصرخُ حتى بُحّ صوتُها، وهي تقول للخاطفين إنّهم بلا قلب، وأنّ روحَها سوف تعذّبهم، وتعذّبُ أطفالَهم، وقالت إنّها تعرف بأنها سوف تُباعُ إلى

الرّجل الأبيض. ألا يعلمون بأنّ عبودية الرّجل الأبيض مختلفة تماماً، وأنّ الناس يُعاملون معاملة الماعز، التي تُشحنُ على متن سفن ضخمة، قبل أن تُساق بعيداً، ويتمّ أكلها؟

مشى آيروغبونام، ومشى، ومشى، حتى سال الدمُ من قدميه، وسرى الخدرُ في أنحاء جسده، مع قليلٍ من الماء، يُسكَبُ في فمه، بين الحين والحين، حتّى وصلَ به الحالُ إلى أنّ الشّيء الوحيدَ الذي يتذكّره هو رائحةُ الغبارِ فوق أديمِ الأرض. أخيراً، توقّفوا لدى عشيرة ساحلية، وهناك تحدّث أحدُ الرّجال، بلغة إغبو، غير مفهومة، تقريباً، لكنّ الصبي آيروغبونام، استطاع أن يلملمَ ما يكفي من المعنى، ليفهم أنّ رجلاً آخر، ممن يُفترض أن يقوم ببيع المختطفين إلى الرّجال البيض، على متن السفينة، كان قد صعد للمساومة مع الرجال البيض، لكنّه تعرّض هو نفسه للاختطاف. وسُمعت جدالات صاخبة، وبعض المشاحنات: بعض المختطفين جرّوهم بالحبال، والصبيّ، آيروغبونام، أُغمي عليه. ثمّ استيقظَ ليجدَ أحد الرجال البيض يفركُ له قدميه بالزيت، فانتابه الذّعرُ، في البداية، وبدا متأكّداً أنه يُحضّرُ ليكون وجبةً أمام الرجل الأبيض. لكنّ هذا الرجل الأبيض يختلف عن غيره من البيض الآخرين، إذ هو تبشيريٌّ، يقوم بشراء العبيد من أجل أن يُطلق سراحهم، وقد أخذ، آيروغبونام، كي يعيش معه، ويدرّبه ليصيرَ مسيحياً تبشيرياً.

قصة آيروغبونام، استحوذت على اهتمام نوامبغبا، لأن تلك ستكون، على الأرجح، الطريقة التي سيلجأ إليها أبناء خالة أوبيريكا، للتخلّص من ابنها الوحيد. أن يقوموا بقتله أمرٌ غاية في الخطورة، فاحتمال أن تتعثّر الأمور، بسبب تأثير الرجل الحكيم، عالية جداً، لكنهم سوف يكونوَن قادرين على بيعِه، طالما أنّهم يملكون عقاقير قويةً لحماية أنفسهم. ولفت اهتمامها أيضاً كيف أنّ آيروغبونام استطاع أن يتعلّم لغة الرّجل الأبيض، ويتحدّث بها، من حينٍ إلى آخر. كانت لكْنتُه تخرجُ من الأنف، وتبدو مقرفة. وقد أدركت نوامبغبا أنه ليس لديها الرغبة بأن

تتحدّثَ بلسانٍ من ذاك القبيل، لكنها، فجأةً، صمّمتْ على أن يتعلّم ابنها، آنيكوينوا، تلك اللغة، التي قد تساعده في الذهاب إلى محكمة الرجال البيض، لمواجهة أبناء خالة أوبيريكا، وهزيمتهم، واسترجاع حقّه منهم. وهكذا، بعد عودة آيروغبونام، بوقتٍ قصيرٍ، أخبرتْ آياجو بأنها تريدُ أن ترسلَ ابنها إلى المدرسة.

ذهبا، أولاً، إلى البعثة الإنجيلية. في الصفِّ، الفتياتُ أكثر من الصبيان - بضعة صبيان فضوليين، حاملين مقاليعهم، يتسكّعون على غير هدىً. الطلاب جلسوا يحملون بطاقات في أحضانهم، بينما يقف المعلم قبالتهم، حاملاً عصاً كبيرة، ويروي لهم قصة عن رجلٍ يحوّل دلاء الخمر إلى ماء. أحبّت نوامبغبا نظارات المعلم، واعتقدت أنّ الرّجل في القصة لا بدّ أنه يمتلكُ عقّاراً قوياً، كي يكون قادراً على تحويل الماء إلى خمر. ولكن حين تم فصل الفتيات، وأتتْ معلمة كي تدرّبهم على الخياطة، وجدت نوامبغبا الأمر سخيفاً، ففي عشيرتها تتعلّم النساء صناعة الخزف، والرّجل هو الذي يخيطُ الملابس. والشيء الأساس الذي جعلها تعزف تماماً عن فكرة المدرسة هي أنّ الدروس تُعطى بلغة إغبو. وقد سألت نوامبغبا المعلّمَ الأول لماذا، فقال لها إن التّلاميذ يتعلمون الإنكليزية، بالطبع - ورفع بيده كتاب تعلّم الإنكليزية الابتدائي- لكنّ الأطفالَ يتعلمون أفضل بلغتهم، أيضاً. وهمت نوامبغبا بالانصراف، لكن المعلم اعترض طريقها وقال لها إن التبشيريين الكاثوليك قساة، ولا يأبهون كثيراً لمصالح المحليين. لكنّ هؤلاء الأجانب أثاروا فضول نوامبغبا، الذين لم يكونوا يعرفون أنّ المرء يجب أن يُظهِرَ، أمام الأجانب، شيئاً من الوحدة. لكنها أتت تبحث عن اللغة الإنكليزية، ما جعلها تتجاوز المعلّم، وتتوجه إلى البعثة الكاثوليكية.

أخبرها الأب شاناهان أنّ ابنها، آنيكوينوا، ينبغي أن يأخذ اسماً إنكليزياً، إذ ليس ممكناً أن يتمّ تعميده وهو يحمل اسماً وثنياً. وافقت

بسهولة على هذا الطلب. اسمه سوف يبقى آنيكوينبوا، بالنسبة لها، وإذا أرادوا أن يعطوه اسماً لن تستطيع لفظه، قبل أن يعلموه لغتهم، لا بأس بذلك، على الإطلاق. كلّ ما يهمّ هو أن يتعلم القدر الكافي من لغتهم، تتيح له الوقوف في وجه أبناء خالة أبيه. نظر الأب شاناهان إلى آنيكوينبوا، الطفل الفاحم البشرة، القوي العضلات، وتكهّن أن سنّه لا تتجاوز اثني عشر عاماً، مع أنه كان يجد صعوبةً في معرفة أعمار هؤلاء الناس، فأحياناً كان الصبي يبدو كالرجل، بما لا يشبه أبداً الحال في شرق أفريقيا، حيث عمل سابقاً، وحيث السكان الأصليون أكثر نحافةً، ولهم بنية عضلية أقلّ. حين قام بسكب بعض الماء فوق رأس الصبي، قال، «مايكل، أعمّدكَ باسمِ الأبِ والابنِ والرّوحِ القدس».

وأعطى الصبي صدريةً، وبنطلوناً قصيراً، لأنّ أبناء الربّ الحيّ لا ينبغي أن يمشوا عراةً، وحاول أن يلقي عظّة على أمّ الصبي، لكنها نظرت إليه كمن تنظر إلى طفلٍ لا يعرفُ المزيد عن أمور الدنيا. كان ثمة ثقة مقلقة تشعّ من نوامبغبا، ثقة لمسها الأب لدى نساء كثيرات هنا، وهنّ يختزنّ الكثيرَ من المواهب، لو كان بالإمكان فقط ترويض توحشهنّ. هذه المرأة، نوامبغبا، يمكن أن تصلح مبشرةً رائعةً بين النساء. نظر إليها، وهي تغادرُ. ثمة لطفٌ حنون يحيط بقامتها الفارعة، وهي، على خلافِ غيرها، لا تسهب كثيراً في الحديث، بل تذهب مباشرةً إلى النقطة التي تريدُ طرحها. لكم أزعجته تلك الأحاديث المسهبة، الطويلة، والأمثال الشعبية المكررة، وعدم القدرة على طرح نقطة مفهومة، لكنه كان مصمماً على أن ينجح هنا نجاحاً باهراً، وكان ذاك هو السبب الذي جعله ينضمّ إلى جماعة الرّوح القدس، التي تنحصر مهمّتها الخاصّة في بعث الخلاص للسّود الوثنيين.

نوامبغبا هالَها التعسّف الرّهيب الذي يُعاقبُ التبشيريون من خلاله تلامذتَهم - لأنّهم يأتون متأخّرين، ولأنهم كسالى، ولأنّهم بطيئون،

ولأنّهم خمولون. وذات مرّة، مثلما أخبرها آنيكوينوا، كان الأب لوتز قد وضع الأصفاد حول رسغ فتاة كي يعلّمها درساً عن الكذب، مردداً دائماً بلغة إغبو- لأنّ الأب لوتز كان يتحدّث نسخةً مكسّرةً من لغة إغبو- بأنّ أهالي السكان الأصليين أفسدوا أبناءهم كثيراً بالدلال الكثير، وأنّ تعليم الإنجيل يعني أيضاً تعليم الانضباط الصحيح. في الأسبوع الأول، الذي عاد فيه آنيكوينوا إلى المنزل، لاحظت نوامبغبا آثار ضربٍ مبرّح على ظهره. أحكمتْ شدّ دثارها حول خصرها، وتوجهت إلى المدرسة. قالت للمعلم إنها سوف تنزع عيون كلّ من يعمل في البعثة التبشيرية إذا اكتشفت آثار ضربٍ مرة أخرى. كانت تعلم أنّ آنيكوينوا لم يكن يحبّ الذهاب إلى المدرسة، لكنها قالت له لن يستمر الأمرُ لأكثر من سنة أو سنتين، حتى يتعلّم الإنكليزية، ورغم أنّ أناس البعثة طلبوا منها عدم المجيء كثيراً، لكنّها أصرّتْ على الزّيارة، في عطلة نهاية الأسبوع، وأخذه معها إلى البيت. كان آنيكوينوا يخلع ملابسه، حتى قبل أن يغادروا مجمّع البعثة التبشيرية. كان يكره القميص والبنطلون القصير، التي كانت تجعله يتعرّق، فضلاً عن أنّ القماش كان يسبّب له الحكّة حول إبطيه. كما أنه كره مجرّد وجودِهِ في الصفّ الواحد، مع رجال مسنّين، وانقطاعِهِ عن منافسات المصارعة.

قد يعودُ السّببُ إلى أنه بدأ يلاحظ نظراتِ الإعجاب التي تحظى بها ملابسه، في أرجاء العشيرة، لكنّ الحقيقة أن موقف آنيكوينوا كان قد تبدّل قليلاً تجاه المدرسة. لاحظتْ أمه هذا، لأوّل مرة، حين دعاهُ بعضُ الصبية الذين كان يكنس معهم ساحة القرية، لمساعدتهم، لكنهم اشتكوا بأنّه لم يعد يقوم بواجبه لأنه صار يدرسُ في المدرسة، ما دفع آنيكوينوا لأن يقول شيئاً بالإنكليزية، شيئاً بدا حادّاً جدّاً، جعلهم يسكتون، ويملأ أمّه، نوامبغبا، بفخر عميق. لكنّ فخرها سرعان ما تحوّل إلى قلق حين لاحظت أن الفضول بدأ يتلاشى من عينيه. ثمة شرودٌ جديدٌ، الآن، بدأ يستحوذُ عليه، كأنما اكتشف، فجأةً، أنه يحملُ، على كاهله، عبءَ هذا

العالم من حوله. كان يحدّقُ بالأشياء لفترة طويلة. وقد توقّف عن تناول طعامها، لأنه، كما قال، يُقدَّمُ كأضحيةٍ إلى الأصنام. قال لها ينبغي أن تلفّ دثارها حول صدرها، عوضاً عن خصرها، لأنّ عريها إثمٌ. نظرت إليه، وأعجبتْها جدّيته، لكنّها، مع ذلك، ظلّتْ تشعر بالقلق، وتساءلت لماذا، الآن، بالذّات، بدأ يرى عريها.

وحين حلّ موعد شعائر «استحضار الأرواح»، قال لها إنّه لن يحضر، لأنّ تلك عادة وثنية، إذ لا ينبغي للأولاد أن يتعرّفوا إلى عالم الأرواح، وهي عادة قال الأبُ شاناهان إنها ينبغي أن تتوقّف. فركتْ نوامبغبا أذنَه بعنف، وأخبرتْه بأنّ أمهق أجنبياً لا يستطيع أن يقرّر متى يجب أن تتغير عاداتهم، وبالتالي هذا أمر منوط بالعشيرة، التي وحدها تقرر متى يجب أن يتوقّف طقسٌ ما، وسوف يحضر الشعائر، وإلاّ يجب أن يقول لها، هل هو ابنها، أم ابن الرّجل الأبيض. آنيكوينوا وافق على مضض، ولكن ما إنّ انصرف مع مجموعة من الصبيان، لاحظتْ أنه يفتقر للحماسة. حزنُهُ أحزَنَها. وشعرتْ أن ابنها يهرب منها بالتّدريج، مع ذلك ظلّت فخورة لأنه يتعلّم الكثير، وأنه يمكن أن يصبح مترجماً في محكمة، أو كاتب رسائل، وأنه، بمساعدة الأب لوتز، كان قد أحضر أوراقاً تُظهر أن أراضيهم تعودُ إليه، وإلى أمّه. أما أكثر لحظاتها افتخاراً فكانت حين ذهب إلى ابني خالةِ والدِه، أوكافو وأوكوي، وطلب منهما استرجاع نابِ العاج، وما كان منهما سوى أن فعلا ذلك.

وأدركت نوامبغبا أن ابنها يستوطن فضاءً فكرياً، أجنبياً، بالنسبة لها. أخبرها أنه ذاهبٌ إلى لاغوس كي يتعلم كيف يصبحُ معلماً، وحتى عندما صرختْ - كيف يمكن أن تتركني؟ ومن سيدفنني حين أموت؟- كانت تعرفُ أنه سوف يذهب. لم تره على مدى سنواتٍ عديدة. تلك السنوات التي توفي خلالها ابنُ خالة أبيه، أوكافو. ولطالما طلبت مشورة الرجل الحكيم لتسأله إن كان آنيكوينوا ما يزالُ على قيد الحياة. عاتبها الكاهنُ وطلب منها العودة إلى بيتها، لأنّ ابنها، على قيد الحياة، بالطبع. أخيراً

عاد آنيكوينوا، في تلك السنة التي حظرت فيها العشيرةُ اقتناء الكلاب، بعد أن قام كلبٌ بقتل أحد أعضاء جمعية مانغالا، وهي الجمعية ذاتها التي كان آنيكوينوا سوف ينتسبُ إليها لو لم يصرّح، ذات يوم، أنّ تلك الأشياء شيطانية.

نوامبغبا لم تقل شيئاً حين أعلن ابنُها أنه تم تعيينه ملقّناً دينياً لدى البعثة الجديدة. كانت تشحذُ مقصَّها فوق راحةِ يدِها، لأنّها كانت على وشك أن تقصّ شعر إحدى الفتيات الصغيرات، ولم تتوقف، بل استمرّت تفعلُ ذلك - تقصّ، وتقصّ وتقصّ - بينما كان آنيكوينوا يسهبُ في الحديث عن إنقاذ الأرواح في عشيرتهم. صحنُ بذورِ خبز الفواكه، الذي قدّمته له لم يُلمَسْ - كان قد امتنع عن أكلِ أيّ شيءٍ منها- ونظرت إليه، هذا الرجل الذي يرتدي بنطلوناً، ويضع سبّحة حول عنقه، وتساءلتْ ما إذا كانت سبباً بالمصير الذي آلَ إليه حاله. هل تلك كانت قوّة الحياة التي قرّرت مسارَهُ، هذه الحياة التي وجد نفسه فيها يؤدّي، بشغفٍ بالغٍ، مسرحيةً إيمائيةً سخيفةً؟

اليوم الذي أعلمها فيه عن المرأة التي ينوي الزواج منها لم يكن مفاجئاً. لم يفعلْها، كما جرت العادةُ، ولم يستشرْ أحداً من النّاس للسؤال عن عائلةِ عروسِه، لكنّه، ببساطة، قال إنّ أحداً في البعثة رأى فتاةً شابّة مناسبة من إيفتي أوكبو، والفتاة المناسبة هذه سوف تؤخذ إلى الدّيرِ المقدّسِ للراهبات في أونيتشا كي تتدرّبَ كيف تصبحُ زوجةً مسيحيةً صالحة. في ذلك اليوم، كانت نوامبغبا مريضةً بالملاريا، ومستلقيةً فوق سريرها الطيني، تمسّدُ مفاصلَها الملتهبة، وسألتْ ابنَها، آنيكوينوا، عن اسم هذه الفتاة الشابّة. أجاب ابنُها أنّ اسمَ الفتاة هو آغنس. سألتْ أمه عن اسم الفتاة الحقيقي. تنحنح آنيكوينوا، وقال إنها كانت تُدعى مغبيكي، قبل أن تعتنق المسيحية، وسألت ما إذا كانت مغبيكي مستعدة للمشاركة بجلسة الاعتراف، حتّى وإن كان آنيكوينوا لا يريدُ اتباع شعائر الزّواج الأخرى في عشيرتِهِ. هزّ رأسه غاضباً، وقال لها إن الاعتراف الذي تدلي

به المرأة قبل الزواج، وهي محاطة بأقربائها من النساء، بعد أن تقسمَ أن لا رجلَ لمسَها منذ أن أعلنَ زوجُها رغبتَه بها، هي ضربٌ من الإثم، لأنّ الزّوجات المسيحيات لا ينبغي أن يلمسهنّ أحدٌ على الإطلاق.

كانت حفلةُ الزّواج في الكنيسةِ مضحكةً وغريبة، لكنّ نوامبغبا تحمّلتها بصمت، وقالت لنفسها إنها تفضّلُ الموتَ، في أقرب وقتٍ، واللّحاق بأوبيريكا، على أن تكون في عالمٍ يطغى فيه هذا الهراء. وصمّمتْ أن تكره زوجة ابنها، لكنّ مغبيكي أثبتتْ أنّه من الصعب كراهيتها. فتاةٌ ذات خصرٍ صغيرٍ، لطيفةٌ جداً، ومتشوّقةٌ لإسعادِ الرّجلِ الذي تزوّجته، بل متلهّفة لإسعاد كلّ من حولها، وهي سريعة البكاء، وكثيرة الاعتذار عن أشياء لا تتحمّل مسؤوليتَها أصلاً. وهكذا، شعرت نوامبغبا بالشفقة تجاهها. ولطالما قامت مغبيكي بزيارتها، والدموع تملأ عينيها، قائلةً إنّ آنيكوينوا رفض أن يتناول عشاءَه، لأنه غاضبٌ منها، أو أنّ آنيكوينوا منعها من الذهاب لحضور الزفاف الإنجيلي لصديقتها، لأنّ الإنجيليين لا يبشّرون بالحقيقة، ونوامبغبا كانت تستمعُ بصمتٍ، بينما ترسمُ زخارفَها على أدواتِها الخزفية، ولا تدري كيف تتعاملُ مع امرأةٍ تبكي على أشياء لا تحتاجُ، حقّاً، إلى ذرفِ الدموعِ.

صارت مغبيكي تُلقّب بـ «الزّوجة»، من قبل الجميع، حتى من غير المسيحيين من أبناء الحيّ، فجميعهم كانوا يحترمون زوجةَ الملقّن، لكنّها في اليوم الذي ذهبتْ فيه إلى ساقيةِ «أوي»، ورفضت أن تخلع ملابسها، لأنها مسيحية، استشاطت نساءُ العشيرة غضباً، ذلك أنها تجرأت على عدمِ احترامِ الربّة، واعتدين عليها بالضّرب، وقمنا برميها في أيكة أشجار مجاورة. انتشرت الأخبارُ كالنار في الهشيم. الزّوجة تعرّضت للإهانة. هدّدَ آنيكوينوا بحبس جميع زعماء العشيرة إذا تمت معاملة زوجته بتلك الطريقة، مرّةً ثانيةً، لكنّ الأبّ أودنيل، في رحلته المضنية التالية من مركزه، في أونيتشا، زار وجهاء العشيرة، واعتذر

بالنيابة عن مغبيكي، وتساءل ما إذا كان يُسمَح للنسوة المسيحيات بإحضار الماء، وهنّ مرتدياتٍ ملابسهنّ كاملةً. رفض الوجهاء طلبه - إذا كانت إحداهنّ تريد الماء من «أوي»، ينبغي عليها أن تتبع قواعد «أوي» - لكنّهم أظهروا الاحترامَ للأبّ أودنيل، الذي أصغى إليهم، ولم يتصرّف كابنهم آنيكوينوا.

شعرتْ نوامبغبا بالعار من ابنها، وبالامتعاض من زوجته، وبالغضب من حياتهم المعقّمة التي تعاملُ المحليين، من غير المسيحيين، كأنّهم مصابون بالجدري، لكنها ظلّتْ تتأمل بحفيدٍ، وتصلي، وتقدم الأضاحي، من أجل أن تُرزق مغبيكي بصبيٍ، لأنّ هذا سيعني أن أوبيريكا قد عادَ إلى الحياة من جديد، كي يعيدَ شيئاً من المعنى إلى عالمها. لم تكن على علمٍ بالإجهاض الأول، أو الثاني، اللذين مرّت بهما مغبيكي، وحدث هذا في الإجهاض الثالث، حين جاءت مغبيكي إليها، تبكي، وتتنهّدُ، وتنفّ. وكان عليها أن تستشيرَ مرقدَ الحكمة، على اعتبار أنّ الأمر نحسٌ عائليّ، كما قالت نوامبغبا، لكنّ عيني مغبيكي جحظتا خوفاً. سوف يُجنّ جنونُ زوجها، مايكل، لو عرف بالأمر، أو حتى لو سمع باقتراح الذهاب إلى رأس الحكمة. نوامبغبا، التي ما تزال تجدُ صعوبةً في التذكّرِ بأنّ مايكل هو نفسه، ابنها، آنيكوينوا، ذهبت بنفسها إلى رأسِ الحكمة، ووجدت، لاحقاً، كم أنّ الأمرَ بات سخيفاً، إذ حتى الآلهة تبدّلتْ، ولم تعد تطلب نبيذَ البلح، بل مشروب الجنّ. هل اعتنقوا ديناً آخر، هم أيضاً؟

بعد مضي عدّة أشهر، زارتها زوجةُ ابنها، مغبيكي، مبتسمةً، تحملُ معها صحناً مغطىً من تلك الأكلات المخترعة، التي وجَدَتْها نوامبغبا، غير صالحةٍ للأكل، لكنّ نوامبغبا عرفت أن طاقة الحياة مازالت مستيقظة، وأنّ كنّتها حاملٌ. قرّر آنيكوينوا أن تنجبَ مغبيكي في البعثة، في أونيتشا، لكن الآلهة كان لها خطط مختلفة، وجاء المخاضُ باكراً، خلال ظهيرةٍ ماطرة، وأتى أحدهم يركضُ تحت المطر، إلى كوخ نوامبغبا من أجل إعلامها بالخبر. وشاءت الأقدارُ أن تنجبَ صبياً. الأب، أودونيل، عمّدَهُ

باسم «بطرس»، بينما أسمته نوامبغبا نامدي، لأنّها تعتقد أنه بمنزلة أوبيريكا، العائد إليها. وراحت تغنّي له، وحين كان يبكي، كانت تضع حلمتَها الجافّة في فمِهِ، حتى يهدأ. لكنّها، وبغضّ النظر عن جميع محاولاتها، لم تكن تشعر بروح زوجها الرائع، أوبيريكا. وعانت مغبيكي من ثلاث حالات إجهاض، بعد ولادة ابنها، وزارت نوامبغبا مرقد الحكمة، مرّات عديدة، حتى ثَبُتَ حملُ كنّتِها، وأنجبتْ مولودَها الثاني، وهذه المرة في مقرّ البعثة التبشيرية، في أونيتشا. وكان المولودُ بنتاً. ومنذ اللّحظة التي حملتها فيها نوامبغبا، وعينا الطفلة البراقتان ركّزتا عليها، أدركتْ أنّ روحَ أوبيريكا عادتْ إليها. وكان غريباً أن يكونَ الوسيطُ فتاةً، ولكن من بمقدوره أن يتكهّنَ بطرائق وتدبيرِ الأجداد؟ الأب، أودونيل، عمّدها باسم غريس، لكنّ نوامبغبا سمّتها أفيمفونا ويعني «اسمي لن يضيع»، وفرحتْ كثيراً بسبب اهتمام الطفلة الرّزين بفنّ الخزف الذي تقوم به، وبالقصص التي ترويها لها، وتيقظّها أثناء انهماك نوامبغبا بعملها، وبخاصّةً الارتعاش الجديد الذي بدأ يظهرُ على يديّ جدّتِها. لكنّ نوامبغبا لم تكن سعيدة لأنّ أفيمفونا ستلتحقُ بالمدرسة الثانوية، (بطرس كان يعيش للتوّ مع الكهنة في أونيتشا)، لأنها كانت تخشى أنّ الطرائق الجديدة في المدرسة، التي يترتّب على الطالبات الإقامة فيها، يمكن أن تطيحَ الرّوحَ المقاتلة لحفيدتها، وتستبدل بها إمّا تحجّراً جاهلاً، كذاك الذي يتّسمُ به والدها، آنيكونوا، وإما عجزاً مزرياً، كذاك الذي تتّسم به أمّها، مغبيكي.

السّنة التي التحقت فيها أفيمفونا بالمدرسة الثانوية، في أونيتشا، شعرَت نوامبغبا بأنّ مصباحاً قد انطفأ في ليلةٍ معتمةٍ، لا قمرَ فيها. كانت سنةً غريبةَ، تلك السنة التي هبط فيها الظلامُ في عزّ الظهيرة، والفترة التي شعرت فيها نوامبغبا بألمٍ غائرٍ في مفاصلها، وعرفت أنّ نهايتها وشيكة. استلقتْ على فراشِها، تتنفّس بصعوبةٍ، بينما آنيكوينوا يتوسّلُ إليها كي

تقبلَ التعميدَ، والتطهّرَ بالزّيت، من أجل أن يقيمَ لها جنازة مسيحيةً، طالما أنه لم يعدْ قادراً على المشاركة في جنازةٍ وثنيةٍ. أجابتْهُ نوامبغبا أنه إذا فكّر بإحضار أي شخصٍ لدهنها ببعض الزّيت القذر، فسوف تصفعُ ذلك الشخصَ، بكلّ ما تبقّى لها من قوّة. كلّ ما كانت تريده هي رؤية أفيمفونا، قبل أن تلتحق بعالم الأجداد، لكنّ آنيكوينوا قال إنها تقدّمُ امتحاناتها في المدرسة، ولا تستطيعُ المجيء إلى البيت. لكنها أتت. سمعت نوامبغبا صريرَ بابها الخشبي، فنظرتْ لترى أفيمفونا، تقف هناك، إنها حفيدتها التي أتت بمفردها، من أونيتشا، لأنها لم تستطع النومَ منذ أيام، ولأنّ روحها القلقة كانت تحثّها على العودة إلى المنزل. وضعت غريس حقيبتَها المدرسية أرضاً، وفي داخلها كتابٌ يحوي فصلاً بعنوان «ترويضُ القبائل البدائية في جنوبِ نيجيريا»، ألّفه رحالّة انكليزيٌّ، من ورسيْستشير، كان قد عاش بينهم لمدّة سبع سنوات.

غريس هي التي سوف تقرأ، فيما بعد، عن هؤلاء المتوحّشين، وتدغدغُها عاداتُهم وأعرافُهم السخيفةُ، ولكن لن تربطَ نفسَها بهم، حتى جاء ذلك اليوم، وقالت لها معلّمتها، الرّاهبة مورين، إنها لا تستطيع أن تشيرَ إلى قصيدة «سؤال وإجابة»، التي علّمتها إياها جدّتها، بأنها تنتمي إلى الشعر، لأنّ القبائلَ البدائيةَ ليس لديها شِعرٌ أصلاً. إنّها غريس التي ضحكتْ بصوتٍ عالٍ، حتى قامت الراهبة مورين بإرسالها إلى الحجز، واستدعتْ والدَها، الذي صفع غريس أمام المعلمين، ليُظهِرَ لهم صرامة التربية التي علّمها لأولاده. إنها غريس التي ستربّي في داخلها احتقاراً شديداً لوالدها، على مدى سنوات طويلة، وتُمضي عطلها تعملُ مربيةً للأطفال، في أونيتشا، كي تتجنّب كرنفالات التقوى، واليقينيات الصّارمة لأبويها وشقيقها. إنها غريس التي، بعد تخرّجها من المدرسة الثانوية، ستذهبُ للتعليم في مدرسة ابتدائية في آغويكي، حيث روى لها الناسُ قصصاً عن عمليات التدمير لقريتهم، منذ سنوات، بأسلحة الرّجل الأبيض، قصصاً كان يصعبُ عليها أن تصدّقها، لأنهم أيضاً رووا لها حكاياتٍ عن حورياتٍ يظهرْن على

ضفاف نهر النيجر، يحملن في أيديهنّ رزماً من الأوراق النقدية المتموّجة. إنّها غريس، ومن بين نساءٍ قليلات كنّ يدرسن في كلّية الجامعة، في أبادان، في عام 1950، التي ستقومُ بتغييرِ اختصاصِها، من الكيمياء إلى التاريخ، بينما كانت تحتسي الشاي في بيتِ إحدى صديقاتها، بعد سماعها قصّة السيد غبويغا. الشخصية البارزة، غبويغا، ببشرته النّاعمة كالشكولاتة، والذي درس في لندن، عن تاريخ الإمبراطورية البريطانية، استقالَ، تعبيراً عن استياء عارم، حين بدأ مجلسُ الامتحانات في أفريقيا الغربية يتحدّث عن إضافة التاريخ الأفريقي إلى المنهاج، وصُعقَ لأنّ البعض ما يزال يعتبر التّاريخ الأفريقي بالموضوع أصلاً. وقد فكّرت غريس بهذه القصّة طويلاً، وظلت تتأملها بحزنٍ شديد، وجعلها تقوم بإيجادِ صلة بين التعليم المدرسي وبين الكرامة الفردية، بين الأشياء الصعبة الواضحة، المطبوعة في الكتب، والأشياء النّاعمة، المهملة، الرّاسبة في أعماق الروح. إنّها غريس، التي ستقومُ بإعادة النّظر بتعليمها المدرسي - كيف كانت تنشدُ بلهفة، احتفالاً بعيد الإمبراطورية، «ليحمي اللهُ ملكَنا المبجّلَ، وليجعلَه سعيداً، منتصراً، ومرفوعَ الهامة. وليمدّ في أمدِ حكمِهِ علينا». كيف كانت تقفُ، مذهولةً، أمام عبارات من مثل «ورق جدران،» و«هندباء برية»، في كتبها المدرسية، غير قادرة على تصوّر تلك الأشياء. وكيف عانت من المسائل الحسابية المتعلقة بالمواد الخليطة، إذ ما هي القهوة، وما هي الهندباء، ولماذا ينبغي أن يُخلطا معاً؟ إنها غريس التي سوف تبدأُ بإعادة النظرِ بتعليم والديها المدرسي، وتهرعُ عائدةً إلى المنزل كي تراهُ، وترى عينيه الدامعتين، بسبب التقدّم في السنّ، وتقولُ له لم تصلْها جميعُ الرسائل، التي قامتْ أصلاً بإهمالها، وتردّدُ خلفه كلمةَ «آمين»، عقبَ انتهائه من الصلاة، وتطبعُ قبلةً علي جبينه. إنّها غريس، وأثناء عودتها بسيارتها، عبر طرقات آغويكي، التي سوف تصبحُ ممسوسةً بصورة القرية المدمّرة، وسوف تذهبُ إلى لندن وباريس وإلى أونيتشا، وتنقّب في الملفات المغبرة، من أرشيف إلى أرشيفٍ، هناك، وتعيدُ تخيّلَ حيواتِ وروائحِ عالمِ جدّتها، تمهيداً للكتاب الذي سوف تصدره بعنوان «الترويضُ تحتَ الرّصاص: التاريخُ المستعادُ

لنيجيريا الجنوبية). إنها غريس، وأثناء محادثة عن مخطوطة أولى، مع خطيبها، جورج تشيكاديبيا- خريجٌ حديث في جامعة كوليج كينغز، في لاغوس، وهو مشروعُ مهندس، يرتدي بزّةً من ثلاث قطعٍ، وراقص حفلات محترف، لطالما كان يقول إنّ مدرسةً تعلّمُ القواعدَ، من دون اللغة اللاتينيةِ، تشبه فنجان شاي، من دون سكّر- أدركت غريس أنّ الزواج منه لن يستمرّ، حين أخبرها جورج بأنها ضلّتْ طريقَها، في اختيارها الكتابة عن ثقافة البدائيين، عوضاً عن اختيارها موضوعاً قيّماً، يستحقُّ الجهد، من قبيل التحالفات الأفريقية، في التوتر الحاصل بين القطبين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وسيقعُ طلاقهما في عام 1972، ليس بسبب الحالات الأربع من الإجهاض التي عانتْ منها غريس، بل لأنها استيقظت، ذات ليلة، تتصبّبُ عرقاً، وأدركتْ أنّها تريدُ أن تقوم بخنقهِ إذا استمرّت تُصغي إلى مونولوج مسهبٍ له، يتحدّث عن أيامِه في كمبريدج. إنها غريس التي، وبعد أن تلقت جوائز جامعية، وهي تتحدّثُ إلى أناسٍ عاقلين، رزينين، في المؤتمرات عن السكّان المحليين، من قبائل آيجاو، وليبيبيو، وإغبو وإيفيك، في جنوب نيجيريا، وكتبت تقارير عدة إلى منظمات دولية عن أشياء عادية كانت تتقاضى لقاءها أجراً مجزياً، إنّها، هي، غريس التي سوف تتخيّل أنّ جدّتها تنظرُ إليها، وتقهقهُ، مغمورةً بالخيلاء. إنها غريس، وبعد أن انتابها شعورٌ غريبٌ بأنها، في السنوات الأخيرة من حياتها، باتتْ مقتلعةً من جذورها، محاطةً بالجوائز التقديرية، وبأصدقائها، وحديقتها، العامرة بزهورٍ لا تُضاهى جمالاً، إنّها هي التي ستذهبُ بنفسها إلى قاعة المحكمة، في لاغوس، وتبدّلُ، رسمياً، اسمها الأوّلَ، من غريس إلى أفيمفونا.

ولكن في ذاك النّهارِ، الذي جلستْ فيه، على حافّة سريرِ جدّتها، في ضوء المساء الخافت، لم تكن غريس تتأمّلُ مستقبلَها. بل، ببساطةٍ شديدةٍ، اكتفتْ بأن أمسكتْ يدَ جدّتها المحتضرة، التي اخشوشنتْ راحتُها، بعد سنواتٍ طويلةٍ، أمضتها في صناعةِ الخزف.

موجز عن الكاتبة

تشيماماندا نِجوزي أديتشي، قاصّة وروائية، ولدتْ عام 1977، في نيجيريا، وهناك شبّتْ وترعرعتْ. أعمالها تُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة في العالم، وظهرت في العديد من المجلات والصحف العالمية، من مثل «النيويوركر»، و«غرانتا»، و«الفاينانشال تايمز»، وسواها. قصتُها «السفارة الأمريكية» تم اختيارها في كتاب (القصص الفائزة بجائزة أو. هنري، 2003). وروايتها «نصف شمس صفراء» فازت بجائزة أورانج للرواية، ورُشحت للقائمة النهائية لجائزة حلقة النقّاد للكتاب القومي، في الولايات المتحدة، وقد نوّهتْ عن الرّواية مجلة نيويورك تايمز، وأدرجتها في قائمتها للكتب البارزة، وقد اختيرت أفضل كتابٍ للعام من قبل مجلّة «قضايا النّاس والسود»، ومجلّة «بوك ريفيو». فضلاً عن جوائز أدبية أخرى مرموقة حصلت عليها الكاتبة. توزّعُ أديتشي وقتَها بين الولايات المتحدة، حيث تدرّس الكتابة الإبداعية في أكثر من جامعة، وبين موطنها نيجيريا، وتُعتبر، محلياً وأفريقياً، من أهمّ الأصوات الروائية الجديدة، التي تمشي، باقتدار، على خطى سلفها النيجيري، تشينوا تشيبي، صاحب الرواية الشهيرة «الأشياء تتداعى».

موجز عن المترجم

عابد إسماعيل: شاعر ومترجم من سوريا، حاصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الأمريكي المعاصر، من جامعة نيويورك (NYU) عن أطروحة بعنوان «الشاعر ولاس ستيفنس: تخيل صوفي أسمى».

صدر له:

في الشعر:

- طواف الآفل دار الكنوز الأدبية، 1998، بيروت
- باتجاه متاهٍ آخر دار الكنوز الأدبية، 1999، بيروت
- لن أكلّمَ العاصفة دار الكنوز الأدبية، 2000، بيروت
- ساعةُ رمل دار الينابيع + دار الكنوز، 2003، دمشق، بيروت
- لمعُ سراب دار التكوين، 2006، دمشق
- أشباحُ منتصفِ النّهار دار التكوين، 2018، دمشق

في الترجمة:

- قلق التأثر، هارولد بلوم، ط1، بيروت، 1998، طبعة جديدة، دار التكوين، 2019.
- نظرية لانقدية، كريستوفر نوريس، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 1999
- سبع ليال، خورخي بورخس، دار الينابيع، دمشق، 1999

- خريطة للقراءة الضالة، هارولد بلوم، ط1، بيروت، 2000، طبعة جديدة، دار التكوين دمشق، 2019.
- بورخس (مذكرات)، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، 2002
- الحادي عشر من أيلول، نعوم تشومسكي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، 2002
- نصف حياة، ف. س. نايبول، دار المدى، دمشق، 2002
- ادفنوني واقفاً، إيزابيل فونسيكا، دار البلد، دمشق، 2003
- ساعة حياة، ويليس بارنستون، دار المدى، دمشق، 2003
- فنّ الكتابة، توني بارنستون وتشو بينغ، دار المدى، دمشق، 2003، (الطبعة الثالثة)
- باقة برية، هاري مارتنسون، دار المدى، 2005
- الذين يحبّون الشوك، جونيشيرو تانيزاكي، دار المدى، 2005
- أغنية نفسي، وولت ويتمان، دار التكوين، دمشق، 2006، طبعة جديدة، دار التكوين، 2019.
- سيرة الغجر، إيزابيل فونسيكا، دار التكوين، دمشق، 2006، طبعة جديدة، دار التكوين، 2019.
- أنيارا، (قصيدة ملحمية)، هاري مارتنسون، دار المدى، 2006
-اسمي سلمى، فادية فقير، دار السّاقي، بيروت، 2009 (صدرت الطبعة الثالثة)
- الجنس والمدينة، كانديس بوشنيل، دار الساقي، بيروت، 2010 (صدرت الطبعة الثالثة)
-السمكة والخاتم، جوزيف جاكوبس، دار كلمة، أبو ظبي، 2010
- الحمقى الثلاثة، جوزيف جاكوبس، دار كلمة، أبو ظبي، 2010
- الأميرة ميراندا والأمير هيرو، إ. ج. غلينسكي، دار كلمة، أبو ظبي، 2010
-اليابان في القرن الثامن عشر، لويس بيريز، دار كلمة، أبو ظبي، 2012

- تشادو: طريقةُ الشّاي، ساساكي سانمي، دار الكتب الوطنية، هيئة أبو ظبي للثقافة والسياحة، عام 2015.
- إيروتيكا، الشعر الصيني، تشاو بينغ/ توني بارنستون، دار التكوين، دمشق، 2019
- شاعرة في الأندلس، ناتالي حنظل، دار التكوين، دمشق، 2019

في النقد:

- ولاس ستيفنس: تخيل صوفي أسمى (باللغة الإنكليزية)، أطروحة دكتوراه من جامعة نيويورك، 1995
- فُكّ أزرار الغيتار، مختارات شعرية (باللّغة الإنكليزية)، منشورات بانيبال، لندن، 2006
- أدونيس: عرّاف القصيدة العربية، (باللغة العربية) منشورات دمشق عاصمة للثقافة العربية، 2008
- جماليات المتاهة (قراءات نقدية في الشعر العربي المعاصر)، دار التكوين، دمشق، 2019
- سليم بركات، ساحر المخيلة، دار التكوين، دمشق، 2019.

المحتويات

كان أبي وأمي ينظران إلى وجه نامابيا الضاحك بقلقٍ صامت، وكنت أعلم علم اليقين أنّهما كانا يتساءلان في سرهما ما إذا كان ابنهما عضواً في عصابة أم لا. في بعض الأحيان كنت أجزمُ أنه ينتمي إلى إحداها.

فأفراد العصابات يتمتعون بسمعة ذائعة الصيت، وسمعةُ نامابيا واسعةُ الانتشار. الصبيان الآخرون كانوا ينادونه بلقب - «الجبان»- ثم يصافحونه يداً بيد، كلّما مرّ بهم، أما الفتيات، وبخاصة شلّة «الجميلات الكبيرات» المعروفة، فكنّ يعانقنه لأطول مدّة ممكنة، في كلّ مرّة يقلْن له مرحباً. كان يرتادُ جميع الحفلات، تلك الهادئة، في السكن الجامعي، وتلك الأكثر صخباً، في المدينة، وكان، بحقّ، الذكر المحبّب بين الفتيات، والذكَر المحبب بين الذكور، والشابّ الذي يستطيعُ أن يدخّن علبة روثمان كاملة في اليوم، بل واشتُهر بأنه يستطيع أن يحتسي صندوقاً كاملاً من البيرة، في جلسةٍ واحدة. وفي أحيان أخرى، كنتُ أظنّ أنه لا ينتمي إلى أي جماعة بعينها، لأنّ سمعته اخترقت الآفاق، وكان أسلوبه يتطلّب أن يصادق الصبيان من مختلف الانتماءات، وأن لا يكون عدواً لأحدٍ منهم. كما أنني لم أكنْ متأكّدةً أنّ شقيقي يمتلك حقاً المؤهّلات المطلوبة- الشجاعة وفقدان الأمان- للانضمام إلى عصابة ما. المرة الوحيدة التي سألته فيها ما إذا كان فرداً في عصابة، نظر إليّ بدهشةٍ، عبر رموشه الطويلة، الكثيفة، كأنما ليقول لي، ينبغي أن تعرفي أكثر من أن توجّهي سؤالاً كهذا، فقط ليجيب جازماً، «بالطبع، لا». عندئذٍ صدّقته.

وأبي صدّقه أيضاً. لكنْ حقيقة أننا صدّقناه لم تغير في الأمر شيئاً، فقد ألقي القبض عليه، ووجّهت له تهمة الانتماء إلى عصابة. وقد قال لي هذا- «بالطبع، لا»- أثناء أوّل زيارة لنا إلى قسم الشرطة، حيث زُجّ به في السجن.

وإليكم ما حدث. في أحد أيام الاثنين الرّطبة، انتظر أربعةٌ من أفرادالعصابة، أمام بوابة الجامعة، وكمنوا لأستاذة جامعية، تركب سيارة مرسيدس، حمراء اللون. وضعوا مسدّساً في رأسها، وجرّوها خارج السيارة، ثم ركبوا متوجّهين إلى كلّية الهندسة، وهناك قاموا بإطلاق النّار على ثلاثة صبية كانوا يخرجون من قاعات المحاضرة. كان الوقتُ ظهراً. كنت، أنا، داخل الصفّ المجاور.

ISBN 978-9933-6047-3-8

